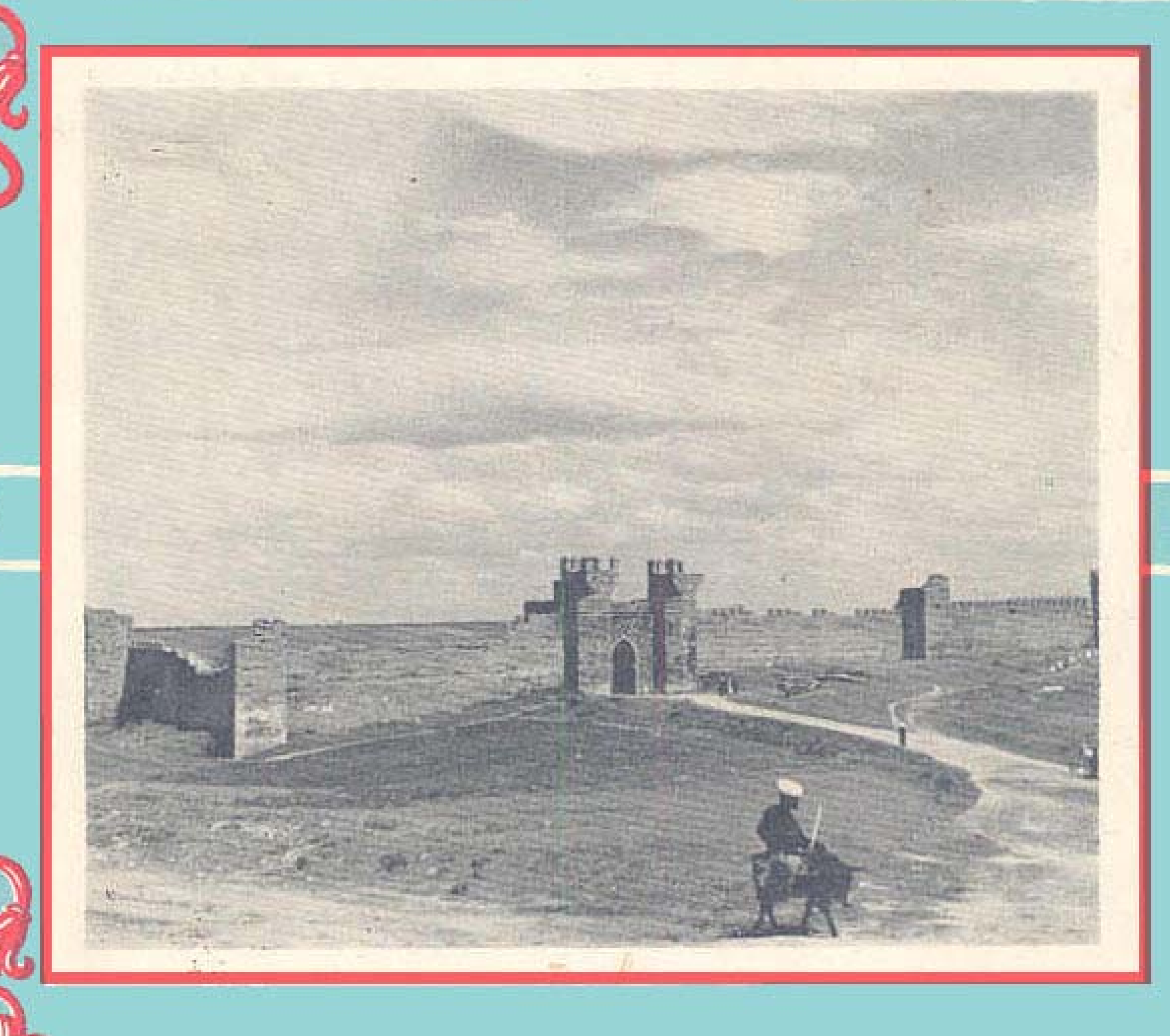


مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الاوقاف
الرباط المغرب الاقصى



العدد العاشر - السنة السادسة
صفر 1383 - يوليوز 1963
ثمن العدد 1.50 درهم

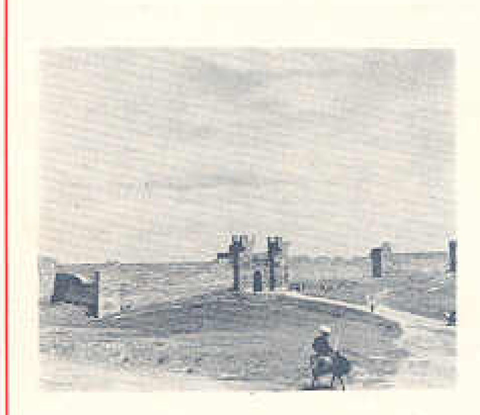
العدد العاشر
السنة السادسة
صفر 1383
يوليوز 1963
ثمن العدد
1,50 درهم

دعوة الحق

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



سور شالة ، المدينة التاريخية القديمة التي ترك فيها الرومان والعرب آثارا خالدة

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة ((دعوة الحق)) ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فاكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك فى حساب :
مجلة ((دعوة الحق)) رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث راسا فى حوالة بالعنوان التالي :
مجلة ((دعوة الحق)) ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
فى كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
((دعوة الحق)) ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

المجتمع الإسلامي وأهدافه

الدكتور محمد البهي

المجتمع :

ليس اي مجتمع انساني هو اجتماع عدد من الناس ، كيفما كان عددهم ، في رقعة واحدة . وانما يكون المجتمع الانساني حيث يكون هناك هدف للذين وجدوا في بقعة واحدة من بقاع الارض . ولـذا ليس للبدائيين مجتمع ، وهم فحسب مجموعة من الناس . ويظلون مجموعة لاتربطهم رابطة ما سوى ان يسعى كل واحد منهم لان يعيش ، اي لياكل ، ويشرب ، ويسلك سلوكا جنسيا ، حتى اذا اجتمعوا على هدف اصبحوا مجتمعا من المجتمعات الانسانية .

وهدف اي مجتمع انساني يسمو فوق رغبات الافراد كافراد ، ولكنه يتصل بصالحهم جميعا من حيث انهم يكونون لبنات المجتمع .

قد تكون « السيادة » مثلا هدفا لمجتمع ، وقد يكون « التحرر » من الخضوع لسيادة الغير هدفا لمجتمع آخر . وبما ان الانسان في اشتباكه مع فرد آخر قد يناضله من اجل ان يسود عليه ، وقد يناضله من أجل ان يتخلص من سيادته ، فكذلك المجتمعات الانسانية في قديمها وحديثها تتكون او تعي ذاتها كمجتمعات اما من اجل السيادة والغلبة ، او من اجل التخلص من سيادة الغير وسطوته . اذ ان الاهداف التي يسعى اليها الفرد في الحياة الخاصة الضيقة مع غيره هي ذات الاهداف التي يسعى اليها المجتمع في حياته العامة كمجتمع . والفرد تكمن فيه قوى عديدة ، او غرائز كثيرة ، ولكنها ترجع في النهاية الى المحافظة على كيان وجوده وذلك اما ببقائه ذا قوة مرهوب الجانب ، او ذا نضال وكفاح ضد من يستذله او يستضعفه .

المجتمع الاسلامي :

والمجتمع الاسلامي انما وجد لهدف هو : ان يتحرر كمجتمع وان يسود او بعبارة أخرى ليتخلص من ضعف ويكون ذا قوة وشوكة . والمجتمع الاسلامي ليس مجتمعا ذا رقعة معينة ، ولا ذا جنس انساني واحد . هو مجتمع البشرية كلها . ومن ثم قام ووجد ليحرر البشرية من رق الخرافة والكهانة ، ومن الاعتقاد في « الصدفة » و « الحظ » ، والاعتقاد في الاصنام والاوثان ، ومن الشرك في العبادة والايمان . وقام ووجد من جانب آخر ليبقى متحررا من ذلك كله ؛ وليبقى ذا سيادة وقوة : ذا سيادة على الظلم والاستعباد ، ذا سيادة على ارتكاب الفواحش والموبقات ، ذا سيادة باداء الواجب ، وذا قوة في النفس والضمير ، وبفعل الخير وصنع ما يربح ويسعد النفس البشرية كلها .

والمجتمع الاسلامي اذن هو مجتمع تحرري : مجتمع خلقي .

الايمان بوحدانية الله :

ولكي تتحرر الانسانية من صور الضعف والاستدلال في جانب الاعتقاد والتوجيه اوجب الاسلام ان تكون عبادة الانسان في المجتمع الاسلامي ـ الذي سيكون المجتمع الانساني التحرري ـ لله وله وحده من غير ان يكون له شريك فيها . والله الذي يجب أن يعبد وحده هو الكمال المطلق في الوجود : « الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى » . والاسماء الحسنى التي لله سبحانه وتعالى هي صفات الكمال التي يستحق من اجلها أن يكون ربا ومعبودا : « ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ، لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف

الخبير » . فهو واحد مطلق في انه خالق كل شيء ، وهو واحد مطلق في انه لايحد بالبصر . هو فوق كل الكائنات المحسة جميعها .

والايمان بالله وحده هنا هو النقطة الفاصلة في حياة الانسانية : بين ضعف في الاعتقاد والتصور يجب ان يمضي الى غير رجعة ، وقوة مترقبة في الانطلاق نحو المثل العليا . وهو القيم الكاملة . والسعي نحو الاقتراب منها يجب ان يتحقق . اذ بالايمان بالله وحده ، اي بالكمال المطلق في الوجود يتخلص الانسان من أن يسخر نفسه في ارتباطه في العبادة بالكائن المحس ، يتخلص من الرق لمن هو دونه في الخلق او لمن هو مثله . وكرامة الانسان تقتضي ان يكون في عبادته متوجها الى من هو فوقه . وليس هناك فوق الموجودات جميعها الا الله الذي « ليس كمثله شيء » .

عبد الانسان في القديم الحيوان ، وعبد الصنم من الاحجار ، وعبد الانسان . « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » .
عبد الانسان من دون الله ما احصيناه وما لم نحصه ، وربط مصيره في الحياة بتلك الكائنات الارضية التي لا تسمع الدعاء وان سمعته فلا تجيبه لعجز عن الفهم او عن التصرف .

جاءت رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام بالدعوة الى الايمان بالله وحده ، وقد كانت هي دعوة الرسل السابقين قبل تحريفها من الدعاة اليها : « وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه : انه لا اله الا انا فاعبدون » — جاءت بهذه الدعوة لتعيد الى الانسان قيمته ، لتصحح له وضعه في الحياة والوجود : « وهو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا » « الم تر ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . ووضعه في الحياة هو الوضع الذي هيء لصاحبه ما في الارض جميعا وسخر له ما في السموات وما في الارض من جبال وانهار ومن بر وبحر وجو ، واحيط بما في ذلك كله من نعم وقف عليها او هو في سبيل الوقوف عليها مما لم تكتشف له بعد « ظاهرة وباطنة » .

وكان وضعه في الحياة والوجود هذا الوضع لانه المخلوق الذي أعد بطبيعته للانتفاع بالوجود « الذي احسن كل شيء خلقه ، وبدا خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة، قليلا ما تشكرون » فجانب الحياة « ونفخ فيه من روحه » ، وهي الطاقة على الحركة والسعي التي زودت بها طبيعة الانسان كأي كائن حي — كان السمع والبصر وهما اقوى وسائل الحس في الادراك للمشاهد، وكان الفؤاد وهو شعار القلب مركز الايمان والاعتقاد . وشعار العقل مصدر الادراك والتصور لما غاب عن الحس والشاهد . وبالسمع والبصر والفؤاد تميز الانسان ، ومن اجل تميزه كان له هذا الوضع الخاص في حياة الوجود كله الذي أرادت رسالة الاسلام — عن طريق الدعوة الى الايمان بالله وحده — ان تعيد اليه الوعي والشعور به .

فالدعوة الى الايمان بالله وحده اذن تنطوي على تعريف الانسان بمنزلته ووضعه وقيمته في الحياة . ومن الكرامة للانسان ، كمخلوق متميز على ما عداه من المخلوقات ، ان يعرف وضعه الصحيح وقيمته الذاتية. ومن المهانة له ، والسخرية منه ، والاستخفاف به ان يبقى في دائرة ما انحدر اليه في الاعتقاد من عبادة غير الله ممن هو دونه او مثله في الخلق .

وهي اذن دعوة الى التحرير والتحرر : دعوة الى « العزة والكرامة » دعوة الى الانطلاق في الوجود . والكشف عن خفيه قبل واضحه لانه سخر له من خالق الكون كله ، وهو الله ، ما في السموات من أجواء وعوالم، وما في الارض باطنها وظاهرها .

والمجتمع المؤمن بالله وحده هو المجتمع الانساني المتحرر ، هو المجتمع الذي فصل في وعي ويقظة بين الانسان ككائن مخلوق متميز وبين كائنات اخرى يعدها مسخرة له . والمجتمع الاسلامي هو المجتمع المؤمن بالله وحده .

واذن هدف المجتمع الاسلامي — لانه المجتمع الذي آمن بالله وحده — هو التحرر مما يحط بكرامة الانسان ، ومما يقيده عن الانطلاق والسعي في الحياة ، ومما يعوقه عن أن يكون صاحب سيادة في ارض الله وسمائه .

والمجتمع الاسلامي بايمانه بالله هو مجتمع انساني ويظل مجتمعا انسانيا . ليس مجتمعا «دينيا» بمعنى ان القوامة فيه لطبقة تعلو عن الناس الباقين وتقل درجة عن الاله ، وهي الطبقة التي يدعى لها ان الامر قد وكل اليها من الاله ، وانها بناء على ذلك تتصرف بمشيئته وحكمها لذلك حكم له صفة القداسة وطابع الالزام من غير مراجعة . كما كان الشأن في القرون الوسطى ايام حكومة الكنيسة الرومانية في القطاع الاوربي .

لا ! الايمان بالله لا يمنح المجتمع الاسلامي مثل هذه السلطة ؛ بل على النقيض كما ذكرنا يدفع افراده الى التحرر مما يعوق عن العمل والتفكير والسعي والتقويم ، ووجود سلطة لها طابع العصمة فيما ترى وتحكم ، وطابع النيابة عن الله فيما تتصرف وتوجه ، من شانه ان يعوق عن العمل والتفكير والسعي ؛ لانه سيصبح عمل الانسان وتفكيره وسعيه مرتبطا بما ترى هذه السلطة ، وهي سلطة مهما قيل فيها يمارسها فريق من الناس قد تكون لهم حزبية وهوى وغرض ، وعندئذ يصبح الانسان وغرضه وحزبيته ـ دون الصالح العام ـ قانونا لا يراجع وامرا لاتناقش قداسته، وما الشرك بالله الا صورة من صور هذه السلطة . ومكان الشرك فى التعاليم الاسلامية يحدده مثل هذه الآية الكريمة : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » .

واذن الايمان بالله وحده الذي يدعو اليه الاسلام، ويصر عليه ، يتعارض مع قيام سلطة دينية الهية على هذا النحو . ومن هنا من يتحدث عن دين وحده ودولة وحدها فى الاسلام او فى المجتمع الاسلامي يتحدث عن شيء غريب عن طبيعة الاسلام . وهو بحديثه هذا يحكي تقليدا للكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى القرون الوسطى عندما كانت تسوس المجتمع المسيحي الاوربي باسم الاله ، ومنحت رجالها العصمة فى القول والفعل ، وفرضت الطاعة المقدسة على من عداهم فى هذا المجتمع لهؤلاء النواب عن الاله والمشاركين له فى العصمة وهم رجال الكنيسة .

الاسلام يعرف فحسب مجتمعا انسانيا يؤمن بالله وحده ، وبالرسالة التي نزلت على صاحب الدعوة الاسلامية محمد بن عبد اللهعليه الصلاة والسلام .

(2) الخلقية الدينية او الضمير الديني

واذا كانت الوحدة فى الايمان بالله هي هدف المجتمع الاسلامي وفى الوقت نفسه هي العامل الاساسي فى تكونه ـ فان الخلقية الدينية او الضمير الديني عامل فى بقاء هذا المجتمع ، وعامل فى تماسكه وتعاونه .

والخلقية الدينية هي استطاعة نفسية تتكون عند المؤمن بالله يصدر عنها تصرفات لها طابع الانسجام مع تعاليم الرسالة التي جاء بها صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام . وهي اذن كما تقوم على وحدة الايمان بالله تقوم أيضا على الايمان برسالة الرسول وما جاء فيها . وهناك عامل آخر فى تكوينها يضاف الى هذين العاملين وهو الايمان بالجزاء فى الآخرة . والايمان بالآخرة وما يتم فيها من جزاء يبعث الحيوية واليقظة باستمرار فى أن تؤدي الخلقية الدينية وظيفتها من العمل طبق ما آمن به الانسان . وفروع الايمان الثلاثة : الايمان بالله ، والايمان بالرسول وبما انزل عليه من وحي هو مضمون رسالته ، والايمان باليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء ـ تذكرها فاتحة سورة البقرة فى قول الله تعالى : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك ، وما انزل من قبلك . وبالآخرة هم يوقنون . اولئك على هدى من ربهم ، واولئك هم المفلحون » فوصف الذين يؤمنون بهذه الانواع الثلاثة بانهم هم المتقون ، وبانهم على هدى من ربهم ، وبانهم هم المفلحون الناجحون . فالايمان بالغيب فى مقدمته الايمان بالله ، لانه لاتدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير . والايمان بما انزل هو الايمان بالوحي والرسالة الالهية ، والمعرفة اليقينية بالآخرة هي الايمان بها فى صورة مؤكدة . وفى سورة النساء يعبر القرآن الكريم عن هذه الفروع الثلاثة من الايمان تعبيرا آخر فيطلب الايمان بها ثم يصف من يكفر بها بانه قد ضل ضلالا بعيدا : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي انزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » .

وهذه الخلقية الدينية التي تقوم على عناصر الايمان الثلاثة هي التي تدفع الانسان الى حسن السلوك ، والى الاستقامة ، والى التعاون والتآخي بين الافراد . ودفعها الى ذلك دفع ذاتي لا يحتاج الى محرك خارجي ولا الى رقابة خارجية . اذ السلطان عليه هو الاعتقاد الذي يحمله المؤمن بين جنبيه . والفرق بين المؤمن الذي يحمل فى نفسه القوة الدافعة الى العمل المستقيم والتعاون مع الغير ، وبين القانون الذي يضعه المجتمع ويفرضه بقوة الحراسة وهي القوة التنفيذية ـ الفرق هو ان سلطان القانون ومنا يصحبه من قوة تنفيذية خارج عن الانسان ومفروض عليه . والانسان فى المجتمع المدني الحديث ، وهو المجتمع صاحب القانون الوضعي وصاحب السلطة التنفيذية ، يعمل بدفع هذه القوة الخارجة عنه . ولو تهاون هذا المجتمع فى تطبيق القانون يوما ما ، او خفت

رقابة السلطة التنفيذية ، فان الفرد بدوره يتهاون فى اداء الواجب ، وهو ما يحتم عليه القانون اداءه وتفرضه عليه السلطة التنفيذية .

واذن فالمجتمع الذي لا يعتمد على قوة دينية دافعة فى افراده ـ كالخلقية الدينية ـ يتوقف العمل الجماعي فيه على قوة السلطة التنفيذية ، وعلى دقة مراقبتها لتنفيذ القانون الذي وضع لهذا المجتمع . والدولة الحديثة ؛ تتحمل عبئا ثقيلا فى سبيل الحصول على مثل هذه القوة التنفيذية وعلى مثل هذه الدقة فى مراقبتها .

وفرد المجتمع الحديث يشعر دائما وأبدا بانه مسوق ومدفوع بقوة القانون ، ويشعر كذلك بان حريته محدودة واختياره محدود ، لانه شبه مجبر على ما يفعل ويؤدي من عمل . بينما الفرد فى المجتمع صاحب الخلقية الدينية ـ كالمجتمع الاسلامي فى نظام تكوينه ـ لا يشعر بمثل هذا الضيق النفسي ، بل يشعر بانه هو الذي يدفع نفسه وانه لذلك حر فيما يندفع اليه .

والحرية الفردية على هذا النحو فى المجتمع صاحب الخلقية الدينية عامل فى البناء ، وعامل فى اتقان العمل : لان الحرية فى العمل والدفع الذاتي نحو الفعل تصحبهما دائما رغبة وبجانب الرغبة متعة كذلك . ولذلك حاول بعض الاخلاقيين المثاليين فى المجتمع الاوربي فى القرن الثامن عشر أن يضع خلقية ذاتية تقوم على فكرة : « اداء الواجب لذات الواجب » . وشاعت هذه الخلقية المثالية فى الشعب الالماني على الخصوص ، وعرفت هذه الفكرة بفكرة «كانت» او بالواجب الخلقي . ومع انها خلقية دافعة نحو العمل من ذات الانسان دون رقابة القانون الوضعي وما يصحبه من قوة تنفيذية ـ فانها تفترق عن الخلقية الدينية التي يريدها الاسلام للمجتمع الاسلامي ، والتي هي اساس لتماسك المجتمع الاسلامي وتعاون افراده . لانه مهما كان الامر فلا يغيب عن اذهاننا ان اساس القوة الخلقية الدينية هو الاعتقاد بالله ، وان اساس الخلقية المثالية هو تصور عمل الواجب من الانسان للانسانية . وشتان بين قوة تعتمد على الاعتقاد بالله واخرى تقوم على تصور الانسان للانسانية . فالاعتقاد بالله من شأنه أن يبقى ، أو أن يطول اجله على الاقل ، بينما تصورات الانسان مهما كانت تخضع للعوامل التي يتأثر بها الانسان . ويسهل عندئذ ان يتغير تصور الانسان من لون الى لون آخر .

هذه الخلقية الدينية التي تقوم على العناصر الثلاثة للايمان : الايمان بوحدة الله ، وبرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وباليوم الآخر ، هي اذن قوة مثمرة فى ان يحسن الانسان سلوكه وأن يحسن فى تعامله مع غيره . واذا احسن الانسان فى سلوكه وفى تعامله مع غيره لم يكن التعاون بين الافراد امرا ممكنا فحسب وانما نتيجة حتمية بينهم . بل سيؤدي الى الشعور بالاخوة ، وايجاد الالفة القائمة على المحبة . وهنا يكون التساند والتماسك .

مضمون الرسالة الالهية :

وبما ان الايمان بوحدة الله الذي هو عنصر فى تكوين الخلقية الدينية هو فى واقع الامر ايمان بالتحرر من الخرافة ، والاعتقادات الباطلة ، والذلة ، والمهانة . وايمان بالمستوى الرفيع فى الانسانية ، وهو مستوى العزة والكرامة ـ فالايمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ليس فى واقع الامر ايمانا بشخصه كانسان . وانما هو ايمان به كصاحب رسالة وكحلقة فى تبليغ وحي الله الى الناس . واذا كان مضمون هذه الرسالة تخطيطا لسلوك الفرد ، ولحدود التعامل بين الفرد والفرد فى المجتمع ، فالايمان بالرسول عندئذ وبرسالته هو اتباع لتنفيذ مضمون هذه الرسالة ، اي لتنفيذ حدود الاستقامة فى السلوك وخطوط المعاملة بين الافراد .

واذا رجعنا الى مضمون هذه الرسالة وما رسمته من حدود وتخطيطات فسنجد ان ما صنعته فى ذلك يهدف الى التعادل والتوازن بين ثنائية الفرد وبين الفرد والفرد فى المجتمع . اذ الفرد (وان كان فى مظهره وحدة واحدة) فى واقع امره يتكون من جانبين متقابلين أو متنازعين : يتكون من الحكمة التي توحي بالاعتدال ، ومن الهوى الذي يوحي اليه بالتطرف والخروج عن حد الاعتدال ، يتكون من عقل وجسم ، وكل منهما له اتجاهاته وميوله ، وهنا نجد رسالة الاسلام فى هذه الدائرة ، وهي دائرة الفرد ، لم تنكر اتجاها من هذين الاتجاهين . وان ما حددته فى ذلك شأنه يكفل التوازن بينهما : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض . ان الله لا يحب المفسدين » . فهذه الآية نرى منها أن الاسلام يقر طبيعة الانسان على أنها طبيعة مادية روحية ، على انها طبيعة واقعية مثالية . فبينما لايحول بينه وبين الاستمتاع باللذائذ ، وهذا ما يتصل بالجانب المادي . اذ به يطلب من الانسان أن

يكون في استمتاعه بهذا الجانب ، وفي تحصيله الدنيا ، قاصدا وجه الله . ومعنى وجه الله في ذلك أن لاينحرف بالدنيا الى الفساد والاعوجاج ، اي لايتخذ مما يحصل عليه من جاه الدنيا وما لها وسيلة لاثارة العبث والفساد في المجتمع ، وهذا معنى قول الله : « ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين » .

اما في دائرة المجتمع ، اي في دائرة علاقة الفرد بالفرد فان الاسلام وضع نظاما للاسرة ، وهي اقل وحدة من وحدات المجتمع ، وضع نظاما للتزاوج وللزوجية ، اي لاشراك فردين في حياة واحدة لغاية واحدة ، ونظامه في هذا لا يقضي على فردية الاثنين ، ولا يطلب صهر احدهما في الآخر ، لانه يعلم ان الخصائص الفردية ، وهي ما لكل فرد على حدة ، باقية لا يمكن ان تفنى ولا ان تذوب في خصائص فرد آخر ، وكل ما طلبه الاسلام في هذا الشأن هو أن يكون هناك انسجام وتعادل بين الطرفين ، لا يطغى احدهما على الآخر ، ولا يستهين احدهما بالآخر ، ولا يذل احدهما الآخر ، وانما يسيران جنبا الى جنب كما تسير الاجزاء المتناسقة في وحدة واحدة . ومن هنا جعل لكل من الطرفين في الزوجية حقوقا وواجبات . « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ، فالمماثلة في الواجبات والحقوق اذن قائمة بين الاثنين . اما هذه الدرجة التي تذكرها الآية وتجعلها خصيصة او ميزة في جانب الرجل فليست الا تلك القوامة التي تشير اليها الآية الاخرى : « الرجال قوامون على النساء » ، وهذه القوامة ليست عبارة عن سلطة وسيادة ، وانما هي قيادة وتوجيه ، ولم يجعلها الاسلام في جانب الرجل الا لان الرجل بحكم تكوينه في طبيعته ذو مسؤولية في الحياة الخارجية لا تستطيع المرأة بحكم طبيعتها أن تقوم بها كقاعدة وان امكنها القيام بها على سبيل الاستثناء . اذ طبيعة المرأة بحكم أنها تحمل وتلد هي في رعاية حملها ، وفي جانب ولدها ، وهي من اجل ذلك لاتتفرغ للحياة الخارجية كما يتفرغ لها الرجل بحكم طبيعته . لذلك كان السعي لحفظ حياة الاسرة وصيانتها امرا يجب أن يتكفل به الرجل ويسأل عنه . واذ كان وضعه على هذا النحو فمن غير ما شك يجب ان تكون له قيادة ، وأن يكون له توجيه . والحدود الاخرى التي وضعها الاسلام في معاملة الرجل للمرأة تمنعه من أن يستغل هذه القوامة ، او يسيء الى المرأة: «الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان» . فطلب الاسلام الاحسان في الابقاء على الزوجية ، كما طلب هذا الاحسان نفسه فيما لو اراد الرجل أن يفارق امراته . والمؤمن صاحب الخلقية الدينية ـ بحكم انه مؤمن وصاحب خلقية دينية ـ لايكون الا محسنا ، لا يستغل ولا يسيء استخدام ما وكل اليه من قيادة وتوجيه ، واذن قوامة الرجل هي محض توجيه واخلاص فيه لصالحهما معا .

ولم يشأ الاسلام ـ لانه يبقي على فردية الفرد ولا يدع احد الاثنين ينصهر في الآخر ـ أن يجعل الزوج بحكم هذه القوامة مستغلا لزوجته فيما تعطي او فيما تملك او فيما تعتقد وترى . شيء واحد يجب ان تحرص عليه المرأة وهو ان لا تسيء عن طريق ما تملك او تعتقد الى زوجها ، الا تقصر في أداء ما عليها من واجبات كما انها لا تتوانى في المطالبة بما لها من حقوق .

واذا تجاوزنا دائرة الزوجية الى اسرة القرابة فاننا نجد الاسلام يطلب كذلك ان يكون هناك توازن وتعادل بين اسرة الزوجية. يقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى ... » . « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا . اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » . « ووصينا الانسان بوالديه احسانا » . فطلب الاحسان في معاملة ذي القربى ، واكد هنا هذا الطلب في معاملة الوالدين خاصة كما طلب الاحسان في معاملة احد الزوجين للآخر ، وهذا ضرب من الاحسان يمثل ارقى وارفع مستوى انساني في المعاملة ولا شك أن ما يتحمله الآباء في سبيل الابناء يوحي بانه ينبغي أن يكون موقف الابناء منهم على ما يطلبه القرآن الكريم .

اما الآباء في موقفهم من الابناء فلم يوصهم الاسلام هنا على نحو ما اوصى الابناء قبل الآباء لان الاسلام يعتمد على العلاقة الطبيعية بين الجانبين وهي علاقة قوية من جانب الآباء نحو الابناء ، ولا تماثلها في القوة علاقة الابناء بآبائهم . وكل ما اوصى به الاسلام هنا هو الا يفتتن الآباء بالابناء . يقول الله تعالى : « انما اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم » .

وهكذا انتركنا اسرة الزوجية واسرة القرابة الخاصة الى القرابة البعيدة نجد الاسلام ينصح بالتعاطف والتراحم ، كما ينصح بأن يشرك الغني الفقير في ماله . يقول الله تعالى : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين ... الآية »

وحتى فى من يتصل بالاسرة ، سواء كانت اسرة الزواج او اسرة القرابة ، نجد الاسلام يطلب هذه الرعاية حتى لا يكون هناك حقد ولا يكون هناك بغضاء . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى حق الخدم : « اخوانكم خولكم . اطعموهم مما تطعمون ، والبسوهم مما تلبسون ، ولا تعذبوا عباد الله » .

واذا كانت نظرة الاسلام الى الاسرة فى صورها المختلفة هي هذه النظرة التي تقوم على طلب التعادل والتوازن بين افرادها ـ فان المجتمع الكبير ، وهو المجتمع الاسلامي ، مطالب ايضا من قبل الاسلام بأن يكون فيه التوازن والتعادل والتواد .

ولم يشأ الاسلام ان يكون هذا التعادل او التوازن منبثقا من دفع خارجي ـ كما ذكرنا ـ وانما أراد أن يكون مصدره هو ذات الفرد وذات المجتمع من داخله ومن نفسه . ومن هنا حث الاسلام كثيرا على « الاحسان » . وليس الاحسان هو التفضل واعطاء الفضل من مال أو غيره . وانما الاحسان هو التصرف طبقا لمستوى انساني مهذب . الاحسان مشتق من احسن ضد أساء . احسن فى التصرف ، احسن فى العطاء ، احسن في العمل ، احسن في العلاقة ، احسن فى رعاية الروابط ، احسن فى الاقناع ، احسن فى الستر على الاعراض ، احسن فى رعاية الحرمات وحفظها . كل ذلك احسان يطلبه الاسلام . وهذا الاحسان لا يتم مطلقا الا عن خلقية دينية ، الا عن ضمير خلقي ، ولا يتم عن دفع القانون الوضعي الانساني ، ولا عن رقابة السلطة التنفيذية التي تصاحبه وتقترن به .

ثم ان الرسالة الالهية التي جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام والتي يعد الايمان بها عنصرا من عناصر الخلقية الدينية او الضمير الديني ـ لها مرونة خاصة تتمثل فى مبدأ الاجتهاد ، ذلك المبدأ الذي تشير اليه الآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ، فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير لكم واحسن تأويلا » ، فالمراد بأولي الامر هنا هم اولوا الراي واصحاب الاجتهاد . ويقصد القرآن برد النزاع الى الله ورسوله رده الى كتاب الله وسنة رسوله وما يفهمه المسلمون منهما .

وهذا المبدا يعطي الشريعة الاسلامية او الرسالة الاسلامية فيما عدا أصول الاعتقاد حيوية وامكانيات الملاءمة بين ايمان المؤمنين بهذه الرسالة وظروف الحياة التي يعيشون فيها ومقتضياتها . وبهذا يمكن للمسلمين ان يعيشوا دائما فى حياة متطورة وفى ظل الايمان الاسلامي معا . وهذه ميزة يستطيع المجتمع الاسلامي عن طريقها ان يعيش فى كل وقت دون أن يتعارض مع مبادىء الاسلام العامة أو يصطدم مع طبيعة الحياة التي يعيش فيها .

وبجانب هذا المبدأ الذي ترعاه رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام مبدا آخر يتطلبه تماسك المجتمع نفسه ، اي مجتمع . وهذا المبدا هو الغاء اعتبار العنصرية . فلا القبلية ولا اللون بحاجز عن ان يكون المسلم اخا للمسلم ومتعاونا معه « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » ، « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . فالقرآن الكريم يؤكد ان المسلمين مع اختلافهم فى الجنس ، او فى اللون ، امة واحدة ، كما يؤكد ان الاختلاف فى ذلك لا يدعو الى الفرقة او الانفصال ، بل على العكس من ذلك هو سبب للتعارف والتآلف ، وهذا ما يقصده الاسلام من تعاليمه

على انه بجانب هذا وذاك يوجد مبدأ آخر فى الرسالة الاسلامية . هو مبدا يتصل بتماسك المجتمع الاسلامي واستقلاله وعدم ذوبانه وانصهاره فى اي مجتمع آخر . هذا المبدأ هو : القومية الاسلامية . وهي ما يمثله مثل هذه الآيات الكريمة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » . « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا » . وتطبيق هذا المبدا يبدو فى عقد الزواج على وجه خاص . فالاسلام يحرم زواج المسلمة من غير المسلم . اذ هذا التحريم سيحفظ المجتمع الاسلامي ويصونه من الذوبان فى مجتمع آخر عن طريق زواج المسلمة بغير المسلم وتناسلها منه . وليس هذا امرا عنصريا ، ولا مبدا للتفريق ، وانما هو امر اراد به الاسلام ان يقي المجتمع الاسلامي من الانحدار ، وان يصون القيم الاسلامية من الانخفاض والانحطاط عن طريق خضوع المسلمة لغير المسلم فى عقد الزواج .

وهنا يصح ان نقول ان المجتمع الاسلامي هو مجتمع انساني بمعنى الكلمة ، وانه مع ذلك يحتفظ بشخصيته واستقلاله . والعالمية الصهيونية التي يتزعمها كثير من المفكرين لاتلقى ترحيبا كبيرا فى راى الاسلام ، اذ أخص اهداف هذه العالمية الصهيونية هو نزع خصائص كل مجتمع والغاؤها حتى تعبث الرأسمالية والعالمية الصهيونية فسادا فى الانسانية دون ان يكون هناك تذمر ، ودون ان يكون هناك صوت

يرتفع ضد هؤلاء او يبين ان اصحاب السيادة في المال واصحاب العالمية الصهيونية اجانب عن الوطن ، اي وطن .

وهنا يكون الايمان برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام – كما ذكرنا – باتباع هذه الخطوط العامة ، باتباع هذه الحدود في معاملة الانسان لنفسه وفي معاملته لغيره ، والمجتمع ما هو الا انسان وغيره ، فرد وفرد . ومن هنا تتضح قيمة الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وبرسالته ويتضح أثرها في تكوين وتوجيه الخلقية الدنية .

ان الايمان بالجزاء الاخروي – كما ذكرنا – باعث الحيوية في هذه الخلقية . هو العامل في استمرار حركتها نحو اهدافها ، لان المعتقد بالله وبرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم – اذا اعتقد الى جانب ذلك في الجزاء الاخروي – يذكر في كل لحظة ان الجزاء واقع لا محالة، وانه من اجل ذلك لا بد أن يعمل في كل لحظة ، وفي كل تصرف ، طبقا لما جاءت به الرسالة . ولذلك شدد الاسلام كثيرا في النكران على من جحد اليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » . « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » ؟ « ان الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » .

حقيقة الاسلام لم يذكر هذه الخلقية الدينية بصريح العبارة ولم يطلبها بهذا التحديد وهذا النص ، وانما طلبها في صورة العمل الصالح ، لان العمل الصالح هو نتيجتها وثمرتها . يقول الله سبحانه وتعالى : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » . « من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون » . « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة واجر عظيم » .

واذا تحققت هذه الخلقية الدينية ، وتحققت آثارها طبقا للايمان برسالة الاسلام – كما صورنا – فان المجتمع الاسلامي عندئذ لا يواجه مشاكل يطلب حلها . لان هذه الخلقية نفسها اذا كانت قوية في الدفع الى العمل الصالح فانها تكون وقاية من وقوع المشاكل . اذ مشاكل اي مجتمع انما تنشأ من الثغرة ، انما تنشأ عن عدم الاستقامة في التصرف وعدم التعاون والتوازن، انما تنشأ عندما تخفت روح التعاطف وتتغلب الانانية فتفسد بين الناس . عندئذ يواجه المجتمع مشاكل: الفرد يواجه مشاكل مع نفسه ومع غيره ، والاسرة تواجه مشاكل في علاقة افرادها بعضهم ببعض ، والازواج والزوجات يواجهون مشاكل في علاقاتهم وهكذا وهلم جرا .

ولذلك لم تكن تعاليم الاسلام التي يجب الايمان بها عبارة عن حل او حلول لمشاكل . وانما كانت اولا وقبل كل شيء وقاية من المشاكل . ومن هنا كان شعار المجتمع الاسلامي هو : الوقاية قبل العلاج .

واذ تحدثنا عن الخلقية الدينية او الضمير الديني في المجتمع الاسلامي ووازنا بينها وبين القانون الوضعي وسلطته التنفيذية في توجيه المجتمع ودفعه الى الاستقامة في السلوك وحسن المعاملة – فانا لا نريد ان نحط من القوة التنفيذية والرقابة العامة في المجتمع . لا نريد ان نحط من قيمة هذا . ذلك لان المجتمع ، مهما استقام افراده ، سيبقى فيه نزاعون الى الشر والافساد والعبث ، بل ان من افراده من يكون متحديا للقيم الاخلاقية الفاضلة ، وللمثل العليا ، وللاستقامة ، ولصالح المجتمع العام ولو قلة . وربما تضعف هذه القوة الخلقية يوما ما فيكثر الفساد والعبث اذا لم يكن هناك سلطة تنفيذية ورقابة عامة على المجتمع . والاسلام من اجل هذا لا ينكر قيام مثل هذه السلطة ولا وجود مثل هذه الرقابة وانما يطلبها وينشدها لان طبيعة الانسان هي طبيعة الانسان : فيها البر والفاجر وفيها المستقيم وغير المستقيم وقد سار المجتمع الاسلامي منذ بداية تكوينه في المدينة على أن تكون هناك رقابة : وان تكون هناك سلطة تنفيذية . وقد كانت درة عمر رمزا لهذه السلطة التنفيذية وهذه الرقابة العامة .

وكل ما اردناه من حديثنا عن الخلقية الدينية وتأكيدنا لقيامها وضرورتها اذن هو ان يحرص المجتمع الاسلامي او اي مجتمع آخر على وجود هذه القوة فيه ، وعلى بقائها ورعايتها لانه من صالح المجتمع – كما ذكرنا – ان يقاد افراده عن طريق الدفع الذاتي بدلا من ان يقاد جميع الافراد عن طريق القانون وسلطته التنفيذية .

الاحتفاظ بشخصية المجتمع وصيانته من الاعتداء عليه:

هذان ـ الوحدة فى الايمان بالله والخلقية الدينية ـ عاملان فى تكوين المجتمع الاسلامي وفى بقائه وتماسكه . وهناك عامل آخر للاحتفاظ بشخصية المجتمع الاسلامي وصيانته من الاعتداء عليه من خارجه. هذا العامل هو الجهاد فى سبيل الله . واعتقد ان كلمة « الجهادية » مشتقة من هذا الجهاد فى سبيل الله . كما اعتقد ان الاستعمار هو الذي بغض معناها للنفوس بسبب تلك الاساءات والحماقات التي كان يرتكبها فى معاملة المجندين والعسكريين ايام الاستعمار .

مبدا الجهاد قصد منه الاسلام امرين : الامر الاول ان يبقى المجتمع الاسلامي على اسلامه وعلى ايدولوجيته ونظامه . الامر الثاني : هو صيانة النظام الاسلامي وصيانة ايدولوجيته من اعتداء العدو الخارجي عليه ، وهذا العدو الخارجي هو ذلك الذي يكفر بهذه الايدولوجية ويمعن فى كفرانه بها ويسخر منها : « يايها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء » . « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزؤا ولعبا » . « وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ». وهذا العدو اذ ينكر على المجتمع الاسلامي ايدولوجيته ونظامه ينكر فى واقع الامر وجوده وقيامه ، ويبغي تفتيته وذوبانه فى مجتمعات اخرى . والجهاد ، وهو الدفاع عن هذه القيم وصيانتها من الاعتداء عليها ، قد يكون ادبيا للرد الي ما يوجه الى هذه القيم من انكار او استهتار « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » . وليس المراد هنا القتال بالسيف وانما الغرض هو مقاومة الاستهتار والاستخفاف بالقيم الاسلامية حتى لاتكون فتنة بين المسلمين بسبب هذا الانكار والاستخفاف والاستهتار ، وحتى لايكون هناك خوف او اضطراب او بلبلة بسبب هذا الهجوم الانكاري على القيم الاسلامية ، قد يكون الجهاد ـ وهو ما عرف به ـ ماديا . وهو اللقاء بالسيف والمدفع وبآلة الحرب ، ولكن لرد الاعتداء المادي بشيء من نوعه . ولو استعرضنا آيات القتال فى القرآن لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى لم يطلب من المجتمع الاسلامي فى وقت من الاوقات ان يبدا القتال والعدوان ، وانما كل الذي طلبه هو رد الاعتداء : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . وكان الاسلام محسنا ، وكان انسانيا ايضا فى طلبه رد الاعتداء بالمثل : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » .

ففي الوقت الذي طلب فيه الاسلام رد الاعتداء بالمثل علل طلبه بأن التزام ذلك هو من ضروب التقوى وذكر أن الله مع المتقين ، أي الملتزمين حدود الله .

القاهرة : الدكتور محمد البهي



أبو الحسن الشاذلي

للدكتور: جمال الشيال

- 2 -

لم يقصر ابو الحسن الشاذلي نشاطه العلمي والروحي على مدينة الاسكندرية وحدها ، بل كان دائم الرحلة الى المدن المصرية الكبرى ، فتردد اول ما تردد على مدينة دمنهور اقرب المدن الى الاسكندرية، وقد زوج ابنته رقية الى رجل فاضل من اهلها هو الشيخ علي الدمنهوري ، ثم زار دمياط والمنصورة ، وزار معظم مدن الوجه القبلي الكبرى في سفراته العديدة للحج ، وتردد كثيرا على العاصمة القاهرة .

وفي كل هذه المدن كان الشيخ يعقد حلقاته المعتادة للدرس والوعظ لتفقيه الناس في امور دينهم ولنشر مبادئه ودعوته . وكانت اهم هذه الحلقات هي الحلقات التي عقدها بمدينة القاهرة ، وتذكر المراجع انه كان يلقي دروسه بها في مسجد المقياس بجزيرة الروضة أو في المدرسة الكاملية وهي المدرسة التي بناها السلطان الملك الكامل محمد الايوبي لتدريس علوم الحديث خاصة .

وكانت القاهرة وقتذاك عامرة بنخبة ممتازة من العلماء الكبار من أمثال الشيخ عز الدين بن عبد السلام العالم القوي الجريء ، وتقي الدين بن دقيق العيد احد علماء مصر وقضاتها ، وعبد العظيم المنذري المحدث الكبير وشيخ المدرسة الكاملية ، ومحي الدين بن سراقة — وهو علم آخر من اعلام المدرسة الكاملية ؛ والشيخ الورع التقي مكين الدين الاسمر شيخ القراء بالاسكندرية ، وابي عمرو عثمان بن الحاجب من ابرز علماء العصر بالنحو وعلوم العربية . وابن الصلاح مفتي الشام ومحدثها على ذلك الوقت .

وكان هؤلاء وكثيرون غيرهم يجلسون الى الشيخ أبي الحسن يستمعون الى دروسه وشروحه ومواعظه ، وكثيرا ما كانت تدور بينه وبينهم المناقشات العلمية والمساجلات الصوفية الطريفة المفيدة ، وقد اعترفوا له جميعا بالعمل والفضل والتقوى والقرب من الله سبحانه وتعالى ، قال الشيخ مكين الدين الاسمر :

« مكثت اربعين سنة يشكل علي الامر في طريق القوم ، فلا اجد من يتكلم عليه ويزيل عني اشكاله حتى ورد الشيخ ابو الحسن الشاذلي ، فازال عني كل شيء اشكل علي ، ورايت الناس يدعون الى باب الله ، وابا الحسن يدخلهم على الله تعالى » .

وقال عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد :

« ما رايت اعرف بالله من الشيخ الشاذلي » .

وقال الشيخ بدر الدين بن جماعة :

« ان بركة الشيخ حلت بالديار المصرية منذ اقام فيها » .

هذه هي حلقات الدروس التي كان يعقدها ابو الحسن الشاذلي في مدن مصر الكبرى وخاصة الاسكندرية والقاهرة . ونستطيع ان نتعرف من اخباره المتناثرة في الكتب التي ترجمت له على الكتب التي كان يقرا او يدرسها او يشرحها في هذه الحلقات ، وهي من امهات الكتب التي وضعها كبار المتصوفة الذين عاشوا قبله . ومنها على سبيل المثال :

كتاب ختم الاولياء للحكيم محمد بن عبد الله الترمزي من رجال القرن الثالث .

وكتاب قوت القلوب لابى طالب المكي من رجال القرن الرابع .

والرسالة القشيرية لابى القاسم القشيري .

واحياء علوم الدين لحجة الاسلام ابى حامد الغزالي -- وهما من رجال القرن الخامس —

وكتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض من رجال القرن السادس .

وقد كف بصر الشيخ أبي الحسن بعيد وصوله الى مصر بقليل ، ونستطيع ان نقول انه اصيب في سنة 646 على وجه التحديد ، اي بعد وصوله الى مصر باربع سنوات ، فقد روى صاحب كتاب المفاخر العلية انه لما كف بصر الشيخ دخل عليه تلميذه ابو العباس المرسي فقال له الشيخ :

« يا ابا العباس : انعكس بصري في بصيرتي ، فصرت كلي مبصرا ، بالله الذي لا اله الا هو ، ما اترك في زماني افضل من اصحابي ، وانت والله افضلهم » .

ثم سأله :

« كم سنك يا ابا العباس ؟

قال :

« يوشك ان يكون ثلاثين »

قال الشيخ :

« بقيت عليك عشرة اعوام وترث الصديقية (القطبانية) من بعدي »

فاذا عرفنا ان ابا العباس ولد سنة 616 ، فاننا نستطيع ان نؤرخ لهذا الحديث بسنة 646 هـ فقد قال ابو العباس ان سنه وقتذاك كانت 30 سنة ، ونحن نعرف أيضا ان الشيخ ابا الحسن توفي سنة 656 وقد ورث القطبانية بعده ابو العباس وقد بشره الشيخ ابو الحسن في هذا الحديث أنه يرثها بعد عشر سنوات . فاذا طرحنا عشر من سنة 656 وصلنا الى 646 .

والراجح ان الشيخ اصابه مرض مما يصيب العيون افقده بصره ، ويقول الاستاذ السندوبي أنه اصيب اثناء ايامه بالماء فغشي على بصره ، ولكن القوم يعللون هذه الاصابة تعليلا آخر . روى ابن الصباغ عن الشيخ جمال الدين القرافي احد اصحاب الشيخ ان الشيخ ابا الحسن قال له مرة في شرح السبب الذي من اجله فقد بصره : لقيت بعض الاولياء في احدى سياحاتي ، فعرضت عليه كلاما في التوحيد ، فصاح الرجل وصلت ، فقيل لي :

« يا علي لم فعلت ذلك ؟ لنعاقبن بذهاب بصرك »

وفي سنة 647 المت بمصر ملمة كبرى ، فقد وصلت اليها حملة من الحملات الصليبية الكبرى هي حملة الملك لويس التاسع ، واستطاعت هذه الحملة ان تستولي على دمياط ، واتجه الملك الصالح نجم الدين أيوب جنوبا الى مدينة المنصورة وعسكر بجيوشه شمالها ، غير انه لم يلبث ان اشتد به المرض ومات ، فاخفت زوجه شجر الدر موته ، وارسلت فاستدعت ابنه تورانشاه من حصن كيفا .

وكان المصريون جميعا في ذلك الوقت في هم عظيم يترقبون نتائج الحرب بنفوس ملأها الهلع والخوف ، وكانت الانظار كلها تتجه الى مدينة المنصورة مقر الدفاع .

ووجد علماء البلد ان من واجبهم ان لا يتخلفوا عن موضع الخطر ، فسارعوا جميعا الى مدينة المنصورة يثبتون من جأش الشعب ، ويبعثون الحمية في نفوس الجند المحاربين ، ويثيرون فيهم روح الجهاد للذود عن الوطن وحريته ، وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ ابو الحسن الشاذلي .

وتقول الرواية ان الشيخ كان يجتمع أثناء مقامه في المنصورة بغيره من علماء البلد في خيمة يتدارسون ويتناقشون في امور الدين وعلومه ، وكانت الصدارة في هذه المجالس للشيخ أبي الحسن .

روى ابن عطاء الله السكندري في كتابه لطائف المنن عن الشيخ مكين الدين الاسمر انه قال :

« حضرت بالمنصورة في خيمة فيها مفتي الانام عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري المدرس ، والشيخ محيي الدين بن سراقة ، والشيخ مجد الدين الاخميمي والشيخ ابو الحسن الشاذلي ، ورسالة القشيري تقرا عليهم ، وهم يتكلمون ، والشيخ ابو الحسن صامت ، الى ان فرغ كلامهم ، فقالوا : يا سيدي نريد ان نسمع منك مقالا فقال — تواضعا : — أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم ، فقالوا : لابد ان نسمع منك ، قال : فسكت الشيخ ساعة ، ثم تكلم بالاسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال : اسمعوا هذا الكلام القريب العهد من الله » .

وكان الشيخ يقضي وقته كله في المنصورة — مستيقظا ونائما — ولا تشغل باله وفكره الا هذه الملمة التي توشك أن تنزل بمصر والاسلام ، الا هذه الحرب الطاحنة الدائرة رحاها بين عدو وافد من الخارج وجيش مجاهد باسل يدافع عن الوطن والاسلام ، فكان الشيخ اذا نام تكاثرت عليه الاحلام يرى فيها ما يشغله في اليقظة ، ويلتمس في عالم الروح مخرجا من هذه الازمة ، الى ان وافته البشرى اخيرا ، وأتاه الرسول عليه السلام يبشره بالنصر .

روى صاحب درة الاسرار على لسان الشيخ ابي الحسن نفسه انه قال :

« كنت بالمنصورة فلما كانت ليلة الثامن من ذي الحجة بت مشغولا بامر المسلمين ، وبامر الثغر خصوصا ـ يعني دمياط ـ وقد كنت ادعو الله واتضرع اليه في امر السلطان والمسلمين ، فلما كان آخر الليل رايت فسطاطا واسع الارجاء عاليا في السماء ، يعلوه نور ، وتزدحم عليه خلق من أهل السماء ، ـ وأهل الارض عنه مشغولون ـ فقلت : « لمن هذا الفسطاط ؟ » فقالوا: « لرسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فبادرت اليه بالفرح ولقيت على بابه عصابة من العلماء والصالحين نحوا من السبعين ، اعرف منهم الفقيه عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه مجد الدين مدرس قوص زه والفقيه الكمال بن القاضي صدر الدين ، والفقيه المحدث محي الدين بن سراقة والفقيه عبد الحكيم بن ابي الحوافر ، ومعهم رجلان لم اعرف اجمل منهما غير اني وقع لي ظن في حالة الرؤيا انهما الفقيه زكي الدين عبد العظيم المحدث والشيخ مجد الدين الاخميمي ، واردت ان اتقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالزمت نفسي التواضع والادب مع الفقيه ابن عبد السلام ، وقلت لا يصلح لك التقدم قبل عالم الامة في هذا الزمان ، فلما تقدم وتقدم الجميع ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشير اليهم يمينا وشمالا : ان اجلسوا ، تقدمت وانا ابكي بالهم وبالفرح ، اما الفرح فمن اجل قربي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسب ، اما الهم فمن اجل المسلمين والثغر ، وهم طلبي اليه صلى الله عليه وسلم ، فمد يده حتى قبض على يدي وقال :

« لا تهتم كل هذا الهم من اجل الثغر ، وعليك بالنصيحة لراس الامر ـ يقصد السلطان ـ فان ولى عليهم ظالم فما عسى ؟ » ـ وجمع اصابع يده الخمس في يده اليسرى ـ كانه يقلل المدة ، وان ولى عليهم تقي « فالله ولي المتقين » ، وبسط يده اليمنى واليسرى ، وأما المسلمون فحسبك الله ورسوله وهؤلاء المؤمنون ، وقال : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » وأما السلطان فيد الله مبسوطة عليه برحمته ما والى اهل ولايته ، ونصح المؤمنين من عباده فانصحه واكتب اليه ، وقل في الظالم عدو الله قولا بليغا ، « واصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يؤمنون » .

فقلت : « نصرنا ورب الكعبة . وانتبهت » .

هذه الرؤيا تدل على ان الشيخ أبا الحسن كان يقض مضجعه هذا الخطر الجاثم على ثغر دمياط والزاحف نحو الجنوب ، يدعو الله مخلصا في يقظته وفي منامه أن يكشف الغمة ويغيث الامة ولم تنقض ايام قليلة حتى تحققت بشرى الرسول عليه السلام ، وانتصر المصريون ، وهزم الفرنجة واسر ملكهم لويس التاسع ، ثم جلوا جميعا عن مصر بعد قليل .

كان الشيخ ابو الحسن الشاذلي اشد الناس فرحا بهزيمة الصليبيين ورحيلهم عن مصر ، وقد عاد بعد هذا الى الاسكندرية ، وتابع سيرته الاولى في الحياة يدرس ويعظ ويتعهد ارواح تابعيه ومريديه بالتهذيب .

واصبحت لابي الحسن مكانة مرموقة في المجتمع المصري يقصده الكبار ورجال الدولة والعلماء والعامة في حاجاتهم ، يقصده الكبار والعلماء يستزيدون من علمه وتعاليمه ، ويقصده الصغار والعامة يلتمسون منه البركة ويستشفعون به لدى رجال الدولة لقضاء مطالبهم .

وكان الشيخ لايرد انسانا يقصده بل يسعى لاجابة كل الى مطلبه ، روى ابن عطاء الله ان فقيها من طلاب العلم قصد الشيخ مرة يستشفع به لدى القاضي تاج الدين بن نبت الاعز كي يزيد في راتبه عشرة دراهم ، فذهب الشيخ الى تاج الدين واكبر تاج الدين مجيئه اليه فاسرع يرحب به وساله فيم مجيئه، فقال الشيخ :

« من اجل فلان الطالب كي تزيده في مرتبه عشرة دراهم »

فحاول القاضي ان يعتذر ، وشرح للشيخ كيف ان لهذا الطالب مرتبات أخرى من جهات متعددة ، فقال له :

« يا سيدي هذا له في المكان الفلاني كذا ، وفي المكان الآخر كذا ، وفي الموضع الفلاني كذا وكذا » .

ولكن الشيخ لم يقتنع بهذا الجواب وقال للقاضي:

« يا تاج : لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده اياها ، فان الله تعالى لم يقنع بالجنة للمؤمن جزاءا حتى زاده النظر الى وجهه الكريم » .

وكان الشيخ يحمل نفسه المشـاق ـ على كبر سنه ـ في سبيل قضاء حاجات اتباعه ومريديه ورعاية شؤونهم ، روى ابن عطـاء الله ايضـا ان احـد اتبـاع الشيخ في الاسكندرية اصابه رمد في عينه ، فاستدعى لـه الشيخ طبيبا يهوديا من اطباء الثغـر لمعالجتـه ، ولكن الطبيب اعتذر عن مباشرة العلاج وقال للشيخ :

« لقد جاء مرسـوم من القاهرة انه لايداوي احـد من الاطباء الا باذن من مشارف الطب بالقاهرة » .

فلما خرج الطبيب قال الشيخ لخدامه :

« هيئـوا اسبـاب السفـر »

وسافر في الحال الى القاهرة ، وحصل على الاذن الطبيب ، وعاد مسرعـا الى الاسكندريـة ، ولم يبت خارجها الا ليلة واحـدة ، واستدعى الطبيب ، واطلعه على الاذن ، فاكثر الطبيب اليهودي التعجب من هـذا الخلق الكريـم ، ثم اخذ في شأنه ومباشرته للعلاج .

وروى ابن عطاء الله انه سمع الشيخ تقي الدين بن دقيق العيـد يقـول :

« جهل ولاة الامـور بقـدر الشيـخ ابي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ؛ لكثرة تردده في الشفاعات » .

وعلق ابن عطاء الله على هذا الراي بقولـه :

« ويجب أن تعلم ان هذا الامر لا يقوى عليـه الا عبد متخلق باخلاق الله ؛ بذل نفسـه واذلها في مرضـاة الله ، وعلم وسيع رحمة الله فعامل عباد الله ممتثـلا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الراحمـون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم مـن في السمـاء » .

ومع ان الشيخ ابا الحسن الشاذلي كـان واسع العلم والمعرفة ، يستمع اليه كبار علماء عصره فيبهرهم حديثه ، ويقول كبيرهم الشيخ عـز الديـن بن عبـد السـلام :

« اسمعوا هذا الكلام القريب العهـد مـن الله » .

مع هذا فانه لم يعرف ان ابا الحسن الف كتبـا ، وكل ما وصلنا من آثاره العلمية الصوفية هو ما نقلـه اصحابه عنه من وصايا واقوال مأثورة وادعية واحزاب واوراد ؛ وكان الشيخ يرى ان كتبه هي تلاميذه وانـه خير له ان يخرج على يديه تلميذ يفهم علومه وروحانيته من ان يؤلف كتابا قد يقراه البعض او لا يقراونه ، وقد يفهمه البعض ويعجز عن فهمه البعض الآخـر .

روى ابن عطاء الله ان احد الاتبـاع سأل الشيخ مـرة :

« لم يا سيـدي لاتضـع الكتب في الدلالـة على علـوم القـوم ؟ »

فاجاب الشيخ : « كتبي اصحابـي » .

غير ان الاقوال والاحـزاب التي وصلتني عـن الشيخ تدل على انه كان قد رق قلبه ورق حتى لم يعد يشغله غير حب الله سبحانه وتعالى ، وان نفسه صفت وصفت حتى لم تعد تلجأ الا الى الله سبحانـه ؛ وأن روحه علت وعلت حتى اصبحت اقرب ما تكـون الـى الله سبحـانـه .

وهذه الاحزاب تدل كذلك على ان ابا الحسن كان اديبا ممتازا ذا اسلوب جميل رائع ، فاني لا اكاد اعرف اني قرات الادب المأثور اجمـل مما قـال الشيخ أبـو الحسن في حزب البـر ، استمع معي اليه وهو يقول :

« اللهم انا نسألك لسـانا رطبا بذكرك .
وقلبا منعمـا بشكـرك .
وبدنا هينـا لينـا بطاعتك .

واعطنا مع ذلك مالا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ كمـا اخبـر بـه رسولك صلى الله عليه وسلم ـ حسب ما علمته بعلمك .

واغننـا بـلا سبب .
واجعلنا سبب سبب الغنى لاوليائك .
وبرزخـا بينهم وبين اعدائك .
انك على كل شيء قديـر .
اللهم انـا نسألك ايمانا دائمـا .
ونسألك قلبا خاشعا .
ونسـألـك علمـا نافعـا .
ونسألك يقينا صادقـا .
ونسألك دينـا قيمـا .
ونسألك العافية من كل بليـة .
ونسألك تمـام العافيـة .
ونسألك دوام العافيـة .
ونسألك الشكر على العافيـة .
ونسألك الغنـى عن الناس .
واستمع الى هذه المناجاة الالهية في قولـه :

« اللهم وارأف بنـا رأفـة الحبيب بحبيبـه عند الشدائـد ونزولها .

وارحنـا من همـوم الدنيـا وغمومهـا بالروح والريحان الى الجنة ونعيمها ......

اللهم باعد بيننا وبين العناد والاصرار والشبـه بابليس راس الغـواة .

واجعل سيئاتنا سيئات من احببت .
ولا تجعل حسناتنا حسنات من ابغضت .
فالاحسان لا ينفع مـع البغـض منك .
والاساءة لا تضر مع الحب منك .
اللهـم رضـنـا بقضائك .

وصبرنـا على طاعتـك وعـن معصيتك وعـن الشهوات الموجبات للنقص او البعد عنك .

وهب لنا حقيقة الايمان بك حتى لانخاف غيرك ولا نرجو غيرك ولا نحب غيرك ولا نعبد شيئا سواك .

واوزعنـا شكـر نعمائـك .
وغطنا برداء عافيتـك .
وانصرنا باليقين والتوكل عليك .
واسفر وجوهنا بنور صفاتك .

واضحكنا وبشرنا يوم القيامة بين اوليائك .

واجعل يدك مبسوطة علينا وعلى اهلينا واولادنا ومن معنـا برحمتك .

ولا تكلنا الى انفسنا طرفة عين ولا اقل من ذلك ـ يا نعـم المجيـب » .

وكان الشيخ اثناء مقامه في مصر يخرج للحج كل سنة ، ذكر ابن بطوطة ان الشيخ ياقوت العرشي انبـاه رواية عن شيخه ابى العباس المرسي ان الشيـخ ابـا الحسن الشاذلي كان يحج فى كل سنة ، ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعـده الى انقضاء الحج ، ثم يزور القبر الشريف ، ويجعـل طريقه على صعيد مصر ويعود على الدرب الكبير الـى الاسكـنـدريـة .

وفى سنة 656 هـ بلـغ الكتـاب اجلـه ، واحس الشيخ بدنو موته ، يستطرد ابن بطوطة حديثه السـابق فيقـــول :

فلما كان فى بعض السنين وهي آخر سنة خرج فيها ، قال لخديمه : استصحب فاسا وقفة وحنوطـا وما يجهز بـه الميت ، فقال له : ولماذا ياسيدي ؟ فقـال لـه : فى حميترا سوف تـرى » .

وفى شوال من تلك السـنة وصـل الشيـخ ابـو الحسن وصحبه حميترا ، وهي موضع فى الصحـراء المؤدية الى عيذاب على البحر الاحمر ، أصابه مـرض شديد فجمع أصحابه وأوصاهم باشياء كثيرة وخاصة بحزب البحر ، وقال لهم حفظوه اولادكم ، فـان فيـه اسم الله الاعظم ، وخلا بتلميذه الحبيب ابى العبـاس المرسي وأوصاه باشياء ، يقول صاحب المفاخر :

« واختصه بما خصه الله به من البركات ، وقال لاصحابه : اذا انا مت فعليكم بابى العباس المرسي فانه الخليفة من بعدي ، وسيكون له مقام عظيم بينكم وهـو بـاب من ابـواب الله تعالـى » .

وبات الشيخ ولسانه لا يفتر عن ذكر الله ، فلما كان الفجر صعدت روحه الى بارئها ، وصلى عليه القوم يؤمهم الشيخ ابو العباس ، ودفـن ابـو الحسن حيث مـات فى حميتـرا .

قال ابن بطوطة :

وقد زرت قبره وعليه قبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن بن علي رضي الله عنهما » .

واختلف القوم بعد وفاته هل يعودون أم يستأنفون الرحلة للحج ، فقـال ابـو العبـاس :

« الشيخ أمرني بالحج ووعدني بكرامات » .

وبعـد ، فهذا هو ولـي الله العارف بـه قطب الاقطاب الشيخ ابو الحسن الشاذلي رضى الله عنه ، فارق الدنيا بعد أن ملاها علما وروحانيـة ، وبعـد أن خلف بعده عددا من تلاميذه الذين ساروا سيرته بعـد ان قبسوا من علمه وفضله وخلقه وروحه ، وكلهم بعـد هذا من روح الله مقتبس .

الدكتور جمال الدين الشيال المستشار الثقافي

بسفارة ج . ع . م . ـ بالربـاط



انه لمن تعقيدات الحضارة الحديثة ان صار للمرأة قضية يكثر حولها الجدل والنقاش والاخذ والرد بين الحين والآخر فبعض الذين ينتحلون الغيرة على حقوق المرأة في هـــذا العصر يثيرون الضجيج حول الظلم الواقع عليها والاخـــذ بخناقها حتى ليخيل اليك ان هناك معسكرات اعدت للاعتقـال تساق اليها المرأة في القيود والسلاسل من الحديـد حيث تسجن هناك وتعذب وتضرب ، وتعامل معاملة العبيد فـــي القرون الخالية !! ثم تلتفت حولك فلا تجد اثرا واحدا ملموسا من مظاهر هذا الظلم ، انما هي بعض الفقاقيع الطافية علـــى سطح هذا المجتمع تذهب ها هنا وها هنا في مظهر خـــادع وبريق خلاب كاذب ، وليس لها فـي الواقع من حقيقـــة الوجود الا قلبها الاجوف وباطنها الفارغ من كل جـــد ولا مبرر لها الا ان تقلد الغربيين تقليدا اعمى ..

ولقد اشرنا في موضوعات اخرى الى الطلاق باعتبـــاره قضية مزعومة من قضايا المرأة التي تثار دائما ، واشرنا الـى تعدد الزوجات ، والى الدرجة التي تجعل القوامة للرجـال دون النســاء ثم اسموها قضيـة الحقـوق السياسيـة لهـا ، وانا لنؤمن ايمانا عميقا انه لا يثير الضجيج حول هـــذه المسائل الا تفاهة في رؤوس بعـض الناس ممن اعجزهـم ان يكونوا شيئا في المجتمـع له قيمته فراحوا يلفتـون الانظـار الى اشخاصهم بذلك الضجيج المفتعل الذي لا يكلفهم شيئا مـــن جهود اهل العزيمة والكفاح في سبيل المبادىء الانسانيـــة الفاضلـة .

ونحن في رسالتنا هذه نعالج الموضوع بروح « المنطق الدقيق » الذي يتسامى في علاجه عن الخلافات دائما ويلتـــزم تقرير الحقائق المجردة في كــل امــوره دون نظر الــى اي اعتبار من الاعتبارات الاخرى .

وحين نقول «المنطق الدقيق» فقد عنينا بذلك الاسلام الصافي النقي الذي هو في حقيقته فطرة الله التي فطر النـاس عليهــا .

خطـر التقليـــد :

واول ما يجب ان نلفت الانظار اليه (وبروح هذا المنطـق طبعا) هو ان بعض المنادين في مجتمعنا بحقوق المرأة متأثرون ــ الى حد بعيد ــ بتيار التقليد لكل ما هو غربي دون التبصر لما في هذا التقليد من خير او شر .. ونحـن لا نشك في ان لدى الغرب حسنات ولكن لا نزاع كذلـك في ان لديه سيئات فاذا ما قام التقليد عندنا على تخيـر المناسب من الحسنات كان تقليدا مامون العواقب ، والحكمة ضالة المومن انى وجدهـــا فهو احق الناس بهـا .

اما اذا قام التقليـد على اساس الانسلاخ من مواريثنـا الصالحة وتقاليدنا القلبية باعتبارها فاسدة لا تصلح لهذا العصر ، وان كل ما لدى الغربيين صالح بلا نزاع ، فهو اعدام لكـــل مقوماتنا المعنوية دون تحقق لما فيها من ذاتية ثابتة تستعصي بها على ما يحاك لها وتجعلها صالحة لكل زمان ومكان ولذلك ينبغي علينا ان نحذر مسايرة هذا التيار الخطـر وان نلتـزم التأني في اختيار ما هو صالح عندهم ..

★ ● ★

بيـن الاباحيـة والتصـون :

ولابد لنا هنا من ملاحظـة ظاهرة اخـرى ، هـي ان قضية المرأة ــ فيما اعتراها من شـد وجذب ونقـاش وجدل ــ دارت بين معسكرين : معسكر يرغب في التحلل والاباحيـة ، ومعسكر يرغب في توفير كل ما في الاستطاعة من اسباب العفة والكرامة للمرأة .. اما المعسكر الاول فانه يرى في المعسكـر الآخر انه جماعة من الرجعيين المعارضين «لنهضة» المـــرأة . واما المعسكر الثاني فتزعجه دعوة التحلل ويزعجه ان يـــرى المرأة مبتذلة في الشوارع والاسواق ، قد هجـرت بيتهـا ، ونبذت رسالتها ، وفقدت حياءها وهو زينة الانوثـة فيهـا ، فيحشد قوته ويتحصن بكل ما لديه من عزائم ليحفظ عليهـــا كرامتها وليبقيها في بيتهـا .. من ذلك نرى ان المعسكريـن اخذا يتبادلان الهجوم الصاعق والدفاع الحصين : هذا يشتط في

طلبه بالتحلل و الاباحية ، وذاك يريد الحفاظ على حرمات الدين والفضيلة شدة في الدفاع عن معاقله .. وفي ضجيج هذا المعترك الفكري وظلمته القاتمة التبس على كثير من الناس شأن المرأة واختلط عليهم الامر فاخذوا يتساءلون :

هل لها ان تخرج من البيت او ليس لها ذلك ؟

هل هي مخلوقة لها من خصائص العفة ما يجعلها اهلا للثقة ؟

هل لها ان تشتغل بالاعمال الحرة والوظائف الحكومية او السياسية وما شابهها ؟

★ ● ★

ومن المؤسف ان الدعاة الى حقوق المرأة يهملون الدعوة الى الفضيلة ، اذ لم يرتفع لهم او لهن صوت واحد في مناسبة من المناسبات باستنكار ما يسء للمرأة من اسباب التحلل والغواية والاستهتار .. ومكثوا على «الكبريهات» وكأنهم يراقبون تطورها في غبطة وبهجة وارتياح ، لانها شارة من الشارات التي يجب استكمالها في مجتمعنا ، لتضاهي بها المجتمع الغربي .. وقد تعدوا هذا السكوت الى الترحيب – تلميحا وتصريحا – بما تبدي المرأة من ميل الى التحلل والتكشف ، واظهار ما حقه ان يكون مستورا من بدنها وزينتها .. فحفلات الرقص ، والخمر ، واللهو ، والقمار التي تغشاها المرأة عارية الصدر ، والظهر ، والذراعين ، والساقين ، ولا يستر فيها سائر اعضاء البدن الى الشفيف من اللباس ، الذي لا يكاد يحجب شيئا .. وفيها تقوم المرأة – وقد لعبت الخمر برأسها – الى رجل اجنبي عنها فتراقصه وتخاصره ، في غزل ظاهر ، وفاحشة لاشك فيها .. هذه الحفلات ، لا يسكتون عنها فحسب ، بل يحضرونها ويشجعون على غشيانها ، لان المرأة الاوروبية تفعل ذلك ، ونحن نريد ان نكون مثل اوروبا في كل شيء ..

ولقد اصبحت البلاد الاسلامية مباءة لتلك الحفلات الداعرة – رسمية وغير رسمية – وكان هؤلاء الدعاة الى « مجد المرأة » يشهدون ذلك «التقدم» في رضا وسرور ، وتظهر صورهم في تلك المباذل غير منكرين منها شيئا ، في حين انك تراهم او تسمعهم يملأون الجو صياحا كلما فتح احد العلماء فمه بكلمة يقرر فيها ما قرر الله للمرأة والمجتمع من مباذل الخمر والقمار والعري ، او كأن المجتمع قد استقام حاله على تلك المباذل الفاسقة ، ولا خطر يتهدده الا ان ينادى فيه بكلمة الله ..

نقول هذا للفتيان والفتيات ولسائر الناس ، حتى لا يغتروا بالبريق الخادع الذي يموه به هؤلاء نياتهم الفاسدة، وتصديهم المسموم لدعوة الاصلاح .. ولا ننس ان شابا ارسل لكاتب معروف يشكو اليه خروج المرأة متبذلة متكشفة ، تضيق من ملابسها لتحدد اعضاء بدنها وتختار منها الرقيق لتظهر للناس ما لا يحل ان يظهر .. وبدلا من ان يشكر الكاتب المعروف الشاب البريء براءته وغيرته ، راح يتهكم به وبغفلته ، ويذكر له ان الاصلاح لا يأتي بنهي المراة عن ذلك بل بنشر الفضيله والمثل العليا .. ولم يذكر الكاتب بعد التقريع والتهكم كلمة واحدة تشعر بالعطف على وجهة نظر الشاب ...

وهذا الذي نقوله لا يجافي سبيل المنطق الذي التزمناه في علاج هذه القضية ، لاننا انما نقرر شيئا واقعا ، يمتاز به بعض الدعاة الى حقوق المرأة .

اما ما يتبادر الى بعض الاذهان من ان الكتاب المعارضين يقصدون ان المرأة في ذاتها مخلوق شيطاني ، يتربص بالشهوة كل فرصة سانحة ، فلا يصلح لها الا سوء الظن بها، وعدم تمكينها من رؤية النور خارج البيت ، ففهم خاطيء ، ليس في كلامهم ما يدل عليه تصريحا ولا تلميحا ، اذ الحقيقة انهم يسلمون بحسن استعداد المرأة عقليا وخلقيا ، ولا يثيرهم الا دعوة التحلل والاباحة ، مع ذيوع وسائل الفتنة والاغراء ، فاذا قام اولياء الامور لدينا بتطهير البيئة من وسائل الفتن ، وكانت العفة اساسا من اسس الدعوة الى حقوق المرأة ، فان الكثير من مسائل هذه القضية ينتهي على احسن وجه .

ونعني بالعفة امرين اصليين :

الاول : زهد المرأة في غشيان مجالس الرجال والتهافت على لقائهم ، الا لضرورة او لحاجة معقولة .

الثاني : عنايتها بملبسها بحيث لا يكون ضيقا ، ولا مخرقا ولا شفيفا ، وقد نهى القرآن الكريم عن ان يتبرج النساء تبرج الجاهلية الاولى ، وامر ان يدنين عليهن من جلابيبهن ، وان يضربن بخمرهن على جيوبهن ليسترن بذلك اجسامهن ، فان ما عدا الوجه والكفين عورة ..

وكذلك يجب ان تحجب اصباغها وزينتها عن الشارع ومحافل الرجال ، فلا يراها الا زوجها ومن رخص الله لهم في ذلك على ما اوردناه سابقا .

ولسنا نجد في التسليم بذلك غضاضة ، ولا يستطيع اشد المتحمسين لحقوق المرأة ان يدلنا على ان العفة بهذا

المعنى الذي اوردناه مناهضة للرقي ، ولا ان الفضيلة قيد ظالم لها يجب ان تتحرر منه .

ويجب ان يضاف الى هذا المبدأ ، مبدأ اصيل آخر ، تقرره الفطرة وتوجيه طبائع الاشياء ذلك ان البيت هو الميدان الطبيعي لرسالة المرأة .

وعلى ضوء هذين المبدأين نستطيع ان نتبين حكم الاسلام في اكثر ما يدور حول حقوق المرأة من قضايا ..

★ ● ★

اختلاط الرجـال بالنساء

فاختلاط الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال احـــد الموضوعات التي يدور حولها الجدل ، وتأخـذ من اهتمـــام المتناظرين اكثر مما تستحق .. فاذا تحققت المرأة بمعانـي العفة ومظاهرها التي ذكرناهـا .. واذا علمنا ــ الى جانب ذلك ــ ان الاختلاط ليس له من معنى الا الرؤية ، والمقابلة والمحادثة في ضروريات الامور ، الفينا قضية الاختـــلاط مفروغا من امرهـا .

الاختلاط في البيت :

ا ــ فالمرأة لا تأذن في بيت زوجهـا وهو شاهـد الا باذنه ، ولا تستقبل فيه احدا من الرجال الاجانب الا من تدعو الحاجة لاستقبالهم ، على ان يكون ذلـك بعلمه او باذنه ، او يكون ممن تجري عادة البيئة بدخوله كمـا يحصل في بيوت اهل الريف .

ب ــ اقارب الزوج والزوجة يجب ان لا يكثروا مـــن الدخول عليها ، ويطيلوا الجلوس معها بدون موجب ، وقـد نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك بقولــــه : «اياكم ودخول الرجال على النساء» قالوا يارسول الله افرايت الحمو ؟ قال : « الحمو هـو الموت » ــ والحمو هـو قريب الزوج او الزوجة ــ . يريد عليه السلام ان دخول الحمو على المرأة بصفة مستمرة يجلب في اعقابه اخطارا كثيرة ، فـان من اقارب الزوج او من اقارب الزوجة من يتذرع بالقرابة ، فيطرق البيت بالليل وبالنهار ، ولضرورة ولغيـر ضرورة .. وقد يترخص الزوج والعشيرة في قبول تلك الحالة والاغضاء عنها بحكم القرابة .. ولكن قد يفضـي ذلك في النهاية الـى عواقب وخيمة ، منها تقطيع اواصر القربى .. او الطلاق .. وقد يكون منها اراقة الدماء والموت .

جـ ــ وخلوة المرأة بالرجل الاجنبي في البيت او في اي مكان آخر محرمة ، الا اذا كان معها زوجها او ذو محــرم لها . والاجنبي هو كل من عدا زوجها ، وليـس بمحرم لها ..

والمحرم هو كل من لا يحل له زواجها على صفة التأبيد كأبيها واخيها وولدهـا .

وليس ذلك النهي مؤسسا على سوء الظن بخلق المرأة ، انما هو مؤسـس على ما في طبيعة البشر ــ رجـالا ونساء ــ من احتمال الاستجابة اذا ما طالت فترات الخلوة ، فان تلـك الفترات ــ مع فراغ البال ورخاء الحال ــ مما يجعل النفـس تستشرف لتذوق الممنوع .. وفي تصويـر تلك الحالة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اياكم والخلوة بالنسـاء والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة الا ودخل الشيطـان بينهما » .. ومن هنا حرم الاسلام الخلوة بين الرجل والمرأة الاجنبية الا ان يكون معها زوجها ، او ذو محرم لها ، فعـن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينه وبينها محرم » .

وفي تلك الاحاديث ما يفيد ان مقابلة الرجل للمـرأة ومقابلة المرأة للرجل ليست محرمة لذاتها ، بل لما يترتب عليها من عواقب سيئة ، او يستتبعها من سوء الظن والريبة وشيـوع الهمس وقالة السوء .. فاذا لم تكـن هناك خلوة ، او كانت الخلوة ولكن مع ذي محرم فليس هناك من بأس او حرمة..



الخـروج مـن البيت :

ولقد قلنا ان البيت هو المكان الطبيعي لرسالة المرأة ، فيجب ان يكون الخروج منه مقيدا او مشروطا بعدم افساد تلك الرسالة ، او الاخلال بحق من حقوقهـا .. كمـا يجب ان يكون له من الضرورات او الاسباب المشروعة ما يجعله سائغـا مقبولا ..

فلها ان تخرج لزيـارة والديها واخوتها واخواتها ، ومن تؤمن زيارتها له من اقاربها وصديقاتها .

ولها ان تخرج للصـلاة ــ واداؤها فـي البيت افضل ــ وضرورات العلاج ، وقاعات العلم والمحاضرات ، للتزود بمـا يثقف عقلها ويهذب نفسها ، ويفقهها في دينها ، ويعرفهـا واجبها في الحياة .. على الا تكون في تلك القاعات عرضـة لمجون العابثين وفساد مرضى القلوب ..

ولها ان تخرج الى الحقل او السوق ، او الى اي مكان لا اثم فيه لشراء ما يحتاج اليه بيتها ، وقضاء مصالحها .

وقد كان نساء الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده يفعلن كل ذلك ولا ضير عليهن .

المسارح ودور السينما :

ويسأل بعض الناس عن الخروج الى دور التمثيل والسينما.. والحكم في تلك الدور انها ليست محرمة لذاتها ، بل لما يلم بها من افعال السوقة ، وصنع من لا خلاق لهم ، ولما يعرض في برامجها من مناظر منافية للعفة ، ومعان لا توجه الى الاخلاق النافعة .. فاذا وجدت دور تعرف كيف تختار روادها من البيئات الكريمة ، وتحترم رسالتها ، فلا تعرض الا التسلية البريئة والمناظر العلمية ، والروايات الدافعة عقلا وخلقا ، فلا بأس من ارتيادها ، فالثقافة امر مرغوب فيه ، واللهو البريء جاء به الشرع الشريف ، وقد كان الرسول عليه السلام يدعو عائشة لتنظر الى الحبشة وهم يلعبون ويرقصون بحرابهم ..

★ ● ★

المتنزهات :

ويسألون عن خروج المرأة الى اماكن النزهة ذات المناظر الجميلة ، والهواء .. وما نعلم اطلاقا ان احدا حرم ذلك عليها .. ونحن نقرأ من اخبار الفضليات من نساء العصر النبوي انهن كن يخرجن الى ظاهر المدينة ، وها هي اسماء ذات النطاقين بنت ابي بكر ، وزوج الزبير رضي الله عنهم تقول : « كنت انقل النوى على رأسي من ارض الزبير وهي من المدينة على ثلثي فرسخ » قال العلماء وهو حجة في سفر المرأة اليسير بغير محرم .. والمرأة الريفية في ايامنا هذه تخرج من بيتها الى الحقل ، ولا اثم في خروجها ، ولسنا نرى فرقا بين الريفية والحضرية الا ما قد تتعرض له الحضرية من عدوان اهل النزق والمجون ، فان كان ذلك فلا ، وعلى ولي الامر ان يردعهم ويطهر المدن من اذاهم ، فهذا جاء امر الله سبحانه : لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا » .

★ ● ★

المراكب العامة :

والمواصلات في مدننا الكبرى ، في ايامنا هذه من المشكلات التي يضيق بها الرجال فضلا عن النساء .. فاذا استطاعت المرأة ان تمشي على قدميها ، فلتمش ، والا فلتستأجر سيارة ، فاذا كانت لا تطيق المشي ، وكانت حالتها المالية لا تسمح باستئجار السيارة ، فلا بأس ان تركب الترام او الاوتوبيس على ازدحامه مسايرة لحكم الضرورة ، ولان اكثر الركاب لا يبغون من الزحام الا ان يصيبوا من امرأة غرضا خبيثا ، وقديما نزل العلماء على حكم الضرورة ، وسكتوا على الازدحام الذي يجمع بين الرجال والنساء في مناسك الحج ، وفي الطواف حول الكعبة ، فانه ازدحام لا يتطلع فيه الرجل ولا المرأة الى اصابة غرض من الاغراض الفاسدة ..

★ ● ★

المرأة والعمل

ليس في الاسلام ما يمنع المرأة ان تكون تاجرة ، او طبيبة ، او محامية ، او محترفة لاي حرفة تكسب منها الرزق الحلال ما دامت الضرورة تدعو الى ذلك ، وما دامت تختار لنفسها الاوساط الفاضلة ، وتلتزم خصائص العفة التي اسلفنا بعضها .

وعيب هذه القضية هو العيب الذي نلمحه في كل موضوع من مشكلات المرأة ، اذ لا ينظرون في شيء من ذلك الى الاصلاح ، بل يخضعون للهواجس التي لا تفتأ تهمس في سرائرهم بان المرأة عندنا لا تبلغ ان تكون راقية الا اذا صارت تاجرة ، وطبيبة ، ومحامية ، والا اذا خلعت ثوب الحياء والعفة ، وخرجت الى الشارع كاسية عارية تعرض انوثتها على عبيد الشهوات وذوي النفوس المريضة ..

ان رقي المرأة الحق منوط برقي انسانيتها : ثقافة عقلها ، وسمو خلقها ، وصفاء قلبها ، وطبعها .. ومنوط كذلك برقي ما تزاول من عمل في هذه الحياة .. ورقي العمل ليس مقاسا بما اصطلح الناس عليه انه رقي ، بل مقاس بحقيقة المثل العليا التي تبعث عليه او تبغى من ورائه ..

فاذا رحت تبحث عن حقيقة الرقي الذي تجتنيه المرأة في المجتمع من هجر البيت ، الى السوق والعيادة والمكتب الخ.. لا تجد الا الخسارة الظاهرة والصفقة المردودة البائرة ..

لا مانع ان تعمل المرأة .. ولكن الحياة تخصص .. وخير التخصص وانفعه ما جاء من صنع الطبيعة واملائها .. فاذا خالفنا ذلك التوجيه وخرجنا عليه ، فقد غيرنا خلق الله في نفوسنا ، وتمردنا على سنته ، واخطأتنا المنافع واخطأناها ، ومن عرض صفحته للحق هلك .

لقد خرجت المرأة الغربية الى السوق والمصنع والشارع والمرقص ، تبتغي في ذلك وغيره لقمة العيش .. فماذا صنعت لنفسها من كرامة ، وماذا صنع لها الغرب ؟؟

لقد ارخصوها وابتذلوا انسانيتها واهدروا كل قيمة ادبية لها .. واصبح القوم لا يستأجرون من الفتاة او المرأة الا انوثتها وخصائص طبيعتها ، لتؤدي في التجارة دورا معيبا ينحرف بها عن الكرامة ولا يمت الى عوامل التجارة

الشريفة بصلة . واصبحوا لا ينظرون اليها الا على انها اداةذات انوثة قديرةعلى الاثارةومضاعفة الكسب.. فاي ابتذال للمرأة واي سقوط بقدرها الانساني ابشع من هذا السقوط..؟

انه الرقيق الحر يساق الى اسواق النخاسة تحت سياط الحاجة والفاقة .. يساق للابتذال في المتاجر ، حيث تعرض الفتاة اثمن خصائصها ــ كانثى ــ سلعة الى جانب السلع لقاء اللقمة التي تقيم اودها ..

الهذا خلق الانسان ؟؟ او هذه قيمة المرأة في حضارة المادة ووثنية المال ؟؟ او هذا ما يراد لنا ان نقلده ؟

ان المرأة انسان كريم ، واسمى ما فيها انسانيتها الرفيعة . وقد قضت سنة الله ان تجعل كرامتها منوطة برعاية اماناتها الخاصة .. وان تجعل سعادتها منوطة باداء وظائف تلك الامانات : اما ، وزوجة ، وربة بيت .. وبهذا تهتف غريزة المرأة ، ويشهد وجدانها الازلي العميق .. فاذا بنينا مكانها في الحياة على هذا الاساس ، وقررنا لها حقوقها على هذا النهج ، وفرت كرامتها ، وسبغت سعادتها وهناءتها .. فان كانت اما ففي طاعتها رضوان الله ، وتحت اقدامها الجنة .. وان كانت زوجة صالحة فهي افضل ذخر يستفيده المرء من دنياه بعد تقوى الله .. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير ما يكنزه العبد من دنياه بعد تقوى الله الزوجة الصالحة .. » فماذا وفرت لها حضارة الرقيق واسواق النخاسة من كل ذلك ؟؟

ان المرأة في البيت تصنع للطفل رجولته ، وخلقه العملي الناجح ، وتنشئه على ما تطلب الحياة الكريمة من فضائل .. فمن يمنحه ذلك اذا تركته للخدم او لسواهم ومضت الى عملها في الخارج ؟..

وهي في البيت المصدر الروحي لاشعاع الرحمة والمودة على زوجها ــ كما ورد في القرآن الكريم ــ وهي بهذه المثابة المهاد الذي يلقى فيه الحنان والدعة ، والعطف ، والسكينة ، فمن له اذا خرجت وعادت آخر النهار ــ مثله ــ مهدودة القوى ، ضيقة النفس بما لقيت من عناء يومها ؟

ان المرأة تستطيع ان تخلق الرجل كل يوم مرة او مرات .. وهي بقيامها على المهد ، ورعاية طفولة ولدها ، انما تصنع مستقبل وطنها ، ولسنا ندري عملا للمرأة في الحياة يفوق في شرفه ، وسمو غايته هذا العمل .. ولكنا اصبنا بتقليد الاجانب فلا نحس اننا امة راقية الا اذا رأينا نساءنا وفتياتنا عاملات كادحات ، وعلى نحو ما هو معهود عند الغربيين ..

يقال بعضهم : انها تكاليف الحياة الباهظة ، توجب ان تعمل المرأة الى جانب زوجها مساعدة له .. وكأنهم بذلك يحكمون في معايير السعادة ، وحقائق مثلها العليا ، ويمسخونها مادية صرفة ، يعبد المال والشهوة والترف في محاريبها وكل انحائها .. ومسخ الحياة على هذا الوجه اخطر ضروب الفساد والشقاء ، لانه ارتداد من فطرة الله التي تنشد البساطة والمثل العليا ، الى حياة تنشد التعقيد والتلفيق وعبادة مطالب البدن .

ولقد قامت في امريكا خبيرة اجتماعية هي الدكتورة « ايدا الين » تحمل على اشتغال المرأة بالاعمال الحرة ــ تاركة بيتها وابناءها ــ لتساعد زوجها على رفع مستواهم المعيشي ، فارتفع مستوى المعيشة ، وانحط مستوى التربية والخلق .. ثم ان الفارق الكبير بين المستوى الخلقي لهذا الجيل ، والمستوى الخلقي للجيل الماضي ، انما مرجعه الى ان الام هجرت بيتها ، واهملت طفلها وتركته الى من لا يحسن تربيته .. وانذرت قومها بسوء المصير اذا استمرت الحال على ما هي عليه ، ونادت بضرورة عودة المرأة الى بيتها لتزاول فيه شعائر الامومة ، واختصاص الزوجة وربة البيت ..

ان الدين لا يحرم على المرأة ان تعمل ، ولكنه يحرم ان تهجر ميدانها الطبيعي بدون عذر الى ميدان يعمره الرجل بكل كفاءة ومقدرة ، حيث لا حاجة اليها .. فلتغش المرأة ميدان العمل العام ، ولكن عند الضرورات التي تجعل جهدها فيه اجدى على الامة من بقائها في ميدانها الطبيعي .. اما التقليد السخيف ــ دون مراعاة لطبائع الاشياء ــ فتفاهة ونكسة لا نرضاها للمرأة ايا كانت ، مسلمة او غير مسلمة ..

★ ● ★

الاسلام دين الفطرة ورأيه في مشكلة المرأة .. هو رأي خالق الكون سبحانه وتعالى : « يعلم ما في النفوس وطبائع الخلق » فرسم لهم بوحيه طريق الحياة .. وهل نعلم قوما حادوا في حل مشكلة من مشاكلهم عن طريق الله وافلحوا ؟

البهي الخولي

اندهاش الفكر أمام آيات القرآن

للأستاذ: عبدالله الجراري

بعد ظهور الاسلام وبزوغ نوره الوضاء على أرجاء المعمور ـ انتشرت حركة تاريخية جعلت تتسع وتنتظم شيئا فشيئا حتى خلفت لنا ثروة ادبية من أغنى ثروات الادب العربي كانت من اهم العوامل وابرزها فى هذا البعث .

هي اولا اضطرار المسلمين لتفسير الآيات القرءانية ومعرفة مناسباتها واسباب نزولها والمكان الذي نزلت فيه والحادثة التي تشير اليها وما الى هذا المعنى الكريم الذي يعد من ضروريات الوصول الى الهدف الاسمى الموجود حول النص وثنايا سطوره .

ومن الجلي ان معرفة هذا النوع يحتاج الى بحث تاريخي ـ فى حوادث الاسلام .

كان التفسير لهذا المدلول من العوامل التي دعت الى تدوين التاريخ والعناية بـه .

والقرءان الكريم ذاته قد أكثر من الاشارات الى الامم والقبائل والانبياء فى قصصه عن الغابرين فكان لهذه الغاية الشريفة ظاهرة جلية حفزت علماء الاسلام لفهم مضامين تلك الاشارات وتوضيحها .

وكان الاسلام فى حياته وتعاليمه قد اظل كثيرا من اليهود والنصارى ـ فلجا اليهم المسلمون ليعرفوهم بتلك الاشارات وما تحتويه من رموز وغايات ـ وفعلا اخذ هؤلاء يحدثونهم بقصص التوراة والانجيل وشروحهما الشيء الذي دفع المسلمين لربطها بالتفسير والتاريخ .

واشتهرت هذه الاخبار ـ باسم الاسرائيليات ـ التي كانت تضم فى رواياتها واخبارها غثا وسمينا وخرافات ينبو عنها المنطق السليم ، ويتجلى هذا المعنى باجلى مظهر فى كعب الاحبار ، ووهب بن منبه ـ حتى أن ءاثارهما لا تزال قائمة فى كتب التاريخ التي بين ايدينا ـ بل كان وهب بن منبه التابعي الشهير اول من الف فى قصص الانبياء وسيرهم ، وكان كل ما يروى عنه فيه ما فيه من الاساطير التي نشأت عن بني اسرائيل ومن على شاكلتهم ، كما ان السنة والحديث كانا بدورهما من عوامل تدوين التاريخ ـ اذ عني المسلمون بجمع الاحاديث ليفسروا بها القرءان ويستنبطوا منها احكام الدين ، وهو معنى الآية « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » وكان من هذه الاحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة الرسول عليه السلام والصحابة الكرام فجمعت فيما جمع حيث اصبحت بعد أساسا لكتب السيرة والمغازي .

ادرك بعض الخلفاء أنهم فى حاجة ملحة الى نبراس يهتدون بهديه فى حياتهم وسلوكهم اذ لم يكن تراث عربي منظم فى فجر الاسلام يقتدون به ، كما أنهم راوا ممالك اجنبية بهرتهم حضارتها فتشوقت نفوسهم التواقة واحبوا ان يعرفوا كيفية سياستها ونظامها فى ظرف كثرت فيه المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية شان الدول لاول عهودها كما هو واقعنا اليوم الذي نعيش فى احضانه .

نعم نشأ عن ذلك هدم نظام الخلافة واقامة نظام الملك مكانه . وواجه العقل العربي ـ الذي كان ساذجا بسيطا فى جاهليته مشكلات حقيقية ـ منها ما يمس الدين والحضارة ـ ومنها ما يمس الحياة العادية والاجتماعية ، اشياء عرفته ان لابد من الاستعانة باخبار من سبقه ليستنير بها ، وهذا المؤرخ المسعودي فى كتابه (مروج الذهب) الجزء الثاني ص 52 يقول عن معاوية انه كان بعد ان يفرغ من عمله : (يستمر الى ثلث الليل فى اخبار العرب وايامها والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر ، فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان لـه مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار

والسير والآثار وانواع السياسات . وهذا ما نحن في أشد الحاجة اليه لا سيما وقد انفتح في وجوهنا باب المعارف على مصراعيه ، ولم يبق بيننا وبين الاشراف على غاياته سوى التوجه عن حماس وصدق ، كان الاجانب الذين اظلهم الاسلام بظله يفخرون على العرب بتاريخهم وحضاراتهم ويروون لهم افعالهم المجيدة في ماضيهم ، فاضطر العرب الى ابتكار تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف بازاء هذا الفخر الاجنبي ويظهرون لابنائهم وغيرهم من الامم انهم وان كانوا حديثي عهد بالحضارة ليسوا اقل من الامم الاخرى مجدا ومكانة ، وكان هذا من دواعي ظهور الكتابة التاريخية في الامة اليونانية

كان نظام الحكومة الاسلامية وخاصة النظام المالي من العوامل التي ادت الى قيام الحركة التاريخية وانتشارها ، لان الضرائب (الخراج) على البلدان المختلفة تتباين حسب فتحها صلحا او عنوة او بعهد .

وكانت المعاملة السياسية والاجتماعية نفسها تختلف في بعض البلدان تبعا لما حدث في اثناء فتحها فدعا كل ذلك والنظام المالي خاصة الى بحث تاريخ الفتوح والاهتمام بهذا الفرع من التاريخ .

ودعا النظام المالي الى نشوء فرع آخر من التاريخ، وكان ذلك لان نظام العطاء تغير منذ عهد الخليفة عمر الفاروق — حيث صار بحسب الاسبقية الى الاسلام ، اي ان الذين اسلموا في اول الدعوة يأخذون من العطاء اكثر مما يأخذ من اسلم بعدهم ، ومن اسلم وهاجر يأخذ اكثر من المسلم بعد الهجرة ، ومن اسلم وشهد بدرا اخذ اكثر من لم يشهدها من الذين اسلموا بعدها ، وهكذا . فكان هذا النظام سببا في البحث الدقيق في الدعوة الاسلامية وانتشارها ، كما كان العطاء مرتبا ايضا حسب الانساب — اي يبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم الاقرب فالاقرب ، ثم قرابة ابي بكر ثم عمر، وهكذا فالانصار فجميع المسلمين .

ومن الواضح ان هذا النظام يدعو بطبيعته المنضبطة الى البحث في الانساب ، التي كان من حذاقها وحاملي رايتها العربيان — دغفل بن حنظلة نسابة العرب ، وزيد بن الحارث

أحاديث من ابناء عاد وجرهم
تثورها العضدان زيد ودغفل

نعم كان في المقدمة الخليفة الاول ابو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ ومن هذه المعرفة نشأ هذا النوع من التاريخ ، كما ظهرت كتب الطبقات

ثم ابتدات حركة التاليف في العلوم الاخرى المعروفة بين العرب لذلكم العهد الفتي حتى اننا نجد الصحاري العبدي يؤلف كتابا في الامثال ، ثم يتطور الامر بمرور الزمن فتترجم بعض كتب الكيمياء في عهد خالد بن يزيد بن معاوية — وله هو نفسه كتب منها كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته الى ابنه في الصنعة. اما الكيمياء التي ترجمت بعض كتبها له فقد كان بعض علماء السلف يحذر منها ويجعل تعاطيها من السحريات التي تفضي بالاشياء الى قلب حقائقها — وليس السحريات بشيء ومن ضمن الحركة التاليفية ان عمر بن عبد العزيز امر بجمع الحديث وترجمة كتاب في الطب ، كل هذه الحركات تدل على ان العقل العربي كان يعاني تحولا خطيرا ، وانه اخذ في التحضر والتمدن السريعين، والمشاركة في التدوين والتاليف ، (وابن جريج أول الذين دونوا الكتب لنا تدوينا)

ولا ينسينا هذا ما كان من عناية في الجاهلية بالانساب والايام بل ازداد قوة في العهد الاسلامي بما كان الشعراء يقومون به في ميدان الفخر والهجاء والنقائض التي شاعت في هذا العصر ، وكان لها المقام الاول في شعر الفحول ، كما ان هذا النوع من التاريخ اتخذ لونا جديدا ايضا ، هو العناية بغزوات الرسول . فما كان ذلك النوع من التاريخ الا استمرارا لما عهد عند الجاهليين الا ان الاسلاميين دونوا والجاهليين حفظوا ورووا .

واننا لنعلم في نفس الحال — ان هناك كتبا مقدسة — هي التوراة والانجيل والفرقان —

ونعلم كذلك ان معظمها قصصي ديني — وهو يختلف عن القصص السياسي او التاريخ السياسي في انه يتناول فقط تاريخ الحركات الدينية ، وان تناول الحالة السياسية والشخصية والاجتماعية فانما يتناولها من ناحية علاقتها بالناحية الدينية فحسب .

وهذه نفس الحال في التاريخ السياسي القديم فهو يتناول الحركات السياسية والاجتماعية والحربية، وان تناول الحال الدينية فانما يتناولها من ناحية السياسة .

لهذا نرى التاريخ السياسي لا يشير الى ظهور بعض الانبياء ولا يعرفنا عنهم شيئا مما دعا بعض الناس الى التشكك فيهم واعتبارهم اشخاصا وهميين — ولم يتعرض المؤرخون لابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام ، كما لم يذكر مؤرخو الرومان شيئا عن عيسى وبدء حركته .

والحقيقة انه لولا الكتب الدينية ، وما خلفه اولئك الانبياء من تعاليم ومبادىء اخذت تنتقل من جيل الى جيل لما علمنا شيئا عنهم ــ وهذا ما سبب الجهل والغموض اللذين اكتنفا زمن ظهور هؤلاء الرجال العظام حتى لا يستطيع احد من المؤرخين ان يحدد متى ظهر موسى او يوسف او ابراهيم صلوات الله عليهم وان حاول شيئا من هذا فانما هو عبارة عن تواريخ تقديرية وهمية لا ترتكز على حقيقة علمية كقولهم عن دعوة ابراهيم من دور الكلدانيين الى ارض كنعان انها كانت سنة 1921 قبل الميلاد ، وانه عمر 175 ، كما ان يوسف قبضه الله اليه سنة 1635 قبل الميلاد وموسى سنة 1451 قبل الميلاد .

وبما ان القرءان الكريم آخر الكتب السماوية نراه قد جمع كل ما في الكتب السالفة مسهبا حينا ، وموجزا حينا آخر ، ولكنه بحكم نزوله بعد الانجيل قص علينا الحقبة التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام بالتفصيل ، فقص علينا قصة أهل الكهف واصحاب الاخدود وغزوة ابرهة لمكة . كما اخبرنا عن عيسى عليه السلام باشياء لم يتناولها الانجيل ، مثال ذلك تكليم عيسى الناس في المهد ونزول مائدة عليه من السماء وتكوينه من الطين على هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ــ وقد اعترف الانجيل نفسه انه لم يلم بكل معجزات عيسى بقول يوحنا في انجيله (واشياء كثيرة صنعها يسوع ان كتبت واحدة واحدة فلست اظن ان العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة)

ونعلم أن القرءان الكريم انزل مجزءا مفرقا حسب ما تتطلبه الحوادث ــ وكان في هذه الحالة داعيا الى الاخبار باشياء ادى اليها حب استطلاع اصدقائه واعدائه المريدين تحديه باسئلتهم التي ظنوها تحمل الاعجاز في ثناياها ــ فقص علينا قصة ذى القرنين الذي اختلف المفسرون فيه ــ فالبعض منهم يقول انه ــ الاسكندر المقدوني ، ويقول البعض الآخر انه شخص آخر مختلف عنه كل الاختلاف ، ويظهر ان هؤلاء هم اصحاب الراي الصحيح .

وقد ازال القرءان اللبس المحيط بكثير من المسائل وحددها تحديدا واضحا جليا لا غموض فيه وللقرءان ميزة تاريخية أخرى هي دقته المتناهية بحيث انك اذا اردت أن تعبر عن حادثة تاريخية تعبيرا موجزا وافيا بالفرض واضحا بينا يؤدي كل ما ترمي اليه بحيث يغني قارئه ــ وسامعه عن أي تفسير وايضاح لم تجد ما يعادل تعبير القرءان اذ تجد فيه فوق ما ترنو اليه وتصبو .

انظر اليه وهو يصف ديانة المصريين القدماء على لسان نبيه يوسف الصديق عليه السلام في سورة يوسف قال : « يا صاحبي السجن آرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وءاباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

وهل هناك خير من هذا وأكثر توضيحا لديانة قدماء المصريين ؟

الم يكونوا يعبدون ءالهة متعددة ، بل كان لكل بلدة الهها الخاص ــ آرباب متفرقون ــ

وكان يحدث بين الحين والآخر ان تنتشر عبادة اله من هذه الالهة عندما يعظم شأن البلدة التي ــ يعبد فيها ــ ، كروع (اله عين الشمس) وءامون (اله طيبة)، و (تحوت) اله العلم والحكمة وغيرها من الاسماء الخيالية التي اخترعتها عقولهم .

ولقد بين القرءان الكريم حقيقة اخرى متعلقة بديانة قدماء المصريين بايجاز وجلاء ، وهذه الحقيقة هي تبيانه ــ ان فرعون يعتبر في نظر المصريين الههم الرئيسي الذي بيده كل شيء بينها الله تقدست اسماؤه في سورة النازعات : قال « فحشر فنادى فقال: انا ربكم الاعلى »

وهذا عين ما قاله التاريخ بعد ان ازيح الستار عنه وكشفت غوامضه في القرنين الاخيرين اذ كان المصريون يقدسون الملك ويعتبرونه اكبر ءالهتهم ، وكانوا يسمونه (بحوريس الحي) ، وقد راعوا في بناء اهرامهم وقبور ملوكهم ان تكون فوق الروابي لتتمكن الفراعنة (في نظرهم) من الاشراف على البلاد في مماتهم ، كما كانوا في حياتهم ، ولم يقتصر القرءان على موضع واحد في الاشارة الى هذا الاعتقاد ، بل اشار اليه في سورة الشعراء في خطاب فرعون الى موسى : قال : «لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين»، وفي سورة القصص في خطاب فرعون الى شعبه : « وقال فرعون : يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري » .

ولكن اعجاز القرءان الكريم لا ينحصر في دقته واعجازه البلاغي فحسب كما يفعل الزمخشري في كشافه ، وعبد القاهر الجرجاني في اسرار بلاغته ودلائل اعجازه ، والاصم يوسف السكاكي في مفتاحه ــ ولكنه يتعداه الى اعجاز علمي يظهر في تاريخه المستقبل وحوادثه تاريخا حقا واقعيا لا ياتيه الباطل من بين

بديه ولا من خلفه . وتلك بحق ءايته الكبرى ومعجزاته الخالدة التي تتجلى عند المعارضة والتحدي —

وقتما وقف ابناء الاسلام والنصرانية وجها لوجه ، وظهر فى الافق دين سماوي جديد عز على اليهودية كما عز على النصرانية ان يبدو من الاعلى نبراس ءاخر يجتذب اليه عيون الناس وافئدتهم وتخوف كل منهما على مكانته ان تضمحل ، وان يحتل هذا المصباح الوضاء مكانة الصدارة منهما .

اما اليهود فبعد تفكيرهم الطويل لجأوا الى الكيد لهذا الوليد الجديد رجاء ان يكتموا انفاسه وهو فى مهده ، فاخذوا يؤلبون العرب عليه ، ويحرضونهم على محاربته وقد نجحوا جملة فى هذا فتحالفت قبائل العرب واليهود وحاصروا المدينة فى غزوة الخندق — ومما زاد فى محنة المسلمين — ان حلفاء الرسول عليه السلام وهم يهود بني قريظة نكثوا عهدهم ، وتخلفوا عن النبي وانضموا الى اعدائه — ، فضاقت الدنيا بالمسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا فقد كانت بلاد الحجاز كلها تطبق عليهم فى المدينة ولكنهم خرجوا من هذه المحنة ءاخر الامر سالمين . وتفرق الحلفاء بعد ان صمدت لهم المدينة فاستعصت عليهم وبذلك ارتد سهم اليهود الى نحرهم وعادوا خائبين خاسرين

(حسبتهم سهاما صائبات فكانوها ولكن فى فؤادي)

وطفق هذا النور الذي حاولوا اطفاءه يزداد تألقا ويسمو حتى عم الجزيرة ، واضاء العراق وفارس والهند ، ووصل الى الصين ، واشرق على الشام ومصر وشمال افريقيا ووسطها وشرقها واطراف آسيا وقلبها وجنوبها وعبرت منارته البحر الابيض والقلزم حتى جنوبي روسيا ، اما النصرانية فنحت حياله منحى ءاخر — فوقفت امامه تحاجه تريد ان تلزمه الحجة —

لهذا وفد من نصارى نجران وفد على الرسول الاكرم محمد عليه السلام — يريد ان يتحدى الاسلام والقرءان عرض عليه النبي الاسلام فقال : (اننا نحن المسلمين حقا) فما كان منه صلوات الله عليه الا ان افهمهم ان ثلاثة اشياء ، تمنعهم عن الاسلام : اكل الخنزير ، وعبادة الصليب ، وقولهم ان لله ولدا . فما كان منهم الا ان سالوه سؤالا ظنوه معجزا وهو : (من ابو عيسى) وهنا تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان مثل عيسى عند الله كمثل ءادم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله » وقد حسم الله بهذه الآيات هذا الخلاف فافهمهم ان عيسى ما هو الا عبد من عبيد الله خلقه من غير اب ، وان هناك سابقة لهذا اشد وقعا فى النفس من ميلاد عيسى وهي خلق الله ءادم من غير اب ولا ام ، وكان القرءان الكريم يرد عليهم بسؤال من نوع سؤالهم الا وهو من ابو ءادم . ثم افهمهم ان كثرة المجادلة غير مجدية ، وانهم اذا كانوا لا يزالون يصرون على قولهم فأحسن طريقة لحسم هذا النزاع هو ان يلتجيء الفريقان الى الله فيدعوانه ان ينزل لعنته على الفريق الكاذب منهما .

هناك ظهرت قوة الحق وبلبلة الباطل فعندما دعاهم النبي عليه السلام الى المباهلة ارجاوه حتى يتشاوروا فلما انعقد جمعهم قال لهم رئيسهم : (والله لقد عرفتم نبوته ، ولقد جاءكم بالفصل فى امر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا الا هلكوا فان أبيتم الا دينكم فوادعوا الرجل) — ولكن محمدا صلوات الله عليه كان واثقا من نفسه ومن حقه المؤمن بربه غدا محتضنا الحسين ءاخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه وراءهما وهو يقول لهم : اذا دعوت فأمنوا .

فى هذا الظرف الحاسم قال الاسقف : (يامعشر النصارى اني لأرى وجوها لو سالوا الله عز وجل ان يزيل جبلا من مكانه لازاله فلا تباهلوا فتهلكوا) .

واظن اننا لانزال نستحضر اولى حركاتنا السلفية بالمغرب حركة الاصلاح المبنية على اساس الانقاذ المؤرخة بـ سنة 1345 الموافق 1926 م وقتا وقف فيه شيوخ الطرق المزورون وادعياء الزوايا واذناب الاستعمار منهم على الاخص حجر عثرة فى سبيل حركة الشباب الواعي والسعي فى مناقضتها والعمل على اقبارها فى المهد .

اذ كانت الجزائر ءانذاك تعمل على نشر الاسلام الصميم بين شباب الامة وانقاذ الشعب من براثن الاستعمار وسمومه الفتانة الفتاكة — فحمل راية الدعوة المغفور له (عبد الحميد بن باديس) وجماعة من اخوانه الاباة ، وفتحوا مدرستهم السلفية فى وجه ابناء الشعب كما بعثوا صوتهم المدوي فى جنبات العالم العربي على صفحات الشهاب والبرق ضد بلاغ المشعوذ ابن عليوة المدفوع هو وجماعته من طرف الاستعمار الخبيث .

نعم اثناء الحركة ، اندفع احد الفريقين للدعوة الى المباهلة حيث يكون مقر اقامتها الجزائر الشقيقة المجاهدة ، غير ان الموقف الذي تحدثت عنه الآية ، ومثال الدعوة هو ما جرى فى الحركة المغربية اذ تهيب احد الفريقين الدخول فى جو المباهلة خيفة الفضيحة ، ولكن ابى الله تعالى الا تنتصر الحركات الاصلاحية ويضمحل الباطل واهله وليست هذه اول الحركات بل تقدمتها انتفاضات أولية قام بها جماعة من الاخوان الرباطيين رحمة الله عليهم : كالحاج المعطي جوريو والحاج محمد البحراوي والازرق – وسواهم من المشاركين فقاموا ضد فرض ضريبة جديدة عن وقاية الدكاكين (كيام) الشيء الذي دفع الفرنسيين الى نفي بعضهم وسجن البعض فكانت تلك الوثبة كأولى وثبات وطنية ظهرت بالمغرب تلتها حركات موفقة كان النصر حليفها .

وهكذا قوة الحق اذ تجلت ارتعد الباطل لها وتقهقر فلم يكن منهم الا ان اذعنوا للرسول صلوات الله عليه وتفادوا المباهلة ، وارتضوا الجزية كما تعاهدوا ان لا ياكلوا الربا او يتعاملوا به ثم رجعوا الى قومهم .

اما النبي صلى الله عليه وسلم فرجع وهو يقول: (والذي نفس محمد بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي نارا ولاستاصل الله نجران واهله حتى الطير على الشجر) .

حكمة بالغة وحجة دامغة – تحداهم النبي عليه السلام بها – ان يقفوا فى صعيد واحد فيدعوا الله ان ينزل لعنته على الكاذبين فما كان منهم الا ان ولوا مدبرين ولو كان الحق بيدهم لما وجلوا ولا خافوا ، ولكن علموا صدق قول الرسول فخشوا العاقبة ، واستنكفوا ان يهجروا دينهم الى الدين الجديد الذي علموا انه الحق بعد ان كانوا يظنون انهم به سيظفرون.

ولكنها هيمنة القرءان التاريخية والعلمية – « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » .

فالقرءان العظيم له طابعه الخاص فى التاريخ حيث يتناول الحوادث تناولا يدل على استقلاله العلمي وله فى وسطها اسلوبه الخاص يدل على هذا الاستقلال انه ذكر عن عيسى عليه السلام اشياء لم يتناولها الانجيل نفسه كما اشير اليه من قبل ، ولم يقتصر الامر على الانجيل بل ان هيمنته التاريخية تناولت التوراة فى أعظم شخصياتها : موسى ويوسف وابراهيم عليهم السلام عدا كثير غيرهم من الانبياء الكرام .

فالتوراة لم تتناول حياة ابراهيم بين الكلدانيين ومجهوداته لاقناعهم بوجود اله واحد ومحاولته نشر دعوته وتحطيم اصنامهم وقذفهم به فى النار ونجاته منها ، ولم تتناول علاقته بوالده وما دار بينهما كما لم تتكلم عن اعادة بناء اسماعيل وابراهيم للبيت الحرام ، بينما تناول القرءان الكريم هذه الموضوعات بما ليس فيه زيادة لمستزيد وباسلوبه الشيق الجذاب الذي تحار امام عظمته الالباب ، اما عن يوسف فان التوراة لم تتعرض لكيفية ظهور براءته مما نسبته اليه امراة العزيز من اتهامه بمحاولة هتك عرضها بينما شرحها القرءان شرحا وافيا .

وشهد شاهد من اهلها – هو ابن عم لها وابن خال لها – والقى الله الشهادة على لسان من هو من اهلها لتكون اوجب للحجة عليها واوثق لبراءة يوسف .

« ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » كما ان التوراة لم تتكلم عن حادث النسوة اللاتي بهرهن يوسف بجماله فقطعن ايديهن كما لم تبين لنا الموقف العظيم الذي وقفه حينما ابى الخروج من السجن الا بعد ان تعلن براءته على الملا وان تسال النسوة ليقررن الحقيقة يقول الكتاب : « قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امراة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين » .

خرج يوسف ومثل بين يدي فرعون ليكون عنده المتصرف الامين على خزائنه وارضه واقوات رعيته خرج ليأمر فيطاع « تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تاكلون » طريقة طريفة فنية لحفظ القمح من السوس والتلف – لقد حار الناس كيف حفظ يوسف القمح سبع سنين اذ لم تفسر التوراة ذلك ، والسوس يتسرب الى المخزون منه بعد اربعة اشهر على الاكثر فكيف تسنى ليوسف انقاذ مصر وانقاذ قوتها .

هنا تظهر عظمة القرءان الكريم اذ ابان لنا تلك الطريقة العجيبة على الرغم من بساطتها .

اتى اخوة يوسف الى مصر للمرة الثانية فاحتجز يوسف شقيقه بنيامين ، ولكن التوراة اغفلت ذكر رجوعهم الى ابيهم واخباره بفقدان اخيهم كما لم تذكر ما ترتب على علم ابيهم بفقد ولديه العزيزين من حزن شديد كان من جرائه ذهاب بصره (وتولى عنهم وقال يا اسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم) اذ تقول التوراة فى سفر التكوين الاصحاح

الرابع والاربعين على لسان اخوة يوسف فى رجاء موجه اليه (هنا نحن عبيد لسيدي ، نحن والذي وجد الكاس فى يده جميعا) فقال : حاشا لي ان افعل هـذا .

الرجل الذي وجد الكاس فى يده هو يكون لي عبدا

(اما انتم فاصعدوا بسلام الى ابيكم) ولم يردف ذلك بقوله هل هم ذهبوا أم لا ؟

وانما اردفه برجاء لكبيرهم يهودا عارضا نفسه بدل اخيه لشيخوخة والده وخوفه من هلاكه لشـدة حزنه ، ثم يتلو ذلك الاصحاح الخامس والاربعون حيث يبدأ بتعريف يوسف نفسه لاخوتـه وهنـا يحدثنـا ـ القرءان الكريم عن طريقة استرجاع يعقوب لبصره كما حدثنا عن سبب ذهابه فافهمنا انه شفي بمعجزة تتلخص فى وضع قميص يوسف على وجهه فارتد بصيرا ، بيد ان التوراة لم تذكر شيئا عن هذا الامر .

هذا عن يوسف عليه السلام

اما عن موسى فان القرءان انفرد دون التوراة بالمعلومات التاليـة :

1) الشرط الذي اشترطه شعيب على موسـى لتزويجه احدى ابنتيه (على ان تاجرني ثماني حجج فان اتممت عشرا فمن عندك) وقضاء موسـى ابعـد الاجليـن

2) ايمان السحرة الذين تحدوا موسى وسجودهم لله وصلب فرعون لهم وتعذيبهم .

3) امراة فرعون وايمانها خفية وأمر فرعون لهامان ان يبني له صرحا ليطلع على الـه موسى .

4) انتشال جثة فرعون بعد غرقه (اليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك ءايـة) .

5) مؤمن ءال فرعون الذي اخـذ يعـظ الشعب ليهديهم سبل الرشاد ـ هذه بعض الامثلة على هيمنـة القرءان التاريخية وانها لهيمنة تظهر بوضوح وجـلاء كلما امعن الانسان البحث فى ثنايـاه .

وليست هذه الهيمنة قاصرة على التاريخ فحسب بل ان جلاله وهيبته وقوة عظمته تشمل جميع النواحي فهو يبسط سيطرته الجبارة فى كـل ما يتناولـه مـن تشريعات دينية واخلاقية ونواميس تربوية واجتماعيـة وحقائق علمية وفلكية ومعلومات طبية وأخبار غيبيـة لها اسرارها الباهرة ومعارفها المشرقة تحدث عنهـا منذ ما يقرب من 14 عشر قرنا واليوم اصبحنا نـرى

اقطاب الفكر فى العالم يطلعون علينا بين الفينة والفينـة بنتائج ابحاثهم العلميـة وعصارات افكارهـم المدهشة التي سبقوا اليها بقرون ، قد لاشك انها ستحفزهم يوما مـا للايمان بـه وبعظمته وبما جاء به من مبـادىء وءايـات اذا ما امعنـوا النظر فى ءايـه المقدسـة ومـا تحويه فقرها المتناسبة الخالدة من عجائب وقف دونها رجال الفكر ودكاترة المعرفة والفلسفة مشدوهين .

وليسمح لي الاخوان لاعرض امثلة فى الموضـوع ـ كدليل ـ نتبين من بين سطورها تلك الاسرار القدسية الكامنة بين دفتيه يقول الله تعالـى فى سورة النساء : « ان الذين كفروا بئاياتنا سوف نصليهم نـارا كلمـا نضجت جلودهم بدلناهـم جلـودا غيرهـا ليذوقـوا العذاب » ـ اعد سبحانه لجاحد ءاياتـه المنزلـة على انبيائه نارا مسعرة تشويهم وتحرق اجسامهم حتـى تفقدها الحس والادراك قال جلت قدرتـه : « كلمـا نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » اي كلما فقدت التماسك الحيوي وبعدت عـن الحس والحياة بدلها جلودا اخرى حية تشعر بالالم وتحس بالعـذاب .

يقول الدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا رحمـة الله عليه فى كتابه (الاسلام والطب الحديث) الحكمـة فى تبديل جلود الكفار ـ ان اعصاب الالم هي فى الطبقة الجلدية واما الانسجة والعضلات والاعضاء الداخليـة فالاحساس فيهـا ضعيف ، ولذلك يعلـم الطبيب ان الحرق البسيط الذي لايتجاوز الجلد يحدث الما شديدا بخلاف الحرق الشديـد الذي يتجـاوز الجلـد الـى الانسجة لانه مع شدته وخطره لا يحدث الما كثيرا ـ فهو يقول ان النار كلما اكلت الجلد الذي فيه الاعصاب تجدده كي يستمر الالم بلا انقطاع ويذوقوا العـذاب الاليم ـ كذا نرى هذه الجملة الشرطية الواحدة ترسم هذا المشهد المخيف العنيف الذي تتجلى بين احرفـه القوية حكمة الباري سبحانه قبـل ان يعرفها الانسان طـوال 14 قـرنـا .

وتلك ءاية ـ س ـ يقول الله تعالى : « اليـوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بمـا كانوا يكسبون » فيخرس الله اللسان وينطق اليديـن والرجلين قابلا شهادتهما وهو سبحانه يقول فى الآيـة الاخرى : « يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون » سوى سبحانه بين شهادة الثلاثـة ، ما السر الذي يظهر فى اختصاص اليديـن والرجليـن بالشهادة دون باقي اجزاء الجسم مع انها كلها متساوية اذ لا يبدو تغير فى هياتها الاصلية مدة الحياة ؟

الاجابة على هذا ترجع لعلم التحقيق الجنائي وهو بالطبع حديث النشأة لم يظهر لعالم الوجود الا في أواخر القرن التاسع عشر ، ويشير الاستاذ (محمد بك شعير) في كتاب له في الموضوع حول ترجمة (بصمات الاصابع والايدي) قائلا : (ليس ما نقرأه من الوقائع المدهشة (لشرلوك هولمز) و (وكارتر) وامثالهما وما يكتبه الرومانتيون امثال (كونان دويل) و (ليكوك) وسواهما وما نراه يشخص على الشاشات ودور الصور المتحركة من الروايات البوليسية الغربية التي يتعقب فيها رجال الشرطة السرية الجناة ويتعرفون اشخاصهم مظهرين حقيقة أمرهم ـ من اناء لمسوه او وعاء امسكوه او كوب شربوا منه او خزانة فتحوها ـ ليس كل هذا حديث خرافة ـ وانما هي ثمرة العلم الحديث ونتيجة مجهودات العلماء الذين اتوا بالمعجزات في فن بصمات الاصابع والايدي ـ ولم يكن استخدام بصمات الاصابع في الجنايات للتعرف على شخصية تاركها وترتيبها بطريقة ثابتة للاستعانة بها في استخراج السوابق ـ لم يكن معروفا في اوربا الا حديثا فقبل سنة 1890 م لم يعرف عنها شيء في الحياة العلمية الشيء الذي يجعل اختصاص اليدين والرجلين في الآية دون بقية الاعضاء معجزة قرءانية اخذت الابحاث العلمية تكشف عنها في القرن العشرين .

ومن العجب ان ختمت السورة بما يفيد ذلك ، يقول الله سبحانه (سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي انفسهم الآية) . كأنه جلت عظمته يقول : اختصاص شهادة الايدي والارجل دون بقية الاعضاء ـ أمر يشكل عليكم ولكن سأظهر لكم بعض سره في الدنيا ، وقد اظهره تعالى في عصرنا الماثل ـ فكانت المعجزة لهذا مزدوجة ـ اولا اختصاص اليدين والرجلين ، ثانيا ظهور ذلك بالفعل لمكان ـ سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي انفسهم ، ومن معارف الكتاب والوان انواره الساطعة مما تضمنته من باهر الآيات ، قوله تقدست اسماؤه في سورة الانعام : « ومن يرد الله ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء » تحمل الآية في مدلولها الكريم : أن من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والاوزار ـ يجد في صدره ضيقا ايما ضيق اذا طلب اليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والانفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والتعلق بعادات الآباء والاجداد والاستكبار عن مخالفة ما الفه وسار عليه الناس وتضعف ارادته لحد بعيد عن ترك ما هو عليه فتكون اجابته الداعي الى الدين الجديد ثقيلة عليه ويشعر في الوقت نفسه بالعجز عن احتمالها ويكون مثله مثل من صعد في الطبقات العليا في جو السماء اذ يشعر بضيق شديد في التنفس ، وكلما صعد في الجو اكثر شعر بضيق اشد حتى اذا ما ارتفع الى اعلى من ذلك ـ شعر بتخلخل الهواء ولم يستطع سبيلا الى البقاء ، فان هو بقي فيها قضى نحبه اختناقا ـ فهنا نرى كيف ضرب الله مثلا لضيق النفس المعنوي بمن دعى الى الحق وقد الف الباطل وركن اليه ـ بضيق التنفس الذي يجده من صعد بطائرة الى الطبقات العليا من الجو حتى لقد يشعر بانه اشرف على الهلاك وهولا محالة هالك ان لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجو المختنق الى طبقات اسفل ، انها لآية خالدة ينطق بها الكتاب المقدس من قبل ان يتفهم سرها البشر وما ادرك كنهها الا بعد ان مضى على نزولها نحو 14 قرنا .

وتقدم فن الطيران وما اليه من خوارق الاجواء ـ وبالتجربة ـ صدق الكتاب ودل بوضوح على صحة ما ثبت في علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوي في مختلف طبقات الهواء فكلما صعد الانسان الى طبقة اعلى شعر بالحاجة الى الهواء وبضيق التنفس ذلك لقلة الهواء المليء بمادتي الاكسجين والادرجين الدعامتين الاساسيتين للحياة وذلك ما يحفز رجال الفن اذا ما اضطروا للتوغل في اجواء الفضاء الى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير في تلك الطبقات والاحتفاظ بحياتهم الطبيعية .

وهذه الآيات البينات التي المعنا اليها وغيرها كثير لم يستطع علماء التفسير ايضاحها ايضاحا يكشف ما تحمله من اسرار اذ لم يهتدوا للمودع في ثناياها الى ان جاء الكشف الحديث وتقدمت العلوم ، واصبح في متناول البحث العلمي بيان مغزاها وكشف المراد منها حسبما اثبته العلم ، ومن هذا المعنى صح ما قالوا : (الدين والعلم صنوان لا عدوان) وهكذا دواليك كلما تقدم العلم ارشد الى ايضاح قضايا خفي امرها على متقدمي العلماء ومن عني بالتفسير وعلومه على الاخص ـ ولا بدع ان يدخر لبعض المتاخرين ما عسر فهمه على المتقدمين ـ يوتي الحكمة من يشاء .

الرباط : عبد الله الجراري



- 3 -

سـورة البقـرة

بسم الله الرحمن الرحيم « الـم ذلك الكتاب لا ريب فيه ..الخ» هذه القطعة من القرآن ، من هنا الى قول الله عز وجل « الم الله لا اله الا هو الحي القيوم » تسمى سورة البقرة ، وقد سماها ملك بذلك نزل على النبي (ص) وبحضرته جبريل كما في صحيح مسلم ، ولعل حكمة تسميتها بذلك التذكير بقصة البقرة المذكورة فيها ، والمعجزة التي وقعت لسيدنا موسى عليه السلام ببعض تلك البقرة كلما سميت هذه السورة سورة البقرة ، وذلك لان هذه القصة غير مذكورة بعينها في التوراة التي بيد بني اسرائيل الآن ، نعم قد ذكر فيها حكم ، ما اذا جهل القاتل ، وهو ان تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ، ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من محل المقتول ايديهم على المحلة التي كسر عليها عنق البقرة في الوادي ، ثم التنكيت على اليهود في انكارهم معجزات النبي عليه السلام الدالة على نبوته ، فكأنه يقال لهم كلما سميت هذه السورة سورة البقرة ، اذا كنتم تنكرون معجزاته عليه السلام فمالكم لا تنكرون معجزة البقرة التي وقعت لموسى عليه الصلاة والسلام بين اظهر سلفكم مع انه ما وقعت له هذه المعجزة في غفلة منهم ، بل في حضورهم وتشبثهم في امرها والحاحهم بالسؤال عن هذه البقرة ووصفها حتى كانوا على بينة من امرها .

ثم ان لفظ (الم) هنا ، وفي غيرها من السور ، وكذلك (المص) و(حم) و (حمعسق) و (كهيعص) و (طه) وما شاكلها من الالفاظ المفتتح بها بعض السور هي الفاظ مبهمة المعنى ، لم تتضح دلالتها ولا مناسباتها اتضاحا لغويا سواء من حيث حروفها المقطعة ، او تراكيبها ، او سياقها ، او قرائن الاحوال المتعلقة بها ، وقد كان ظهر لي في لفظ (طه) على الخصوص لاسيما على قراءة من آمال الهاء كاملة كقراءة ورش ، أن طا مهملة مختزلة من لفظ طاطىء بمعنى طأطأ رأسه ولفظ هي ضمير مبتدا خبره محذوف تقديره حضرة القدس ، وبعد الامر طلبني بالطأطأة على ما فهمناه من لفظ طه ، واشعاره بانه في حضرة القدس وذلك شيء يوجب الدهشة والرعب ، ذكره عليه السلام ما يؤنسه ويذهب عنه روعه ودهشته ، وذلك قوله تعالى « ما انزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى » وبعد هذا التأنيس والتطمين اعيد للنبي عليه السلام ذكر جلال الله مصحوبا بجماله ، وذلك قوله تعالى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلا ، فهذا الجلال والجمال قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » اي هو رحمان في ملكه ، وان كانت له شارات الملوك العظام وخواصها المرموز الى جميعها بالعرش ، ثم اعيد ذكر ما يقتضي الجبروت والجلال ، وذلك قوله تعالى : « له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى» وانما فهمنا هذا الفهم بقرينة قصة موسى عليه السلام المذكورة بأثرها ومخاطبة الله له بقوله: « اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى » ومع ذلك فاني لا اجزم بان هذا المعنى هو المراد من لفظ (طه) واقول كما قال الائمة : الله اعلم بمراده من ذلك ، بان العجز عن الادراك ادراك .

ومعلوم ان الله مالك الملوك سبحانه ، والملوك لهم مع خواصهم اسرار لا ينبغي ان يطلع عليها عوام الناس ، فيمكن ان يكون القرآن قد استعمل هذه الالفاظ رموزا للنبي عليه السلام على اسرار بينه وبين ربه ، هذه مدة نحو ثلاثة عشر قرنا وسبعين سنة ، ثم نرى اليوم الدول المتمدنة تنهج هذا النهج الذي نهجه القرآن مع اخص خواص الله وهو النبي (ص) في مخاطبة خواص الموظفين بالتليفون والتلغراف مخافة ان يطلع بعض الناس على اسرارها . كما نرى الاجانب يصطلحون كل يوم على لفظة يفتتحون بها مخاطبتهم اللاسلكية ويطلقونها بين اولئك الموظفين الكبار ، وقل مثل ذلك في الفاظ الحكومات الرمزية التلغرافية فانها

اسرار بين الحكومات وموظفيها ، وقد كان اخبرني هذه مدة من نحو اربعين سنة رجل كان موظفا بقنصلية المانيا في فاس ان القنصل الالماني اذا اتاه تلغراف من حكومته او موظف كبير منها مثل السفير ، اغلق عليه محله واختلى بنفسه لفك رموز ذلك التلغراف .

وبهذا المعنى الذي اوضحناه في هذه الالفاظ الرمزية المفتتح بها بعض السور ، يظهر ان تقسيم الائمة رضي الله عنهم ما نزل على النبي عليه السلام من قبل ربه الى ثلاثة اقسام ، قسم نزل عليه لمصلحة الخلق وارشاده ، فهو مأمور بتبليغه ، وقسم نزل عليه لغير ذلك وامر بكتمه ويكون منه هذه الرموز السرية الواردة في القرآن ، وقسم خير فيه بين التبليغ وعدمه ، ويظهر ان التخيير في هذا القسم انما هو بحسب ما يظهر للنبي عليه السلام من استعداد الامة لقبوله ، وذلك كالصحيفة التي حاول النبي عليه السلام عند موته ان يكتبها فلما نازع الصحابة رضي الله عنهم لديه في كتبها امسك عن ذلك ، وعلم انهم غير مستعدين لها ، وبذلك يعلم ان معنى قوله تعالى فيما بعد وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم .. لخ ليس على عمومه بل انما يشمل القسم الاول والثالث فقط .

وقد اهتديت بفضل الله ، الى انه من اول السورة الى قوله سبحانه : « سيقول السفهاء من الناس » هي خطبة الكتاب العزيز اذ في هذه القطعة اجمال لما فصل في جميعه شأن غالب المؤلفات التي هي بين ايدينا ، فانه يذكر في ديباجتها اجمال ما فصل في جميعها ، فقد قسمت هذه الخطبة البشر امام القرآن الى ثلاث فرق مومنين بالغيب الذي جاء به الاسلام على لسان النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا هو روح الاسلام ولبه ومبدأه الوحيد الذي لا يتصور بدونه ، وكافرين مجاهرين بالكفر وبضد ما جاء به الاسلام، ومنافقين مذبذبين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء يظهرون الاسلام ويسرون الكفر .

ثم بينت ان القرآن سلم للفريق الاول مادح له باظهار مزاياه وفضائله على سبيل الانموذج كاقامة الصلاة والانفاق مما رزقهم الله، وحرب للفريق الثاني ذام له باظهار اهم قبائحه على سبيل الانموذج كذلك كالختم على قلبه اي جعله غير قابل للاسلام ولا مهيا لقبوله مهدد له بالعذاب العظيم ، وحرب للفريق الثالث كذلك .

غير ان الفريقين الاولين لما كانت احوالهما ظاهرة للعيان لا لبس فيها ولا تدليس اوجز القرآن في ذكرهما ووصفهما ايما ايجاز ، وذلك من قوله تعالى « هدى للمتقين » الى قوله « عذاب عظيم » ، ولما كان الفريق الثالث بالتوائه وتروغه في اقواله وافعاله قد تخفى احواله وما يضمره على كثير من الناس اطنب القرآن في وصفه وذمه وتبيين مبادئه ، وضرب الامثال فيه تحقيرا لشأنه واستضعافا لما يتخذه من الحيلة في شأنه ، وذلك من قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الاخر وما هم بمومنين » الى قوله سبحانه « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم » الخ ، ثم خاطبه بقوله تعالى « يا ايها الناس اعبدو ربكم لخ » ثانيا تألفا له وتذكيرا بما انعم عليه به من خلقه وجعل الارض فراشا له ، والسماء بناء وانزال الماء له من السماء ، واخراج النبات به ثم حاجه بعد ذلك في كفره بقدرته عليه في ضمن قدرته على خلقه وايجاده من العدم ، ثم اعدامه بعد الوجود ، ثم خلقه بعد ذلك وصيرورته الى رحمته او نقمته ، وبقدرته عليه ايضا في ضمن قدرته على اي خلق له ما في الارض جميعا في ضمن جميع البشر ثم استوى الى السماء فسواها سبع سموات ، ثم ذكره بتشريفه اياه وتمييزه بشيئين هما خلافة جنسه في الارض ، وسجود الملائكة لابيهم آدم عليه السلام، وذلك على عادة القرآن من مزج القوة باللين، والوعد بالوعيد ، والانتقام بالانعام ، ثم لما كان بنو اسرائيل من الفريق الثاني الذي جاهر ضد الاسلام وكان لهم اذ ذاك في جزيرة العرب مهبط الوحي قدم راسخ وتفوق على غيرهم من العرب المشركين سواء من الناحية الدينية او الاجتماعية او الاقتصادية اذ كانوا لا زال لهم من بقايا دينهم مبادئ يعملون بها ويهتدون بنبراسها بخلاف مشركي العرب، فقد كانوا على الوثنية المحضة ، اذا استثنينا اقرارهم بالالاه وبعض مناسك الحج من بقايا دين ابراهيم عليه السلام ، وكان لبني اسرائيل ايضا مبادئ اجتماعية كقواعد النكاح والطلاق والارث بخلاف مشركي العرب ، فلم يكن لهم مبادئ قط من هذا القبيل ، اما حالتهم الاقتصادية فقد كانوا اصحاب الثروة هناك والزراعة في سبل المدينة المنورة وفدك وخيبر ، وكان كثير من العرب عالة عليهم يعملون في ثروتهم ومكاسبهم ، ولما كان بنو اسرائيل بهذه المثابة كلها التي ربما اثرت على عقول العرب وادخلت لهم الشك في الدين زيادة على ما عرفوا به من الدهاء والامعان في الحيل والمكر لكسب ضمائر الناس وعقولهم تصدى القرآن لخطابهم بالخصوص ، ولاينهم مرة وخاشنهم اخرى ، اظهارا لطويتهم وما في خبايا بواطنهم حتى لا تنطلي اقوالهم وافعالهم وحيلهم على القلوب وذلك من قوله تعالى « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم » الى قوله تعالى «سيقول السفهاء لخ»

وبذلك انتهت الخطبة ودخل القرآن في دور العمل والتشريع وتوجيه القلوب الى الاسلام بشتى الوسائل كذكر الوعظ وقصص الانبياء مع اممهم وضرب الامثال لكل من الحسن والقبيح الى غير ذلك من وجوه توجيه القلوب الى الاسلام .

ثم انه لما كان الغرض الاول الذي يسعى اليه الاسلام، هو تثبيت اقدام الامة ووحدتها وحشرها في مجتمع تتميز به من غيرها من الامم اذ لا يتم لها شيء من التشريع الديني او السياسي او الاجتماعي او الاقتصادي ولا غير ذلك الا بايجاد هذه الوحدة ، وكانت هذه الوحدة لا تتم الا بتوحيد برامجها ونظمها الدينية والسياسية وغيرها ، كان اول ما بدا به القرآن من تلك النظم توحيد نظام القبلة التي يتجه اليها كل مصل خمس مرات على الاقل في كل يوم ، حيث يعتقد انه بين يدي مولاه يناجيه ويبثه شكواه ومطالبه ، الا فليتفطن الذين يتلون كتاب الله الى اسراره وحكمه وما انطوى عليه من المقاصد .

وقوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) الاشارة بلفظ ذلك الى القرآن المنزل بعضه اذ ذاك على النبي (ص) وشملت الاشارة كله وان كان لا يشار في الغالب الا لموجود تنزيلا لمحقق الوجود منزلة الموجود بالفعل اي ذلك الكتاب الذي يتلى بين اظهركم ويبين لكم الحلال والحرام والواجب والمباح وقصص الامم ويبعث على اعتناق الاخلاق الفاضلة الى غير ذلك مما تضمنه ، لا ريب ولا شك انه وارد من قبلنا على نبينا محمد ثم اورد علة وسبب نزوله وهو هداية المتقين به فقال (هدى للمتقين) ، فالهدى في الاصل مصدر وسمي به الكتاب العزيز مبالغة في الاهتداء به كأنه نفس الهدى ، والمتقين اسم فاعل من اتقى بمعنى تباعد عن الشر وهو عموم تقوى ما يجلب غضب الله ، وهو المعاصي ومعنى كون هذا الكتاب هاديا للمتقين انه كاف لهم في دلالتهم على ما يحتاجون اليه في سعادتهم لاشتماله على ما فيه خيرهم دنيا واخرى ، اذ الذين اتقوا ما يجلب لهم غضب الله غير مستغنين عن الهداية به استقبالا في بعض الكليات والجزئيات لاسيما ولم يخصص القرآن هؤلاء المتقين بكونهم الذين مارسوا الشريعة وعرفوا مقاصدها وما ترمي اليه ، بل ظاهره ان لفظ المتقين يشمل حتى من هو على مبادىء الاسلام الاولية كالعقيدة والصلاة والانفاق لوصفهم بذلك فيما بعد .

وقد كان هذا في اول الاسلام حيث كانت احكام الشريعة لا زالت لم تكمل ، اما مع كمال الدين ونزول جميع الاحكام فلا يوصف بالتقوى على الاطلاق ولا بالهداية الا من كان ممتثلا للاوامر كلها مجتنبا للنواهي كلها على قدر المستطاع ، كما قال الله تعالى : « فاتقوا ما استطعتم » اذ التقوى كما يؤخذ مما تقدم هو التباعد عن الشر ، ولا يكون الانسان مباعدا للشر في الشريعة وهو غير ممتثل لبعض اوامرها ونواهيها ، وكذلك لا يوصف الانسان بكونه متمكنا من الهدى حتى كأنه راكب عليه في قوله تعالى « اولئك على هدى من ربهم » وهو مجتنب لبعضه ، وقوله تعالى (يومنون بالغيب) فيه حذف الصفة ، اي يومنون بالغيب الوارد من قبلك من الله وصفاته وكمالاته وعن الملائكة والنبيئين والمرسلين على جميعهم الصلاة والسلام والكتب السماوية واليوم الآخر وما فيه من وعد ووعيد الى غير ذلك من الغيوب الواردة على الامة من قبل النبي صلى الله عليه وسلم .

اذ المقصود من بعثة الرسل هو تطهير النفوس من الادران وتهذيب الاخلاق وخلق ملكة الطاعة والانقياد في الامة الى الحق حتى لا يعتدي بعضنا على بعض ، والايمان بالله وما عطف عليه هو اصل هذا التطهير وما عطف عليه ، اذ الانسان الذي يعلم ان له الها عالما يراقب عليه اعماله ويحصيها عليه ثم يجازيه عليها في هذه الحياة او في الحياة الاخرى لاشك انه يتخذ الحيطة لنفسه منه فيتقرب اليه بتطهير نفسه وتهذيبها وتهذيب اخلاقها وامتثال اوامره واجتناب نواهيه حتى لا يقع في ورطة عقوبته .

واما قوله تعالى (والذين يومنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) فيحتمل ان يكون معطوفا على الذين يومنون بالغيب في الاية قبلها فيكونوا داخلين في زمرة من وصفهم الله بالتقوى قبل ذلك ، ويكون المعنى هدى للمتقين الذين يومنون بالغيب الخ . وهدى للمتقين الذين يومنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك ، وهم اهل الكتاب الداخلون في الاسلام ، وهذا التفصيل الوارد في هذه الآية الاخيرة انما هو على سبيل الاجمال في المدح فلا ينافي ان بعض الصحابة من غير اهل الكتاب كالخلفاء الراشدين افضل من اهل الكتاب الداخلين في الاسلام ، ثم يكون قوله تعالى : « اولائك على هدى من ربهم الخ » جملتين استينافيتين قصد بكل واحدة منهما مدح فريق من الفريقين وبيان درجته في الاسلام ، فقوله تعالى اولئك على هدى من ربهم الى الفريق الاول ، اي انه لتمكنه من الهدى واستيلائه عليه ولو اجمالا كأنه راكب عليه ، اذ على للفوقية والعلو ، وقوله تعالى (واولئك هم المفلحون) اشارة الى الفريق الثاني المفلح الظافر الفائز ، والاحتمال الثاني ان يكون الذين يومنون بما انزل اليك الخ . مبتدأ وخبره اولئك على هدى من ربهم الخ .

واما قوله تعالى (ان الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم ام لم تنذرهم لا يومنون) فالمراد بالكفر ها هنا جحد شريعة النبي عليه السلام فيدخل فيهم بنو اسرائيل الذين لا زالوا على دياناتهم ، اي سواء منهم آنذرتهم بالقرآن ام لم تنذرهم به لا يومنون لك وهذا الكلام في قوة الاستثناء المنقطع مما قبل ، وبيان لكون هذا القرآن رغما على ما فيه من وضوح الدلالة على الحق وعلى صدق من جاء به حتى كأنه الهدى نفسه او كان من تمسك به متمكن من الهداية وراكب عليها

ومتمسك بها لا يقتضي ان يهتدي به كل الناس لان من الناس من لا استعداد فيهم للهداية به لحيلولة الكفر وطبائعهم دون هدايتهم به ، وحينئذ فعيب عدم اهتدائهم به ليس له بل هو راجع لطبائعهم وتمكن الكفر منهم .

ثم بين هذه الحيلولة الواقعة دونهم ودون الهداية به بقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) اي ان قلوبهم التي هي المحل الطبيعي من الانسان لادراك الاشياء وما فيها من حسن وقبح ، وخير وشر ، وسعادة وشقاء مختوم عليها بخاتم الحرمان ، فلا يمكن للقرآن والحالة هذه دخوله فيها حتى يؤثر عليها تأثيره المعتاد منه ببيان منابع الاسلام ومحاسنه ثم زاد لهذه الحيلولة امرا آخر وهو قوله تعالى (وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة) تغشاهما وتحول دونهما ودون ما في القرآن من حجج ساطعة على احقيته وكونه من عند الله وان المبلغ له رسوله حقيقة .

ذلك ان العقل وحده قد يضل في النظر والاستدلال على الاشياء المطلوبة له او المطلوبة منه ، فيستعين بسمعه وبصره على ادراك حقيقة تلك الاشياء المطلوبة له او المطلوبة منه ، وها هنا لا يمكنه ان يستعين بهما عليها لانها في عداد قلوبهم اذ عليها غشاوة تحجبها عن رؤية الحق او سمعه وتأديته الى القلب ومن اجل ذلك فلا يدخل منها شيء اليه حتى يرشد ويهتدي به ، وقد شبه صرف قلوبهم عن التفكير في الاسلام وما فيه من حجج على وجود الله وصفاته وعلى رسالة النبي عليه السلام بالطبع على الشيء الذي يمنع ان يدخله او يخرج منه شيء ، وكذلك شبه صرف سمعهم وبصرهم عن الاستماع الى تلك الحجج او النظر اليها بقصد الذكرى والاعتبار بسدهما والطبع عليهما حتى لا ينفذ منهما شيء الى القلب ينتفع به في ادراك حقيقة الاسلام .

واما قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) فمعناه ان من الناس من يظهر منه الاسلام على لسانه وماهم بمؤمنين من قلوبهم وبواطنهم بل هم كافرون خفية وهذا هو الفريق الثالث الذي تقدمت الاشارة اليه فيما قبل وهو فريق المنافقين الذين يوجدون في الامم عادة عند اول نهضاتها وقيام ائمتها واولي الامر منها بالدعوة الى الاصلاح ورتق ما انفتق من شئونها .

فان هذا الفريق بما اوتي من حرمان الثبات وضعف البصيرة يقع في حيرة من امره ولا يتبين له الطريق الذي يسلكه ويذهب عليه هل القديم او الحديث وهو لا يدري ما الذي يقع عليه اختيار الامة فيثبت ويدوم ، هل القديم رعيا لقدمه وجريان عمل الناس عليه واستئناسهم به ؟ او الجديد رعيا لدعاته وتجمعهم في سبيله وبذل اموالهم وارواحهم عليه؟

فيتخذ طريقا وسطا بين المذهبين ينظر فيه النجاة لنفسه دنيا واخرى وهو مصانعته كلا من القديم والحديث ، وهذا الفريق ايضا من المستثنى المنقطع من قول الله السابق هدى للمتقين الخ، اي ان القرآن انما هو هدى للمتقين المؤمنين ايمانا حقيقيا الذين دلت افعالهم على ذلك الايمان من اقامة الصلاة الخ. لا للناس الذين يقولون بألسنتهم آمنا وما هم بمؤمنين حقيقة وقد دلت اقوالهم وافعالهم على عكس ما يظهرون .

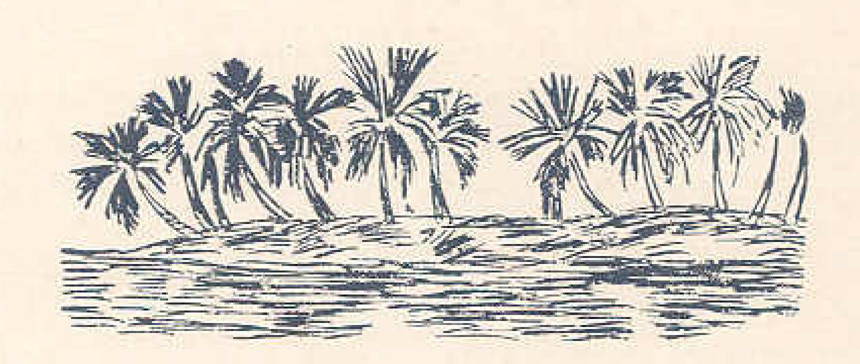
ولقد كشف علماء النفس والسياسة الحديثان ان الدعاية لدا الامم والدول من اكبر العوامل على كسب القلوب والتأثير عليها ايجابا وسلبا ، وانها قد تعمل ما لا تعمله السفارات ولا المؤتمرات ولا اعظم قوى حربية موجودة في العالم ، ولذلك تجد ساسة الدنيا الآن يعتمدون عليها ايما اعتماد في بلوغ مآربهم وكسب الصديق والعدو والمحالف والمخالف ، بل لقد خصصت لها الدول العظمى الان وزارة من وزاراتها او مصلحة من مصالح وزاراتها ثم اكتفت بذلك فتجد ارباب الصحف ووكالات الاخبار العالمية وهي اكبر عامل لنشر هذه الدعاية يقصدون البيت الابيض مثلا من امريكا ، او مكتب رئيس الوزارة بفرنسا او انجلترا او وزيري خارجيتهما لتلقي هذه الدعاية ونشرها في كافة المعمورة ، وكذلك راديو الحكومات دع عنك الحكومات في هذا السبيل ، فانك تجد الجمعيات والافراد شاعرين بما لهذه الدعاية من قوى ونفوذ على العموم ولذلك يعمدون اليها في ترويج اغراضهم وبضائعهم فينشرون رواجه على اعمدة الصحف ولسان الراديو وغيرهما .

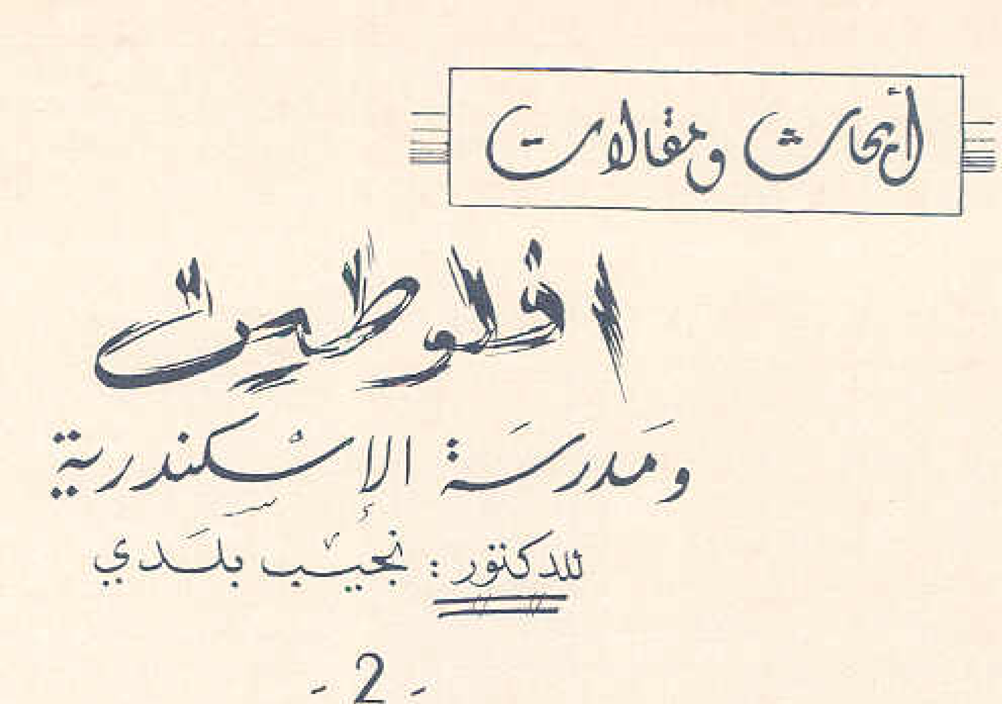
ولقد سبقهم الاسلام الى تقدير هذه الدعاية قدرها وتقرير فائدتها حتى كان من جملة ما روي عن النبي (ص) في قوله من جملة حديث (ونصرت بالرعب) وفي حديث آخر صحيح كذلك (لا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه) وهذه الايات الكريمة المتلوة ها هنا في حق المنافقين واليهود دعاية عظمى بنشر مثالبها واشهار مخازيها حتى لا يغتر الناس باقوالهما وافعالهما وطعنهما في الاسلام ومن جاء به لاسيما ما صدر من اليهود في حق نبيهم سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم ومواجهتهم له بسوء الادب والكلام القبيح كقولهم لن نؤمن بك حتى نرى الله جهرة وكقولهم له ايضا اتتخذنا هزوا ، وفي حق غيره من الانبياء كقتلهم بعضهم ، فكأن هذه الايات تقول للناس بعرض احوالهم واقوالهم : لا تستغربوا صدور ما صدر من اليهود في حق محمد عليه السلام فان الخلاف فيهم متأصل وسوء ادبهم مع الانبياء معهود وجرآتهم على الله في خلقه معلومة فانظروا ما صدر منهم مع انبيائهم موسى ومن بعده عليهم السلام الذين هم من دمهم ولحمهم فكيف لا يصدر منهم مثله او اشد مع نبيكم محمد عليه السلام الذي لا تربطه بهم رحم ولا صهر ولا غير ذلك ، ومصاهرته لهم على

صفية عليها السلام لعلها كانت بعد هذه الآيات ، على ان صهر صفية كان بعيد التأثير عليهم لانه لم يكن في خروجها من وسط قومها وانما كان بعد النبي لها وعزلها عنهم بذلك وقطع صلتها بهم .

ثم انه لشدة ضرر المنافقين على المومنين اكثر من غيرهم من الفرق لانهم يلابسونهم في كثير من الاحوال بصفتهم مسلمين فيطلعون بذلك على ظواهرهم وبواطنهم حيث يكون المومنون « آمنين مطمئنين من جهتهم غير حذرين من مكرهم لاعتقادهم انهم اخوانهم في الاسلام اذ ما كل المومنين كانوا يعلمون هوءلاء ويميزون اشخاصهم لشدة ضرر المنافقين على المومنين ، بما ذكرنا من الاسباب صورهم القرآن في تختلهم وغشهم وخداعهم لله وللمومنين باربع صور كل واحدة منها تقتضي التنفير منهم واستنكار اقوالهم وافعالهم واستبشاعها، الاولى ما تقدم من قوله تعولى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمومنين » ، الثانية قوله تعالى واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون ، الثالثة قوله تعالى : واذا قيل لهم امنوا كما آمن الناس قالوا : انومن كما آمن السفهاء ، الرابعة قوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم لخ. ثم ما اكتفى بهذا التصوير حتى ضرب لهم مثلين آخرين لزيادة بيان وايضاح احوالهم اذ التمثيل يصور الاشخاص والاحوال اكثر من غيره حتى كأنك تشاهد المثل بأم العين وتسمعه بالاذن فقال مثلهم كمثل الذي استوقد نارا لخ.

— يتبع —





عاش افلوطين سنوات نضجه الفكري والفلسفي في الجو الروحي الذي وصفناه في نهاية مقالنا السابق، في جو « مدرسة الاسكندرية » .

وان لم يكن من الثابت ان معلمه امونيوس كان من اتباع مذهب الهرامسة ، لكن تعاليمه اتخذت مثل تعاليمهم صفة التلقين والارشاد ، وكانت تعاليم مغلقة سرية . ان امونيوس كان يعلم الافلاطونية القديمة ، وكان يعمل في ذات الوقت على ان تتغلغل معاني تلك الفلسفة في نفوس تلاميذه ؛ كما كانت تتغلغل التعاليم الهرمسية في نفوس « مريديها » .

ولكن افلوطين لم يكتف لا بالتصوف الهرمسي الذي اتخذ كما راينا صفة السحر الروحاني ، ولا بالتعاليم الافلاطونية التي تلقاها من امونيوس ، بل جمع في روح جديدة هي فلسفته ، او هي بعبارة ادق المدخل الى فلسفته ، بين التصوف الهرمسي وبين الافلاطونية القديمة ، انه وضع التعاليم الافلاطونية في جو هرمسي اسكندراني ، كما فلسف التصوف الهرمسي بعقل افلاطوني .

وثمرة هذا التفلسف نظرية افلوطين في العالم المعقول . ولسنا نريد الدخول في تفاصيل هذه النظرية، وكيف اصبح التصور الافلاطوني القديم للمثل تصورا يختفي فيه التمايز المطلق بين العالم المحسوس والعالم المعقول ، فيظهر العالم المحسوس في صفاته وملامحه وحدها ، وتزول عنه علامات الجمود والمقاومة والانقسام ، كما يظهر العالم المعقول على هيئة كون متصل كل الاتصال ، منير يحسه العقل وينفعل به ، يتعقله الاحساس ويفهمه .

وقد كان من العوامل التي ادت الى نشأة مذهب افلوطين في العالم المعقول ، هذا التطور للفلسفة الافلاطونية ، الذي تم على يد مؤلفي « المجموعة الهرمسية » . وقد سجلنا (*) هذه الصفحة التي يصور فيها الهرامسة تحول العالم والانسان بدخول العامل الالهي فيهما . ولمثل هذه الصفحة اصداء عميقة في نفس افلاطون ، نتبينها في « تساعياته » ، وخاصة المقال الثامن من « التساعية الخامسة » .

ولكن افلوطين لم يقف عند اصداء الهرمسية ، كما لم يقف عند العالم المعقول ، بل جاوز العقل والمعقول الى ما فوقهما ، وجاوز بذلك « مدرسة الاسكندرية » الى مرحلة لم تعرفها تلك المدرسة . ارتقى من العقل والمعقول الى الاله ، والى « الواحد » .

ورأينا ان هذه المرحلة الجديدة ، قد نشأت تحت تأثير عوامل افلاطونية قديمة ، وعوامل غير افلاطونية حديثة ، لابد من الاشارة اليها .

فالهرامسة لم يعرفوا الطريق الى الاله ، والى الخير : فليس الاله او الخير موضوع معرفة او قدر كما تصوروا . انه موضوع اقوى الرغبات ، واعمق العواطف، موضوع الحب والمحبة. ان ما افتقر اليه رجال الاسكندرية في تصورهم للخير هو حب الخير ذاته .

* راجع مقالنا السابق في (دعوة الحق) ماي يونيه 1963 صفحة 46

وقد طالع افلوطين مع معلمه امونيوس محاورات « فيدون » و « المادبة » و « فايدروس » وتعلم منهـا طريقي الاماتة والمحبة اللازمين لبلوغ الخير ، وتعلـم هذين الطريقين ايضا بالممارسة والتجربة الشخصية . رجاوز في تصوره وممارسته هـذه الحب الافلاطونـي ذاته . صور لنا في عاطفة الحب شعور المحب التدريجي بان المحبوب الغائب يترك في نفس المحب فراغا يحاول ملأه بصور من خياله ، ويربط المحبـوب بتلك الصور ، ويغدق عليه ما يحمل خياله الشخصي من كمال ينزع اليه لم يجده في الانموذج الواقعي . هذا الى ان ينتهي بـه الامر الى تعرف ما يحتويه الحب الانساني ، ومـا يؤدي اليه من خلاء وفراغ في النفس لا يملؤهما كائن من الكائنات مهما تكن مرتبته ، بل لا يملؤهما تصور العالـم كله ، وما فيه من بهجة وكمال . والمحب في ذلك يجهـد نفسـه ما استطاع لتطهيرها ، لا من ادران البـدن ولا من الصور المحسوسة فحسب ، بل من الصور المعقولة ايضا ، غير مرتبط لا بكائـن ولا بمعقـول ، ولا بعلم او حكمة ، حتى اللحظة التـي يتعرف فيها ان رغبتـه وخياله وقدرته لا تصلح الا لتوسيع ما في نفسـه مـن خلاء وفراغ . واغـرب الامـر ان ذلك الفـراغ ، ذلك الشعور بالعدم الذي يورث النفس جزعا يعرفه المحبون وحدهم ، يتسع ويتوطد فيها كلمـا اشتدت العاطفـة تأججا ، وكلما تقدمت النفس في تطهير ذاتها وتصفيتها

وفجأة يحس المحب بحضور غريب لا مثيل لـه : ينسى عنده نفسـه وبدنه وكل شيء في العالم . ما هو ؟ ما نفسه ؟ هذا ما لا يباليه في الوقت الحاضر .

لحظة فرح عظيم لايضارعه اي فرح ، ولا تريـد النفس عنه بديلا . اذا منيت بحيازة العالم كلـه ، أو بحياة مؤبدة في نعيم الكائنات المعقولـة النورانية ، على ان تضحي بلحظة الفرح هذه ، لما ارادت التضحية بتلك اللحظة . نعم انها لحظة تماس ، تمضي كوميض البرق، وتترك في النفس بعدها فراغا ، اعظم مما كان فيها مـن قبل ، قد لاتطيق بعده الحياة ، لولا تذكرها تلك اللحظة وتمعنها فيما احتوته وتضمنته من دروس وحقائـق تجعلها تفهم كل شيء وتقدر كل شيء . انهـا تتذكـر اتحادها بكائن لا يمكن ان تقول عنه الا انه الخير كله ، وانه هو الذي تاقت اليه في اعماق حبها . ولا يمكن ان تتهم بخداع او توهم فيما راته واحسـت بـه في تلـك اللحظة التي عرفت عندها هذا الكائن ، ما دامت هـي مستعدة الى انكار كل شيء وذاتهـا في سبيـل اثبات ما راتـه ، وما احست بـه .

نعم لا يمكن ان تتهم بخداع او توهم ، ولا ان يقال ان شدة حبها من ناحية ، وان الجزع من خلاء ذاتها من ناحية اخرى ، قد ولدا فيها شعورا بحضور ، او يقينا باتحاد ، او ثقة بوجود كائن اسمى . انها لم تكن تتوقع شيئا مما راته ، ولم تكن تتنبأ به ، لكنها عرفت بعد ذلك انها دعيت خفية الى لقاء ، وان الداعي لم يخيب امالها.

هذه خلاصة تجربة افلوطين للحب والاتحاد بالاله، قيل انها تجددت له مرات اربع على الاقل اثناء حياته .

واضح اننـا لا نجـد شيئا يماثـل ذلك لا عنـد الهرامسة من ناحية ، ولا عند افلاطون نفسـه من ناحية اخرى ، وان افلوطين قد تقدم على الفلسفة الافلاطونية القديمة تقدما عظيما ، فافلوطين لم يتخذ تجربة الحب كما فعل افلاطون كمنهج يضاف الى مناهج اخـرى . غاية اتقان العلم ذاتـه سواء في صوره الرياضيـة او في صوره الفلسفية . ولم يقف الحب عند الجمال الـذي وقف عنده افلاطون . هذا لان الجمـال صفة العالـم المعقول ، وهو مخلوق مثل هذا العالم . انـه جـاوز الجمـال الى اصل الجمـال وخالقـه اي الى الخير ؛ ثم ان افلوطين لم يقف عند رؤية بعيدة للخير ، لـم يكتف بان يلمـح الخيـر . انـه بلـغ اتحـادا يفنـى المحب فيـه لحظـة اتحـاده .

وعلاوة على ذلك ، واهم من كل ذلك ، فافلوطين، قد اعتمد على تجربة الحب هـذه ليصور لنا طبيعـة الالـه بقدر ما يستطيع الانسان ذلك . فكان التصوف الافلوطيني اساس اللاهوت الافلوطيني .

وسؤالنا الآن هو : اذا كانت مدرسة الاسكندرية قد اعانت على تحويل الفلسفة الافلاطونية الى نظريـة جديدة في العالم المعقول والمثل ، فمـا الذي اعانه على الارتقاء فوق العالم المعقول ومكنه مـن الوصول الـى نظريـة جديدة للالـه .

قد اشرنا فيما سبق الى انه لا يمكن تفسير رحلته الى الشرق برغبته في تعلم فلسفات فـارس والهنـد ، كما ادعى فورفيريوس ، ولا يمكن ان نفسر تحوله عـن الافلاطونـية وعن الاسكندرانية بما تعلمه او بما رجا ان يتعلمه من تلك الفلسفات ، هذا لان رحلته كما ذكرنـا كانت قصيرة الامد ، ولم تجاوز حدود آسيا الصغرى، ولانه سافر الى الشرق لا لاجل الشرق بل لاقتفاء اثار الامبراطور في الشرق ، وانه لم ير بعد وفاة الامبراطور داعيا لان يبقى في تلك البلاد ، او الى السفـر الى مـا بعدها في الشرق او اقصى الشرق .

وانا نستغرب ان يحاول استاذنا المرحوم اميل برهييه في جزء غير صغير من كتابه عن افلوطين ان يشرح نظريات افلوطين في العقل وفي الاله على ضوء التجربة الصوفية الهندية ، وعلى ضوء بعض نصوص البراهمة وتصوفهم بوجه خاص . وتشير تلك النصوص الى وجود حالة ممتازة يرقى فيها المتامل الى حقيقة تنتفي عندها معالم العالمين المحسوس والمعقول . ويفقد التامل عندها صفاته الشخصية . **ولكنا نقول:** انه مهما يكن من تشابه بين هذه الحالة الممتازة وبين التجربة الصوفية الافلوطينية ، فملاحظة هذا التشابه لا تكفي على الاطلاق لتوضيح التجربة المذكورة ، سواء فيما تفترضه من اصول فلسفية ، أو فيما تؤدي اليه من نتائج لاهوتية سنشير اليها فورا . والمتفق عليه عند الذين درسوا البراهمة ان متصوفيهم يتنازلون عن العالمين المحسوس والمعقول منذ بداية الرحلة الصوفية، وان اتمام تلك الرحلة تؤيد نهائيا بقاء هذين العالمين خارج « الحقيقة المطلقة » **والامر على عكس ذلك** عند افلوطين الذي قرر حقيقة العالم المعقول وواقعيته الملموسة ، عند ما ارتقى بالعالم المحسوس ذاته الى مرتبة الفهم ، وحاول بالفعل تعرف ملامحه الخاصة . والذي بقي بعد التجربة الصوفية وبفضل التجربة الصوفية على اثبات حاسم للعالمين المحسوس والمعقول قائم على يقين لا تشوبه شائبة . ولا عجب في ذلك ، فالتجربة الصوفية تفترض ان يكون الاتحاد بين المتامل والاله التقاء ، والتقاء يتم عن دعوة الاله .

ويبقى بعد ذلك ان تجربة الحب التي مهد الى فهمها افلاطون ما كانت تؤتي نتائج فلسفية ذات اهمية، دون يقين شخصي بهذا الالتقاء بالاله ، وبدون محاولة عقلية لدراسة الاله ، محاولة تتايد بهذا اليقين الشخصي . ولكن ربما دخلت في هذه المحاولة العقلية ، وفي هذه الدراسة للاله ، عوامل خارجة عن افلاطون وعن الفلسفة وعن الاسكندرية ، عوامل لابد من الاشارة اليها .

يقوم اللاهوت الافلوطيني في مجموعتين من القضايا : احداهما سالبة والاخرى موجبة ، يمهد لهما التفكير الافلاطوني الفلسفي من ناحية ، والتجربة الصوفية من ناحية اخرى . اما القضايا السالبة ، فهي قائمة على اساس ان كل معرفة عقلية لا تنطبق الا على موضوعات العالم محسوسا أكان هذا العالم ، أم معقولا، وهذا لا لان تلك الموضوعات مخلوقة فحسب ، بل لان العقل ذاته حتى في اسمى مراتبه ، هو امر « واقع » فلا بد له من خالق ، او مبدا اسمى يصدر عنه .

ونتيجة ذلك انه لا يمكن ان نطلق على الاله كل مايسمح لنا العقل باطلاقه على العالم ، او على مثل هذا العالم ، او حتى على العقل ذاته . فالمبدا الاسمى لا يمكن ان يكون له موضوع ، كالعقل الذي يتعقل الموضوع ، فيصبح مضافا الى هذا الموضوع . ولا يمكن ان يكون لهذا المبدا حد أو تعريف او اسم أو ماهية او صفة او تعيين . ولا يمكن ان يقال عنه انه جوهر او شخصية او فكر . بل لا يمكن ان نقول عنه انه موجود ، ما دام كل ما ليس « هو » موجودا ، وما دام كل ما صدر عنه موجودا وما دامت نسبة الوجود اليه تجعله بمعزل عن هذا الوجود ، وتعطينا ثنائية ــ هو والوجود ــ بدلا من وحدة مطلقة . بل لا يمكن ان يقال عنه انه واحد ، هذا لان الوحدة تنسب الى الكائنات ، وان نسبتها اليه هو لاتقوم على قضية موجبة ــ صريحة أكانت ام مستترة ــ بل على قضية سالبة ، فالواحد ليس الكثير ، بدليل اطلاق الفيثاغوريين على الاله اسم «ابولون» Apollon اي الذي لم يكن كثيرا .

ولكن ان تمعنا في تلك القضايا السالبة وجدنا ان اساسها بالرغم من كل شيء قضية موجبة ، تثبت وجود مبدا اسمي يفسر العالم المعقول والعقل ذاته .

اما ان نظرنا الى التجربة الصوفية وكيفية افادة افلوطين منها ، وجدنا في بداية الامر انها هي ايضا تؤدي الى مواقف سلب ، ربما كانت ابعد خطرا من المواقف الفلسفية السابقة . فالتجربة الصوفية تفقدنا حتى القدرة ، على التلفظ باي قضية ، في ساعة وقوعها . ثم هي تؤدي بنا بعد ذلك الى ان نعتبر كل كلمة تطلق على الاله غير مطابقة ، ما عدا الاشارة اليه بالضمير « هو » ، فهذا الضمير يدل في صورته المختصرة على الغائب ، وعلى ان الاله الذي حضر غائب ، ويبقى غائبا.

غير ان الاتحاد امر لاشك فيه عند المتحد ، وهو ذاته يقين اول ، وهذا اليقين الاول يسبغ على مواقفنا كلها بصدد الاله حتى المواقف السالبة المذكورة ، قيمة ايجابية عظمى . فالاساس الذي ذكرناه اي القضية التي تثبت وجود مبدا اسمى للعالم والعقل ، هذا الاساس يكتسب بفضل التجربة الصوفية قوة عظمى لم تكن له من قبل . ويؤدي بنا التمعن في تلك التجربة الى ان تقرر ان كل يقين ، او كل حقيقة كنا حائزين لها لم تضعف بتلك التجربة بل تايدت بها وتوطدت : هذا لانها تعلمنا بان صلة الاله بالمخلوق ليست صلة خارجية ، بل صلة باطنية عميقة ، وبان الاله يؤثر فينا وفي العالم كله ، ويقيم فكرنا والعالم كله ، « من الباطن وفي الاعماق » كما يقول فلوطين (18 / 8 ٧)

ويؤدي بنا التمعن الى ان نقرر ايضا اننا كنا متهيئين لها قادرين عليها ، وان في طبيعتنا شيئا من الاله الذي قدرنا على هذا اللقاء وذلك الاتحاد ، وان الاله « الغائب » ليس غائبا بالفعل ، بل اننا نحن الذين كنا غائبين عنه ، او نائمين . ان الاله قديم فينا وفي العالم ، وان تفكيرنا الفلسفي يبلغ الوجود والحقيقة المطلقة عن العالمين المعقول والمحسوس ، لانه تفكير في الاله ، وهو تفكير في الاله لان الاله ذاته في اساس هذا التفكير ومصاحب لهذا التفكير .

يبدو اذن ان افلوطين لا يقف عند لاهوت سلبي، وانه يحاول على اساس التجربة الصوفية ان يعطينا لاهوتا ايجابيا . والسؤال الذي يجب وضعه هنا هو: وكيف يكون هناك وصف ايجابي للاله على اساس التجربة الصوفية ، ما دامت تلك التجربة تحرمنا من الكلام عن الاله في ذاته ؟ يقول افلوطين انه لابد من ان نعتمد في محاولتنا الايجابية هذه على استعارات وتشبيهات (VI 8 ، 13) وتستمد تلك الاستعارات والتشبيهات قيمتها من يقين التجربة الصوفية ومن هذا الاساس الايجابي الذي ذكرناه ، اي اثبات وجود مبدا اسمى يفسر العالم والعقل ، هذا الاساس الذي اكتسب قوة عظمى بفضل التجربة الصوفية .

استخدم اذن افلوطين منهجا سلبيا في اللاهوت، ثم استخدم منهج المماثلة والتشكيك ، اي اعتمد ، بعد التنزيه ، على التشبيه .

وما مصدر التشبيه ؟ ما هذا الشبه للاله ؟ ما تلك الصورة ؟ ما ذلك الرمز للاله الذي مكننا ، بعد التجربة ، من الكلام عن الاله ووصفه ؟ .

للاجابة على هذا السؤال ، يجب ان نعود مرة جديدة الى تلك الدوافع التي قادت افلوطين الى اقتفاء آثار الامبراطور الروماني جورديان ، ثم الى الاستقرار في روما ، وتاسيس مدرسته الفلسفية فيها ، بعد فشل الامبراطور جورديان . والدوافع في كلتا الحالتين — ترك الاسكندرية الى الشرق ، والاستقرار في روما — واحدة ، وهي متصلة الى حد ما بشعور افلوطين بالقلق اثناء حياته بالاسكندرية ، وذلك بعد ما لاحظ من تقلقل في الحالة السياسية وتعرض البلاد الى الغزو . شعور لابد قد منعه من التفكير في انشاء مدرسة فلسفية لها آثارها في حياة الافراد والمجتمع . ولا يبعد ان يكون هذا الشعور قد ادى به الى التفكير في روما لتكون مركز تلك المدرسة . ولكنا نعتقد ان تلك الدوافع متصلة اتصالا اشد بامبراطور روما نفسه . فاننا نرى افلوطين رغم خيبة امله من جورديان في آسيا ، يذهب مباشرة الى روما دون المرور بالاسكندرية ويفتح فيها مدرسة ويبدا تعليما . ثم يجيء بعد ذلك ، لاستماع دروسه في تلك المدرسة ، الامبراطور جاليان نفسه ، الذي كان حاكما في ذلك الوقت . ويبدا افلوطين يركن بعد ذلك الى هذا الامبراطور في شان انشاء « مدينة فاضلة » على غرار « جمهورية افلاطون » يعيش فيها مع تلاميذه ومع سكان المناطق المجاورة .

ولسنا نريد الدخول هنا في الكلام عن جاليان ، وعن الاعمال والاصلاحات التي قام بها او شرع فيها(*) ولا شك في ان افلوطين عرف شيئا عن تلك الاصلاحات، مما شجعه على المضي في تعليمه الفلسفي ، وعلى التفكير في مشروع مثل مشروع « المدينة الفاضلة » . ولكنا نذهب ابعد من ذلك ، ونفترض انه راى في شخص جاليان — بعد خيبة امله في جورديان — قوة نموذجية ، كان في اشد الحاجة اليها ، وكانت غائبة من حوله ، وذلك منذ صغره ، بل نفترض فوق ذلك ، ان فكرة « الملك » او الامبراطور هي فكرة لانموذج بشري كما يقول يونج (Yung) او هي فكرة للشبه الذي كان يبحث عنه افلوطين لتوطيد نظريته في الاله .

ولا بد من ان نتساءل مرة اخرى : ولماذا بحث افلوطين عن نموذج بشري للاله ؟ ولماذا اخذ هذا النموذج ، في خيال افلوطين ، صورة الملك او الامبراطور؟ ما السبب السيكولوجي الذي جعله يبحث عن هذا النموذج ويرضى بتلك الصورة ؟ .

لا نستطيع هنا الا ان نضع على اساس ما ذكرناه في البداية (*) ، افتراضا يتايد نظريا على الاقل (*) ، يرضى افلوطين عن وصفه للاله ، في ضوء

---

* راجع في هذا الموضوع مقالات ليون هومو الشهيرة في الامبراطور جاليان وازمة الامبراطورية الرومانية ، في « المجلة التاريخية » 1913 .

* راجع (دعوة الحق) ماي يونيو 1963 صفحة 42

* واضح ان منهج علم النفس التحليلي لايمكن ان يكون استنباطا في تاريخ الفلسفة ما دام (التحقيق) في هذا المنهج يقوم على ملاحظة فعلية للتطور السيكولوجي للانسان الحي .

« النموذج الملكي » ـ وافتراضنا هو ان افلوطين شعر منذ صغره بغياب معين ، كان له اشد التأثير في نفسه وحياته وتفكيره ؛ نقصد غياب الأب ، أو على الاقل غياب سلطة الاب . واعتقادنا ان حادث المرضعة وكشفه عن ثديها حتى سن الثامنة ، كان من علائم انعدام تلك السلطة وضعفها من حوله . لذلك كان تعلقه شديدا بامونيوس ، عندما التقى به في الاسكندرية ، وهو شاب في الثامنة والعشرين ، ووفاؤه لذلك المعلم وفاء خالصا طويلا ، رغم حنث رفاقه بالوعد الذي قطعوه على انفسهم بان يحتفظوا بتعليم امونيوس سريا ، ورأينا فوق ذلك ان تأخره بالاسكندرية ، وتأخره بالتالي عن انشاء مدرسته الفلسفية ، انما هما من علائم مراهقة طويلة ، وان تركه للاسكندرية ورحلته الى الشرق ثم الى الغرب ، واستقراره بروما ؛ ان كل ذلك من علامات نقطة نهائية وارادة حاسمة لتحقيق مشروع كامل كان في نفسه . وعاقته مختلف الاحداث القديمة والجديدة، الشخصية والسياسية والتاريخية .

هذا هو افتراضنا ، ويمكننا ان نعرض الى وصف الاله ، كما يتبين من بعض أهم نصوص المقال الثامن للتساعيات السادسة .

في عنوان الكتاب « ارادة الواحد وحريته » اشارة واضحة الى صفة القدرة الالهية الكاملة ، تلك الصفة التي يتم بها تعينه ، والتي يعين بمقتضاها مرتبة الكائنات كلها وطبيعتها ووجودها .

ان الاله واحد ، اي لاينقصه التعين ، لا التعين بالحد او بالماهية ، بل التعين بالاستقلال والانفراد الكاملين ، انه في انفراد وانعزال كامل عما ليس هو .

انه ملك اذن ، لان القدرة التي تتمثل في هذا الانفراد المطلق هي ما تجعله يظهر او لا يظهر للكائنات حسب مشيئته ، انه هو الذي يختار وقت ومناسبة ظهوره ، وصفة ذلك الظهور ، كما يقول افلوطين في الفصل التاسع من « المقال المذكور » . هو الملك ، يقولها افلوطين ، اكثر من مرة (12 ، 5 V) 3 ، 5 V) لا ملك صدفة او اتفاق ، بل ملك ارادته واختياره ومالكهما . فالملك ذاته هو الذي يقرر الظهور ، لا الشعب ولا رغبات الشعب . ومن ناحية اخرى يكون ظهوره في موكب ، وحسب نظام وترتيب محكمين ، يتقدم الموكب الحراس فالحاشية فاقرب المقربين الى الملك ، وفجاة يظهر الملك . وعلامة المفاجاة هذه ان كثيرا من المتفرجين على الموكب يرحلون قبل ظهور الملك ذاته ، مكتفين برؤية حاشيته او المقربين اليه ، رمزا لهؤلاء الذين يكتفون في التامل بأبهى الاشياء في العالم المحسوس كالكواكب مثلا ، أو رمزا لهؤلاء الذين يكتفون بتامل المثل والمعقولات . وهناك من المتفرجين من يتوقف حتى ظهور الشخص السابق على الملك ،سواء اكان اميرا من الامراء او ابن الملك ذاته ، رمزا لهؤلاء الذين يتاملون الملك في الجمال الكامل ، او لهؤلاء الذين يقفون في تفلسفهم عند العقل الالهي ، كالاسكندريين مثلا

وتتضح علامة المفاجاة هذه في تشبيه عظيم يقوم به افلوطين في الفصل الخامس والثلاثين من الكتاب السابع للتساعية السادسة ، حيث يتكلم عن شخص دعي لزيارة منزل انيق ، فاخذه العجب بكل ما فيه من اثاث وزخرف وصور وتماثيل ؛ بلغت غاية الجمال . ولكن الباب يفتح فجاة على صاحب الدار ، وللتو يترك الزائر كل ما كان ينظر فيه ، ويهرع للقاء صاحب الدار.

يظهر الملك اذن دون سبق اعلان . يتساءل افلوطين: وما الذي يقوله عندئذ ، هذا الذي اسعده الحظ بالانتظار حتى النهاية ؟ ما الذي يقوله ؟ لا شيء . يقف واجما ، لانه لم يعد هناك شيء جدير بالانتظار . وما الذي رآه ؟ اشياء لا توصف بلغة بشرية .

ما الاله ؟ انه ليس شيئا ينظر ، انه يظهر في تلك اللحظة التي تتوقف عندها قدرتنا الشخصية على النظر ، اي على التصويب الدقيق والرؤية المحددة .

فالاله ذاته هو النظرة ، نظرة مستمرة (16 ، 8 VI) لا نظرة كائن منشغل بما يراه ، ولا يقظة كائن منزعج على امور لم تحدث بعد . ان الاله نظرة ويقظة فحسب، وبمقتضاها تتم التعيينات والاحداث .

والاله امر (8،20 VI) : لا انـه يامـر الاخرين فيطيعوه ولا يامر نفسه بالقيام بافعال ، انـه مجـرد الامر وبالامر تتم الاشياء .

انه الحرية المطلقة ، انه الفرصة
والفارق بين الفرصة والمناسبة ، ان المناسبة تفترض الاتفاقات ، فهي من علامات حرية ناقصة كالحرية الانسانية ، اما الفرصة ففيها علامات القدرة والحرية المطلقتيـن (※) .

خـاتمـة :

نختتم هذه الدراسـة المختصـرة بالعـودة الى السـؤال الرئيسي الذي وضعناه فى البداية : وما علاقة افلوطين بمدرسة الاسكندرية ؟

فى الاجابـة على هـذا السؤال ، يجب الا ننسى المعنى الذي يجب اعطاؤه للعبارة «مدرسة الاسكندرية»: انها لم تكن مدرسـة فلسـفية بالمعنى المفهوم ، بل كانت نزعة عقلية شاعت فى مدينة الاسكندرية منـذ بداية العهد الميلادي ، وقوام هذه النزعة توجيـه الفلسـفة بوجه عام ، والفلسـفة الافلاطونية بوجه خاص ، نحـو خلاص النفس ومعرفة الاله ، والاتحـاد بـه اتحـادا يحقق هذا الخلاص . وقد مثل الهرامسة هذه النزعة تمثيلا واضحا فى نهاية القرن الميلادي الثاني ، وجـاء امونيوس معلم افلوطين فى هذا الوقت تقريبا ليحيـي الفلسفة الافلاطونية القديمة ، فى جو سكندري هرمسي، بدليل سرية التعليم ، وهذا القسم الذي اشرنا اليـه فيما مضـى .

وقد راينا افلوطين مدينا لهذا التعليم ولهذا الجو الروحي الاسكندري بما عملـه لتحويـل النظريـات الافلاطونية القديمة وخاصة نظرية العالم المعقول . انـه مدين للاسكندرية وللهرامسـة بوصـفـه للعالـم المعقول. هذا الوصف الذي يظهر فيه العالم المعقـول فى صورة تكاد تجعله محسوسا ملموسا .

هذا هو ميراث الاسـكندرية ، اخذه معه افلوطين فى رحلته الى الشرق . ولا نظن هذا الميراث قد تغير فى جوهره اثناء تلك الرحلة ، او ان افلوطين قد اضـاف اليه جديدا اكتسـبه كما قيل من ديانات الشرق . وقد كيف افلوطين هذا الميراث العقلي باسلوبه الرائـع فى التعبير عن العالم المعقول (راجع بوجه خاص الفصلين الخامس والتاسـع مـن المقـال الثامـن التساعيات الخامسة) .

ونقول انه اذا كان افلوطين قد وقف فى فلسـفتـه عند هذا الميراث العقلي مكتفيا بصياغة شخصية رائعة لهذا الميراث ، لاستحق ان يكون فيلسوفا اسكندرانيا ، بل لصح ايضا ان نطلـق عليه لقب زعيـم « مدرسـة الاسكندريـة » .

ولكن هذا الافتراض غير صحيح لاننا نعلـم ان افلوطين قد جاوز الاسكندرية وتعاليمها ، وجـاوز الفلسـفة الافلاطونية كما كانت تعلم بالاسكندرية . وقد راينا معالم فلسفة افلوطين فى موضوع الاله ، وكيـف كان انشاء هذه الفلسـفة واسلوب التعبير عنها مرتبطين بفكرة الامبراطور الروماني ، بحيث يمكن القول ان فكرة الامبراطور كانت مناسبة لتطبيق منهج التماثل فى العلم الالهي ، بل ربما امكن ان نقول ان هذه الفكـرة اعطت افلوطين نموذجا واقعيا ، اعانه على وصف الاله ، وعلى التعبير عن التجربة الصوفية ، وخاصة عن تلك اللحظة التي لا يمكن التعبير عنها فى حقيقة الامر ، وعلى وجـه مباشر ، عن لحظة الاتحـاد .

※ تطلق كلمة « الفرصة » فى الكتاب المقـدس ، على اليوم الذي يختاره الاله للظهور والتجلي « اما ذلك اليوم وتلك السـاعة ، فلا يعلمهما احد ، ولا ملائكة السموات . » متى 24 : 36 »
« اما عن الازمنة والاوقات ، فليست هناك ضرورة ما لان يكتب لكم عنها . » الرسـالـة الاولى لاهـل تسـالونيقية 5 : 2 »
« ناموا الآن واستريحوا لقد قضى الامر واتت السـاعـة » مرقس : 41 ، 14
وفى هذا المعنى يمكن الرجوع الى الآية الاولى من « سـورة القمـر » :
(اقتربت السـاعة وانشق القمـر) .

ولكنه يبقى بعد ذلك ان افلوطين كان ، بالرغم من كل شيء ، فيلسوفا اسكندرانيا ، لا بالطبع من حيث انه تزعم او أسس مدرسة فلسفية بالاسكندرية ، ولا من حيث انه بقي تلميذا روحيا مخلصا لما سميناه « مدرسة الاسكندرية » ولكنه كان فيلسوفا اسكندرانيا ، من حيث ان الهامه الاساسي يرجع الى الاسكندر نفسه ، مؤسس مدينة الاسكندرية ، والمسؤول في نهاية الامر عن نشأة فكر اسكندراني ، كما اشرنا الى ذلك في كتاب سابق (*) .

وقد ياخذ منا شرح هذه القضايا ماخذا طويلا ، نتغافل عنه في هذه الدراسة المختصرة . ولكن يكفينا ان نسجل من ناحية ان نموذج (الامبراطور) كما تمثل لافلوطين هو احياء لفكرة الحاكم العالمي التي الهمت الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد ، كما بين ذلك اواريخ وبلكن ، من اكبر مؤرخي الاسكندر في العصر الحاضر . ويكفينا ان نسجل من ناحية اخرى ، ان الاسكندر لم يكن حاكما أو قائدا ، او محاربا فحسب ، بل كان (مريدا) بمعنى اشرنا اليه في كتابنا السابق هذا : مريدا لاله الشمس والسماء ، هذا الذي كان يستلهمه الأسكندر في بداية مشروعاته وفتوحاته ؛ وان رحلات الاسكندر وتنقلاته المستمرة لم تكن في حقيقة الامر الا مظاهر لشخصيته كمريد ، بل ان هذه التنقلات التي لم تتوقف الا بموت الاسكندر ، هي دلائل على ان الاسكندر كان « مريدا » قلقا ، لم يبلغ مرماه .

وقد كان افلوطين مريدا فلسفيا لامونيوس بالاسكندرية . اما وقد وجد شيئا من الاستقرار بجوار العاهل الروماني ، فالاغلب ان هذا الاستقرار كان ذاته رمزا الى استقرار اعمق واقوى ، الى استقرار النفس بجوار الاله القدرة والمجد ، هذا الاله الذي صوره افلوطين تصويرا رائعا في « التاسوعات الساسة والاخيرة » . وعلى ذلك ، فيصح ان نقول انه بهذا الاستقرار النهائي ، قد ختم مطاف « المريدين » الاسكندرانيين السابقين ، وعلى رأسهم امامهم الاسكندر ، مؤسس الاسكندرية والملهم الاول لمدرستها .

الرباط — الدكتور نجيب بلدي

(*) « تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها » دار المعارف بالقاهرة 1962 .



نظرات حول كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

للأستاذ : محمد بن عبد العزيز الدباغ

-3-

المقالة الاولى (*) في بيان ما يحتاج اليه كاتب الانشاء من المواد

قدم الينا المؤلف في المقدمة اختصاصات الكاتب وما يتصرف فيه من اعمال واظهر لنا في هاته المقالة الحصانة الثقافية التي يجب ان يرتكز عليها في القيام بمهمته ، وقد قسمها الى بابين : فخص الباب الاول لما يحتاج اليه الكاتب من الامور العلمية والباب الثاني لما يحتاج اليه من الامور العملية ، وعادة المؤلف في كتابه انه يحدد موضوعه ويحصره في اجزاء مخصوصة حتى يسهل على القارىء استرجاع ما درسه كلما اراد ذلك وبهاته الطريقة جعل كتابه جامعا بين الموسوعية العلمية وبين المنهاج التعليمي الذي ييسر للقارىء المعرفة عن طرق منظمة تستدرج به من المقدمات الى النتائج .

ووفقا لمنهاجه فقد قسم الباب الاول الى فصول ثلاثة :

الفصل الاول فيما يحتاج اليه الكاتب على سبيل الاجمال .

الفصل الثاني فيما يحتاج اليه من مواد .

الفصل الثالث فيما يحتاج اليه من معرفة الازمنة والاوقات .

أما الفصل الاول : فلم يأخذ من كتابه الا جزءا يسيرا فهو قد تحدث فيه عما يجب على الكاتب أن يعلمه من المواد العلمية العامة ، ونقل الينا نظريتين مختلفتين احداهما ترى بان الكاتب لا يحتاج من المواد الا الخط واللغة والبلاغة والعلم بترتيب اعمال الدواوين وهي التي سار عليها ابو جعفر النحاس في كتابه (صناعة الكتاب) ، وأما الثانية فهي تلزم الكاتب بالاطلاع على مختلف العلوم ولا تفرق بين المواد اللغوية والانشائية وبين المواد العلمية ، وهي نظرية ابن قتيبة في كتاب (ادب الكتاب) وتبعه عليها ابو هلال العسكري في كتاب (الصناعتين) .

ولم يكتف القلقشندي بعرض الرايين دون أن يبدي رايه الخاص فذكر بان الحاجة الى العلوم تختلف باختلاف الكتابة بحسب تنوعها (فكل نوع من انواعها يحتاج الى معرفة فن او فنون تختص به) .

واما الفصل الثاني : المتعلق بمعرفة مواد الانشاء فقد قسمه الى اطراف ثلاثة (*) فجعل الطرف الاول لما يحتاج اليه الكاتب من الادوات ، والطرف الثاني لما يحتاج الى وصفه من اصناف الكتابة ، والطرف الثالث لصنعة الكلام ومعرفة كيفية انشائه ونظمه .

أما ما يحتاج اليه الكاتب من الادوات فذكر تسعة عشر نوعا :

النوع الاول : المعرفة باللغة العربية ليستعين بها على التعبير الصحيح وليجعلها قالبا للمعاني التي تختلج في نفسه ، وذكر بان الكاتب يحتاج من اللغة الى الغريب ليستكشف به المعاني المختلفة من اشعار العرب وخطبهم ويتوصل الى معرفة بعض آي القرءان ، ويحتاج ايضا الى معرفة المتباين والمترادف والحقيقة والمجاز والالفاظ المتضادة وتسمية المتضادين باسم واحد والمقصور والممدود والمذكر والمؤنث والمهموز وغيره ، وما ورد من كلام العرب مزدوجا وما ورد من كلامهم مثنى على سبيل التغليب او على سبيل الحقيقة ، وما ورد من كلامهم مرتبا وما ورد مورد الدعاء وما

---

* كتب المؤلف هاته المقالة في اكثر من الف صفحة : ج 1 من ص 140 الى 480 ، و ج 2 كله ، وفيه 488 ص ، و ج 3 من اوله الى ص 227 .

* قال المؤلف في مقدمة هذا الفصل : (وفيه طرفات) ولكنه عند التحليل ذكر ثلاثة .

تختلف اسماؤه مع المشابهة فى المعنى ، وما تختلف اسماؤه واوصافه باختلاف احواله ومعرفة الاصول التي تشتق منها الاسماء ، وما نظمت به العجم على وفق لغة العرب وما اضطر العرب الى تعريبه وقدم لكل ما مضى امثلة مقتبسة من كتب اللغة العامة فاعتمد على فقه اللغة للثعالبي وادب الكاتب لابي جعفر النحاس وكنز الكتاب لكشاجم ، وكفاية المتحفظ لابن الاجدابي والمذهبة والمعقبة لابن اصبغ

كما ذكر ايضا بان الكاتب فى حاجة الى معرفة الفصيح وهو الذي روي عن العرب الذين سلمت لغتهم من التأثر بلغة الاعاجم لانهم كانوا بعداء عن الحدود كما يجب عليه ان يطلع على ما تلحن فيه العامة وتخرجه عن موضعه ليجتنبه فى كتابته ؛ ويجب عليه ايضا أن يلم بالالفاظ الكتابية التي اصطلح الكتاب على استعمالها لخفتها ورشاقتها وسلاستها وسلامتها من التعقيد والغرابة ؛ وقد وصف الجاحظ هاته الالفاظ فقال : (ما رايت أمثل طريقة من هؤلاء الكتاب فانهم التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا ولا حوشيا ولا ساقطا سوقيا) . ومثل المؤلف لذلك فقال كقولهم فى اصلاح الفاسد : اصلح الفاسد ، ولم الشعث ، وراب الشعب ، وضم النشر ، ورم الرث ، وجمع الشتات ، وجبر الكسر ، واسا الكلم ، ورفع الخرق ، ورتق الفتق وشعب الصدع ، ثم قال وفى كتاب الالفاظ لعبد الرحمن بن عيسى الكاتب كفاية من ذلك .

النوع الثاني : المعرفة باللغة العجمية ليستطيع أن يترجم لملكه بعض المكاتبات الخاصة التي ترد عليه من ملوك العجم ، وذكر بان الضرورة قد تدعو الكاتب الى ان يتعلم اللغة التي يحسنها ملكه ليلقي الحظوة والجاه عنده ، (فان الشخص يميل الى من يخاطبه بلسانه لا سيما اذا كان من غير جنسه ، كما تقبل نفوس ملوك الديار المصرية وامرائها وجندها لمن يتكلم بالتركية من العلماء والكتاب ومن فى معناهم على ما هو معلوم مشاهد) .

النوع الثالث : المعرفة بالنحو ليتعود على النطق الصحيح ويسلم من اللحن فى كتابته وقوله .

النوع الرابع : التصريف ليعرف اصل الكلمة وزيادتها وحذفها وابدالها فيتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة اليها وغير ذلك .

النوع الخامس : المعرفة بعلوم المعاني والبيان والبديع لتقوي ملكته ويسلم ذوقه ويحسن تعبيره فان الذي لا يطلع على هاته العلوم لا يميز بين الجميل وغيره ، ولا يستطيع ان يدل على مواطن الاستحسان فى الكلام ولا ان ينشيء ما ترنو اليه الاعين او تشتاقه الاذان .

النوع السادس : حفظ كتاب الله تعالى للاستدلال به كلما احتاج اليه ، وقد اختلف فى جواز الاستشهاد بالقرآن الكريم فى المكاتبات ونحوها ؛ فذهب اكثر العلماء الى جواز ذلك ما لم يحد عن لفظه ولم تتغير معناه ، وقد ذكر المكاتبات المشتملة على ذلك فكانت نماذج ادبية وتاريخية لا تخلو من فائدة .

النوع السابع : الاستكثار من حفظ الاحاديث النبوية وقد ذكر ابن قتيبة فى ادب الكاتب ان الاحاديث التي ينبغي للكاتب حفظها الاحاديث المتعلقة بالفقه واحكامه كقوله : (ص) (البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه ؛ والخراج بالضمان وجرح العجماء جبار ، ولا يغلق الرهن ، والمنحة مردودة ، والعارية مؤداة ، والزعيم غارم ، ولا وصية لوارث ، ولا قطع فى ثمر ولا كثر ، ولا قود الا بحديدة ، والمراة تعاقل الرجل الى ثلث ديتها ، ولا تعقل العاقلة عمدا ولا عبدا ولا صلحا ولا اعترافا ، ولا طلاق فى اغلاق ... الخ) .

ولكن القلقشندي ذكر بان الاقتصار على احاديث الاحكام ليس بظاهر بل يجب على الكاتب ان يحفظ احاديث الحكم والامثال والسير ونقل الينا عن ابن الاثير ان اول ما ينبغي حفظه من الاخبار ما تضمنه كتاب الشهاب فى المواعظ والاداب للقضاعي .

النوع الثامن : الاكثار من حفظ كلام البلغاء والتفنن فى اساليب الخطباء ، وذكر نماذج مختلفة تتنوع اساليبها ومواضيعها وصورها منها قول خالد بن عبد الله أمير البصرة : « ايها الناس نافسوا فى المكارم ، وسارعوا الى المغانم ، واشروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل ذما ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لاحد منكم عند احد نعمة فلم يبلغ شكرها فالله احسن لها جزاء واجزل عليها عطاء ، واعلموا ان حوائج الناس اليكم نعمة من الله عليكم فلا تملوا النعم فتحولوها نقما ، واعلموا ان افضل المال ما اكسب اجرا ، واورث ذكرا ، ولو رايتم المعروف رجلا رايتموه

حسنا جميلا يسر الناظرين ، ولو رايتم البخل رجلا رايتموه مشوها قبيحا تنفر عنه الابصار ، ايها الناس ان اجود الناس من اعطى من لا يرجوه ، واعظم الناس عفوا من عفا عن قدرة ، وأوصل الناس من وصل من قطعه ، ومن لم يطب حرثه لم يزك نبته ، والاصول عن مغارسها تنمو وباصولها تسمو ، اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ... »

النوع التاسع : حفظ جانب جيد من مكاتبات الصدر الاول ومحاوراتهم والنظر فى رسائل المتقدمين ليستفيد من كل ذلك تنوع الاساليب فيقلد المستحسن منها ويبتعد عما عجن . وقدم الينا انواعا شتى تدل على حسن ذوقه وكثرة عنايته بهذا الجانب التطبيقي فى كتابه ، فهو يعتمد دائما ان يردف النظريات بالامثلة حتى لا يكون كتابه قاصرا أو ضعيفا ، ومن الامثلة التي ذكر قوله (*) : (ومن ذلك ما روي ان معاوية حج ، فسال عن امراة من بني كنانة كانت تنزل الحجون يقال لها الدارمية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم فاخبر بسلامتها ، فجيء بها ، فقال : ما حالك يا ابنة حام ؟ قالت لست لحام ادعى ان عبتني انا امراة من بني كنانة ، قال صدقت ــ لم ارسلت اليك ؟ قالت لا يعلم الغيب الا الله ، قال بعثت اليك لاسالك علام احببت عليا وابغضتيني (*) وواليتيه وعاديتيني ، قالت : او تعفيني يا امير المؤمنين ، قال : لا اعفيك ، قالت: اما اذا ابيت ، فاني احببت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وابغضتك على قتالك من هو اولى بالامر منك ، وطلبك ما ليس لك بحق ، وواليت عليا على ما عقد له من الولاية وعلى حبه المساكين ، واعظامه لاهل الدين ، وعاديتك على سفك الدماء ، وجورك في القضاء وحكمك بالهوى ، قال : ولذلك انتفخ بطنك وعظم تدياك وربت عجيزتك ، قالت : يا هذا بهند كانت تضرب الامثال لابي ، قال : يا هذه اربعي فانا لم نقل الا خيرا ، انه اذا انتفخ بطن المراة تم خلق ولدها ، واذا عظم ثديها تروي رضيعها ، واذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها فرجعت وسكنت ــ قال لها : فهل رايت عليا؟ قالت : لقد كنت رأيته ، قال : كيف رايته ؟ قالت : رايته لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك ــ قال لها : سمعت كلامه ؟ قالت نعم والله كان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الطست من الصدا ، قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟ قالت وتفعل اذا سالتك ؟ قال نعم ، قالت وتفعل اذا سالتك ؟ قال نعم ، قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها ، قال : تصنعين بها ما ذا ، قالت : اغذي بالبانها الصغار واستحيي بها الكبار واصلح بها بين العشائر ، قال : فان اعطيتك ذلك فهل احل عندك محل علي ؟ قالت ماء ولا كصداء ومرعى ولا كالسعدان وفتى ولا كمالك ، يا **سبحان الله او دونه** (*) فانشا معاوية يقول :

اذا لم اعد بالحلم مني اليكم
فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم ؟
خذيها هنيئا واذكري فعل ماجد
جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال اما والله لو كان عليا ما اعطاك منها شيئا قالت ولا برة واحدة من مال المسلمين (*) .

وذكر المؤلف كيف يتصرف الكاتب فى هاته المحاورات والمراجعات وكيف يقوي بها اتجاهه دون أن ياخذها على ظاهرها .

النوع العاشر : الاكثار من حفظ الاشعار الرائقة ليستعين باساليبها على الكتابة وللكاتب فى استعمال الشعر فى صناعته ثلاث حالات : الاستشهاد والتضمين والحل ، وذكر لكل نوع امثلته الخاصة به

النوع الحادي عشر : الاكثار من حفظ الامثال النثرية والشعرية ، قال (*) : (وقد اكثر الناس في تصنيف كتب الامثال ، فمن ذلك الامثال لابي عبيد وهو مرتب على ترتيب الوقائع التي تقع فيها الامثال ومن ذلك امثال الميداني وهي مرتبة على حروف المعجم وفي آخرها جملة من ايام العرب الى غير ذلك من كتب الامثال المصنفة فى هذا الباب كامثال الضبي والقمي وغيرهما ...

---

* صبح الاعشي ج 1 ص 259 .
* اشباع تاء المخاطبة بياء بعدها لغة مسموعة ، وقد ورد فى حديث نبوي فى مخاطبة المراة : لو راجعتيه انظر كتاب (مشكلات اللغة العربية) لمحمود تيمور الطبعة الاولى 1956 صفحة 192 .
* سياق الكلام لا يقتضي ان تكون هاته العبارة ضمن حديث الدارمية .
* اثر الانتحال يتجلى على امثال هاته المحاورات .
* صبح الاعشي ج 1 ص 298 .

ومن الواضح ان هاتـه النصوص التي ياتي بهـا المؤلف تدفعنا الى استقصاء ما خلفه العرب والـى البحث عن هاته الكتب لنتصل بها مباشرة فيرتفـع المستوى العلمي والادبي عند الكتاب وهذا من اعظـم مزايا القلقشندي في كتابه لانه يثير فينا غريزة الاستطلاع ويحبب الينا الصبر في طلب العلم فاحبب به من عمل.

النوع الثاني عشر : معرفة انساب الامم من العرب والعجم وقد ذكر اهم ما يحتاج اليه الباحث من الانساب واصول الاجناس وخصوصا ما يتعلق بانساب العرب وانظمتهم القبلية وقد جره الحديث الى ذكـر اختلاف الاراء في عروبة البربر فقال : (※) (وبالجملة فاكثر الاقوال جانحة الى انهم من العرب وان لم تتحقق من اي عرب هم) .

النوع الثالث عشر : المعرفة بمفاخرات الامم ومسافراتهم وما جرى في ذلك من المحاورات والمراجعات والمناقضات وذكر امثلة لكل جانب تحدث عنـه فمن ذلك قوله : (واعلم ان المفاخرة قد تكون بحقيقـة الحسب وقد تكون فيها الفصاحـة واللسـن مقـام الحسب كقول ابي تمام الطائي يفتخر :

انا ابن الذين استرضع المجد فيهـم
وسمي فيهـم وهـو كهـل ويافـع
مضوا وكـان المكرمـات لديهـم
لكثرة مـا وصـوا لهـن شرائـع
فاي يد في المجد مـدت فلـم يكـن
لها راحـة من مجدهـم واصابـع
هم استودعوا المعروف محفوظا ما لنا
فضاع وما ضاعت لدينا الودائـع

مع ان ابا تمام لم يكن من طي ، وانما اندس فيها وتعلق كما ذكر ذلك كثير من الناس ونص عليه الصفدي في شرح اللامية .

ثم قال : (وربما كان الافتخار بالتورية والتعريض بالامور المقتضية للشرف بحيث يظن السـامـع حقيقة الافتخار والشرف بمجرد السماع فاذا عرف المقصد تبين له خلاف ذلك كقول ابي الحسن الجزار :

الا قـــل للـــذي يســـا
ل عـن قومـي وعـن اهلـي
لقـــد تســـال عـن قـــوم
كـــرام الفـــرع والاصـــل
يـــريقـــون دم الانعـــا
م فـي حـزن وفـي سهـل
ومـــا زالـــوا لمـــا يبـــدو
ن مـن بـاس ومـن بـذل
يرجيهـــم بنـــو كلـــب
ويخشاهـم بنـو عـجـل

وان الامثلة التي اتى بها المؤلف لتشحذ ذكـاء الكاتب وتقوي فيه روح الملاحظة فتعينه على الانتاج السليم الرشيق .

النوع الرابع عشر (※) : المعرفة بايام الحروب التي كانت بين العرب ليكون على خبرة بما وقـع فـي هاته الايام فيستدل ذلك في كتابته ، فقد يقتضي الحال ان يمدح بعض الموالين لملكه فلا يجد سبيلا الى ذلـك الا بان يذكرهم بايامهم المجيدة ومواقفهم الخالدة ، وقد يقتضي الامر ان يهجو بعض المخالفين والخارجين عن طاعة رئيسه فيذكرهم بايام الهزيمة والخزي .

وقد يجره الامر عند ذكر الايام الى ذكـر بعض الاعلام المشهورة بالشجاعة والقوة فيجعلهم في مواطن التشبيه اعتمادا على ما اشتهروا به من صفات .

الا انني ارى ان هذا الجانب قد تكلفه الكتـاب حتى اخرجوه عن الجمال الادبي واصبح صناعة يحاول الكاتب ان يظهر بواسطتها بعض علومه وذلك كما وقع لمؤلفنا نفسه حين قال في مدح المقر الزيني ابي يزيـد الدوادار (※) : (فلو لقيه فارس عبس لولى عابسا او طرق حمى كليب لبات من حماه آيسا او قارعه ربيعة بن مكدم لعلا بالسيف مفرقه او نازله بسطام لبـدد جمعه وفرقه) وكقول ابي نصر الفتح بن خاقان فـي خطبة كتابه قلائد العقيان : (لو جاوره كليب ما طرق حماه او استجار به احد من الدهر حماه او كان بوادي الاخرم لطاف به ربيعة واحرم او استنجده الكندي ما كساه الملاءة او كان حاضرا بسطام لما خر على الالاءة)

※ صبح الاعشى ج 1 ص 361 .

※ كرر المؤلف او الناسخ العدد الثالث عشر فسمى هذا النوع ايضا به وبنى عليه ما بعده فنحن نـرى مثلا الجزء الثاني من صبح الاعشى يبتدا بقولـه" النوع الثامن عشر في الاحكام السلطانية مع انه النوع التاسع عشر فانتبه .

※ الدوادار : المكلف بشؤون البريد انظر الجزء الثالث من صبح الاعشى 396 .

النوع الخامس عشر : المعرفة باوابد العـرب
وهي امور كانت العرب تجري عليها اما على اعتقـاد كونها دينـا او عـادة او خرافـة ولا يستغني الذيـن يدرسون تاريخ المجتمع العربي ايام الجاهلية عن هـذا الموضوع لما فيه من الشرح لكثير من هاته الاوابـد .

ومن الطريف ان العادة المغربيـة التـي تذكرنـا بطفولتنا ايام كنا متغرين فنلقي السن المزالة الصغيرة الى الشمس نرجوها ان تبدلنا خيرا منها لها اتصـال بهاته الاوابد الجاهلية فقد ذكر المؤلف رمي سن الصبي المثغر فقال : (يقولون ان الغلام اذا أثغر فرمى سنه فى عين الشمس بسبابته وابهامه وقال ابدليني بها احسن منها أمن على اسنانه العوج والفلج والثغل قال طرفة :

بدلتـــه الشمـــس مـــن منبتـــه
بردا ابيض مصقـول الاشـــر (*)

النوع السادس عشر : معرفة عادات العـرب
وخص هذا النوع بالحديث عن انـواع النيـران عنـد العرب وعما يقيمونه من الاسواق فى شمـال الجزيـرة وجنوبهـــــا .

النوع السابع عشر : النظر فى كتب التاريـخ
ليحتج ببعض الوقائع فى كتابته وليستند عليها فى اثارة الهمم وتذكير النفوس بالامجاد كما يستغلها فى ابطـال حجج الخصم اذا ما حاول تحويـر بعـض الاحـداث لمصالحه الخاصة .

وفى هذا النوع ذكر نبذا تاريخية لا يسامح الكاتب بجهلها منها معرفة بعض الاوائل كقوله مثلا :

اول من سمي خليفة ابو بكر الصديق .
اول من سمي امير المومنين عمر بن الخطاب .

اول من اعتاد حلق شعره من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد قلاوون حين حج وتبعـه الامـراء والجند على ذلك .

اول من صنف فى علم الكـلام واصـل بن عطـاء المعتزلـــــي .

اول من خطب جالسا معاوية حين كثر شحمه .
اول من أرخ بالهجرة عمر بن الخطاب .

اول من ضرب الدنانير والدراهم فى الاســلام عبـد الملك بن مـروان ، ضربهـا بالشام مـن فضـة خالصة وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفرس والــــــروم .

فبالاطلاع على ما ذكره المؤلف نجد بعض النصوص التي تعيننا فى دراستنا الحضارية ، فنحن مثلا نـرى هذا النص المتعلق بعبد الملك يبرز شخصيته الجريئة فى محاولة تحقيق التعريب فى اجلى مظاهره فهو الذي كان قد عرب الدواوين ترفع من مستوى اللغة العربية واخرجها من اطارها العلمي الى الاطار الاداري ، ولكنه راى ان تعريب اللغة ليس كافيا فى فرض شخصيـة الدولة اذا لم يتجاوزها الى تعريب الفكر والاقتصاد ، ولذلك حقق ما عجز عنه غيره من الخلفاء الذين سبقوه وحقق للدولة الاموية ما كانت ترجـوه من اثبات شخصيتها الذاتية ، ولهذا فاننا نقول بان عبد الملـك كان نقطة تحول فى تاريخ الاسلام على العموم وتاريخ الدولة الاموية على الخصوص ، ولهذا مهد المجد لابنه من بعده فكان الوليد من اعظم الملوك .

ومن هاته النبذة التاريخية ذكر بعض الغرائـب والمصادفات كقوله (*) : (خليفة جرت اموره كلها على ثمانية وهو المعتصم فهو الثامن من خلفاء بني العباس، ومولده سنة ثمان وسبعين ومـائـة ، وعمـره ثمـان واربعون سنة ، وكان ثامن اولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية اشهر وثمانية ايام ، وخلف ثمانية بنين وثمان بنات وثمانية الالف دينار وثمانية وعشرين الف درهم وثمانية عشر الف دابة ، وله ثمـان فتوحـات ، وتوفي لثمان بقين من شهر ربيع الاول ومن ثم سمي المثمـــــن) .

وانا ارى ان فى وجه التسمية بعـض المبالغـات خصوصا بالنسبة الى مخالفاته .

النوع الثامن عشر : المعرفة بخزائن الكتـب
وذكر ان اهم الخزائن التي كانت فى الاسلام ثلاثة :

---

* الفلج : التباعد بين الاسنان ـ والثغـل فساد الجلد ـ الاشر : اطراف الاسنان
* صبح الاعشى الجزء الاول صفحة 441 .

خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد وانتهت بتغلب التتر عليهـــا .

خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر وانقرضت بانتهاء دولتهم واكثر كتبها اشتراها القاضي الفاضل ووقفها بمدرسته الفاضلية بالقاهرة الى ان تعاقبت عليها الايام

خزانة الخلفاء الامويين بالاندلس وضاعت حين قيام ملوك الطوائف .

ومن احسن ما ذكره المؤلف هنا ملاحظته حول الخزانات فى عصره ، فذكر بان الملوك قلت عنايتهم بها استكفاء بالخزانات العامة الموزعة على المدارس المختلفة حيث انها بذلك امس .

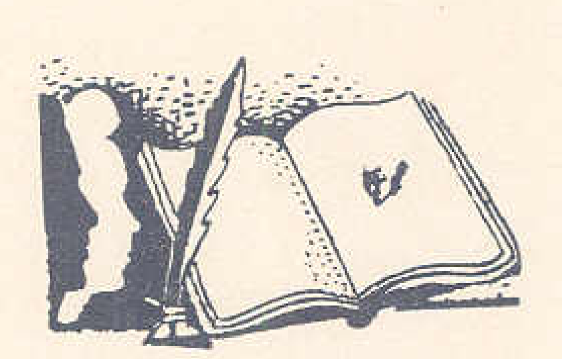
ولا شك ان هاته الخزانات المدرسية كانت سببا فى تثقيف عدد كبير من الادباء وانها كانت سببا فى هاته الموسوعية العلمية التي اصبحت طابع عصر مؤلفنا وخير دليل على ما نقول ما اعتمده القلقشندي من المصادر فانه يتعذر جمعه على فرد واحد ، فاذا لم تكن هاته الخزانات فى متناول العموم ضعف الادب والعلم ، فعلينا ان نستفيد من هاته الملاحظة فى عصرنا هذا ونعمل على تكوين خزانات فى جميع المدن دون ان نقتصر على بعضهـا .

النوع التاسع عشر : المعرفة بالاحكام السلطانية (*) لتكون كتابته وفق القوانين التي تسير عليها دولته ولتكون مناسبة لانواع الوظائف التي يتولاها الاشخاص حسب رتبتهم وكفايتهم وكذلك لتناسب اسباب الخلع اذا ما وجه تقليدا بذلك فيرفع بها اللبس ويزيل الابهام قال : « وقد اورد اقضى القضاة ابو الحسن علي بن حبيب الماوردي رحمه الله فى « الاحكام السلطانية » ما فيه مقنع من ذلك » .

وبانتهاء تحليل هذا النوع انتقل الى الطرف الثاني الذي سأقدمه للقراء فى ظرف آخر .

فاس ـ محمد بن عبد العزيز الدباغ

(*) بهذا النوع ابتدا المؤلف الجزء الثاني من صبح الاعشـــى .



تطور معارك النقد الأدبي المعاصر

للأستاذ: أنور الجندي

تمثل معارك النقد في أدبنا العربي المعاصر قطاعا حيا من قطاعات حياتنا الفكرية له خطورته واهميته في مجالات النثر والشعر واللغة العربية ومفاهيم الثقافة وقد دارت هذه المعارك منذ وقت مبكر ، ولعل معركة ابراهيم اليازجي وفارس الشدياق التي تبادلا فيها النقد عام 1871 حيث نشرت الجنان كتابات ابراهيم ، ونشرت الجوائب كتابات فارس هي اشهر المعارك الادبية التي ترسم ابرز ملامح النقد الادبي في هذه الفترة الباكرة وهي :

- غلبة الطابع اللغوي على النقد .
- اصطناع الهجوم الشخصي في سبيل الغلبة .
- استعمال الهجاء بدلا من مواجهة النقد بالنقد.

ويمكن القول بان غلبة الطابع اللغوي على النقد ظل الى فترة طويلة طابع المعارك الادبية وقد بدا ذلك واضحا في معارك نقدية مشهورة منها :

- نقد « محمد المويلحي » لديوان شوقي 1898 وقد انصب على اللغة .

- نقد « طه حسين » لكتاب النظرات للمنفلوطي عام 1911 .

ومن ذلك فان النقد الادبي حتى في هذه الفترة لم يقتصر على الطابع اللغوي وحده بل ظهرت بين حين وحين نقدات تغلب عليها الموضوعية النقدية ، من هذه النماذج :

- ما كتبه ابن هاشم (انيس الجليلي ابريل 1903) في نقد رواية (كله نصيب) لنقولا الحداد ، فقد تناولت موضوعية الرواية .

- ما كتبه عدد من النقاد في نقد ترجمة حافظ ابراهيم لرواية البؤساء .

- مقالات متفرقة في المجلات عن نقد بعض الاثار الادبية روعي فيها الاهتمام بالمضمون دون اللفظ .

وفي هذه المرحلة كان ابرز ملامح الطابع اللغوي للنقد ظاهرا في اعمال ثلاثة من كبار كتاب هذه الفترة هم : فارس الشدياق وابراهيم اليازجي وحسين المرصفي ، فقد عني الشدياق بنقد المعاجم ، وعني اليازجي بنقد لغة الجرائد والف في ذلك كتابه (لغة الجرائد) الذي احصى فيه الاخطاء اللغوية المختلفة وكشف عن الوجه الصحيح لها .

اما حسين المرصفي في كتابه (الوسيلة الادبية) فقد عني بان يوجه الاديب الى العناية باللغة وقواعدها وضبط مفرداتها .

ومن ابرز كتب النقد في هذه الفترة « منهل الوارد في علم الانتقاد » لقسطاكي الحمصي الذي صدر عام 1907 ، ويعد هذا الكتاب في نظر مؤرخي الادب اول كتاب عربي في النقد .

وعنده ان ابراهيم اليازجي هو اول من اعطى النقد حقه عند العرب وذلك في الذيل الذي ذيل به شرح ديوان المتنبي .

وقد رسم خطة النقد فقال : انه لا يمكن الوصول الى سديد النقد الا بارتقاء درجاته الثلاث وهي : الشرح ، والتبويب ، والحكم .

والشرح عنده هو ايضاح وتحديد العلاقة بين الكتاب المنقود وبين تاريخ العلوم الادبية بالعموم ، تحديد علاقة التاليف بما كان من نوعه بالمكان والزمان الذي ظهر فيه تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب وكتابه .

والتبويب عنده هو تعيين باب الكتاب المنقود ، او مؤلفه ، وتحديد مرتبته بين امثاله بالحجج العادلة.

ويرى قسطاطي الحمصي ان ابراهيم اليازجي هو اول من رسم الخطط الاولى للنقد بمقاله (فى صناعة فن النقد) فى المجلد الثاني من الضياء (1898) .

وفى نقد الشيخ حمزة فتح الله وحسين المرصفي وسيد حسن علي المرصفي التي عرفتها دار العلوم في اوائل هذا القرن كان النقد منصبا على اللغويات ومعاني الكلمـــــــات .

ولم يبدا التحول الا فى اوائل الثلاثينات حينما اخذ المستشرقون يدرسون اساليب النقد الغربي حيث تاثر بها الادباء من بعـد .

ومن ثم تحول امثال طه حسين من نقده اللغوي لكتاب النظرات 1912 الى مفاهيم جديدة وانكر نقده القـديـــــــم .

غير ان هذه المرحلة الجديدة لم تكن قائمة على اساس ثابت ، حقيقة انها اخذت المقومات الحديثة للنقد ولكنها مضت بها ابعد من الشوط ، واندفعت بها نحو الغرض الشخصي ، ثم انحرفت بهـا حيـن اتخذتهـا وسيلة للغض من مقومات الفكر العربي كله ومهاجمـة اللغة والتاريخ ومختلف القيم الاساسية .

وقد ظل اتجاه فارس الشدياق فى خلط المناظرة العلمية بالمقاذعة ، والانتقال من البرهـان الـى الطعن والشتم ، يسير فى خط طويل لم يستطع النقد الحديث التحـرر منـــه .

بل يمكن القول بان دوافع المعارك الادبيـة — فى الاغلب — لم تكن خالصة لوجه الفكر وانمـا وقعـت تحت سيطرة دافعيـن كبيريـن همـا : الخصـومات السياسية ، والخلافات الشخصية

وربما ادى هذا الى تناقض الكتاب بين معركـة ومعركة ، او تحول عن اتجاه الى اتجاه اخرى ، وربما كان الراي مقيدا بوجه نظر او ظرف معين ، فاذا اختلف هذا الظرف تغير الراي .

ولعل النقد السياسي قد طغى على النقد الادبي واثر فيه وابرز طابع السخرية والعنف فى الهجـوم . وربما كان الاختلاف السياسي مصدرا من مصـــادر الاختلاف الفكري فقد كانت مدارس سياسية تسير فى الطريق العثمانـي الاسلامـي او الطريق الاقليمـي او الطريق القومي العربي وقد تاثر الفكر والادب والنقـد بهذه الميادين الثلاثة ، هذا بالاضافة الى التاثر بدعوات التغريب حيث بدا هناك تياران واضحان : هما تيار المحافظة وتيـار التجديـد .

وقد ذهب كل من التيارين الى مداه ، فدعـــا المحافظون الى حماية اللغة العربية وقاوموا كل محاولة للسخرية من التاريخ العربي وامجاد الامـة العربيـــة والوحدة العربية ودعوات التغريب الى تصوير العقلية العربية بصورة منتقصة ، وجعل الثقافة العربية متاثرة بالثقافة اليونانية ، وتغليب التقليـد على الاقتبـاس ، او تحريف السيرة باضافة الاساطير ، او الدعوة الـى الكتابة بالحروف اللاتينية .

هذا بينما ذهب المجددون الى آخر المدى فـي الاستهانة باللغة الفصيحة والسخرية بتاريخ الامـة العربية والتشكيك فى مقومات الفكر العربي وتراثـــه وقيمه المتمثلة فى الفقه والتشريـع والشعـر والادب وغيرهـــــا .

غير ان الامور لم تلبـث ان تطـورت على نحـو قارب بين المجددين والمحافظين وبقي عدد قليـل مـن دعاة التغريب يقضون وحدهم ، وقد انكشفت اهدافهم ذلك ان اغلب الكتاب المجددين الذين كانوا فى اول الامر يغالطون الجماهير لكسب الشهرة ، ثـم ارغمتهـم السياسة على مسايرة الجماهير وتملقها كما حدث فى كثير من الكتابات الدينية ، والرضوخ لاراء المستشرقين حين تحول احمد امين للدعوة الى العامية ومهاجمـة الادب العربي القديم ، هؤلاء الكتاب قد تحولوا من بعد، اذ تكشفت لهم حقائق الامور ، حين شاهدوا الفوارق البعيدة بين شعارات الحضارة الغربية وبين واقعهـا وتصرفاتها العقلية فى العالم العربي والاسلامي ، هنالك استفاقت معان جديدة فى نفوس هؤلاء المفكرين جعلتهم يقفون وقفة النظر والتامل ، غلبت فيها عاطفة الايمان بالوطن والتراث ، وحق امتهم عليهم ، وقد بلغ بهـم الاعتقاد حد الايمان بان هذه المذاهب التغريبية لن تصل بهم الى خلق امة وفكر جديد ، هنالك قاوموا زملاءهم فى ارائهم ووقفوا يعارضونها . فقد عارض (هيكـل) دعوة طه حسين الى كتابة الاساطير على انها جزء من سيرة الرسـول ، وعـارض (توفيـق ديـاب) الادب المكشوف ، وعارض (منصور فهمي) التقليد الخاص، وعارض فيلكس فارس نظريات التغريب فى الثقافـة ، وعارض زكي مبارك النزعة اليونانية ، وعارض المازني الكتابات الاباحية وترجمة القصص الفرنسية المكشوفة

وقد كشفت اكثر من رسالة عن مدى سيطرة المستشرق الغربي على اقدار الشباب العرب الذين يدرسون في الجامعات المختلفة ، هؤلاء الذين ذهبوا الى اوربا دون ان يحصلوا على قدر كاف من الثقافة العربية ، ودون ايمان واضح بامتهم وثقافتهم وشخصيتهم العربية ، فلم يلبثوا ان جروا في تيار الدعوة التغريبية ظهر هذا في رسالة منصور فهمي 1914 عن (حالة المرأة في التقاليد الاسلامية وتطوراتها) ، ورسالة طه حسين 1917 عن ابن خلدون حيث هاجم المغاربة واتهمهم بالقصور عن التجاوب مع الحضارة الغربية ، واعتبر كفاحهم في سبيل الحرية ومقاومة الاستعمار الفرنسي عملا منافيا للتحضر والترقي .

وعند ما حاول مثل زكي مبارك ان يواجه المستشرقين بارائه ويعزف عن التبعية الفكرية والعمالة الثقافية حطموه في بلده وابعدوه عن الجامعة وعن وزارة المعارف وهددوه حتى يئس ولم يجد له طريقا الا الخمر ...

وقد تحول منصور فهمي عن التبعية الثقافية ولكنه لم يجرؤ على كتابة كلمة واحدة في الرجوع عن ارائه .

* * *

ولعل اهم مصادر اضطراب النقد هو انه ارتبط بالدعوة التي دعاها لطفي السيد 1907 الى التمصير وهي دعوة سياسية ولكنها استتبعت الدعوة الى تمصير اللغة ، وتمصير الادب ، وبذلك حمل الادب في مصر منذ ذلك الوقت طابعا اقليميا ضيقا ، كان له اثر في جميع معارك النقد بعد ذلك ، ذلك ان دعاة تمصير اللغة انما كانوا يهدفون الى تغليب اللغة العامية وتحويلها الى لغة مصرية خالصة منفصلة عن اللغة العربية الام ، وهي دعوة دارت حولها معارك متعددة : ابرزها معركة لطفي السيد مع مصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي ، وقد تواترت المعارك حول هذه القضية طوال تلك الفترة بعد ما حمل لواء العامية سلامة موسى وحمل لواء الكتابة بالحروف اللاتينية عبد العزيز فهمي ، وشارك محمد فريد ابو حديد واحمد امين وغيرهما في التخفف من اللغة الفصحى .

وقد كانت ابرز المعارك الادبية قد دارت حول الاسلوب والمضمون والنزعة اليونانية والصراع بين المذهبين الفرنسي والانجليزي في النقد وكتابة السيرة والاساطير ، وحول الترجمة وادب الساندويش والادب المكشوف ومقومات الادب العربي والنقد الذاتي والموضوعي .

تطور مفهوم النقد

ويمكن القول ان مفهوم النقد كان الى ما قبيل الحرب العالمية الاولى في العالم العربي نقدا لغويا يحتفل بالصيغ والالفاظ والنواحي البلاغية ، ثم تحول من بعد الى العناية بالتجربة الشعرية والصياغة الفنية والناحية الموضوعية ، غير ان دعاة الاتجاه الجديد ذهبوا في مجال التحرر من القيم القديمة في النقد الى حد الشك في عديد من القيم الثابتة والتي قامت عليها الحياة الفكرية العربية واستهانوا بمقومات فكرية اصيلة ، وابرز من تصدى لهذه الجوانب جماعة المتأثرين بالمستشرقين والمبشرين ودعاة التغريب في العالم العربي وقد دعوا الى :

— حياة القدماء واضفاء ثوب التقديس عن كل ما هو قديم ودراستها كانها حياة الناس فيها الخطا والصواب .

— انكار روايات التوراة والانجيل والقرآن بالنسبة للنبيئين ابراهيم واسماعيل وانكار وجودهما التاريخي واعتبار ان قصتهما نوع من الحيلة الدينية .

— القاء الشك على الجوانب القومية في التاريخ العربي والاستناد في ذلك على حياة شعراء ماجنين وذلك على النحو الذي حدث عندما حاول طه حسين اتهام العصر الاموي في نهايته ، والعصر العباسي في بدايته بانه عصر شك وعبث ومجون معتمدا في ذلك على كتاب الاغاني او بعض الشعراء امثال ابي نواس وغيره ، بينما تجاهل الكاتب عشرات من اعلام الفكر والفقه والشعر وغيره في نفس المرحلة .

— الاندفاع في محاربة الاسلوب التقليدي في الكتابة الى الحد الذي يصل الى محاربة الفصحى نفسها .

— الانحراف في كتابة السيرة وتغليب الاساطير عليها .

— الدعوة الى الادب المكشوف باعتباره اتجاها طبيعيا الى الكشف عن النفس الانسانية .

— الدعوة الى التقليد المطلق للحضارة الغربية « خيرها وشرها ما يحمد فيها وما يعاب » .

— تهديم الشخصية العربية الاسلامية بنقل نظريات « رينان » فى الاجناس وتخلف العقلية السامية ومؤازرة نظرية النزعة اليونانية ومحاولة اضفاء فضل مشكوك فيه لليونان على العرب .

— ترجمة القصص الفرنسية الاباحية .

— مهاجمة دعوة الوحدة العربية وتغليب دعوة الفرعونية والقوميات الضيقة .

— مهاجمة العرب وتاريخهم وبطولاتهم وثقافتهم والتشكيك فيهـــا .

ومن مجموع هذه الخطط تبتديء وراء « النقــد العربــي المعاصر » محاولة سامة مسمومة ، لم تكن تهدف فى الحقيقة الى تحرير الفكر العربي وتنقيتـــه وتخصيبه واغنائه بالنظريات الغربية بقــدر ما كـانت محاولة للقضاء عليه ودفعه الى طريق فقدان ملامـــح الشخصية الاصلية .

ومن هنا قامت المعارك الادبية من اجل الدفاع عن : اللغة العربية وفضل العرب على الحضارة ومعارضة الادب المكشوف ونقل الحضارة نقلا كاملا وتغليب الجانب الاسطوري على السيرة المحمدية وتصحيح الحقائق فيما يتعلق بالعقلية العربية والنزعة اليونانية .

ومن الظواهر الواضحة ان الذين عارضوا دعوات التغريب هذه المرة ودخلوا المعارك الادبية بعنف وقوة هم كتاب عصريون تعلموا فى اوربا ، ولم يكونوا مجــرد كتاب محافظين ازهري الثقافة .

فقد حمل ساطع الحصري وزكي مبارك وعبد الرحمن عزام ومحيي الدين الخطيب لواء الدفــاع عن العرب ، وعارض توفيــق ديـاب الادب المكشــوف ، وعارض منصور فهمــي التقليــد المطلـــق ، وعارض فيلكس فارس نظريات تغريب الثقافة ، وعارض زكـي مبارك النزعة اليونانيــة ، وعارض هيكـل دعـوة طـه حسين الى احياء الاساطير ، وعارض المازني الكتابات الاباحية وترجمة القصص الفرنسية المكشوفة .

ويمكن القول ان اضخم المعارك قد دارت حــول كتب : مثــل معركــة الخلافــة واصول الحكم لعلــي عبد الرزاق ، والشعر الجاهلي لطه حسين ، ومستقبل الثقافة لطه حسين ، والنثر الفنــي لزكــي مبــارك ، ورسالة منصور فهمي للدكتوراة عن « حالــة المــرأة الاسلامية » ؛ وكتاب « حديث الاربعاء » لطه حسين ، وهناك معارك قامت من جانب واحد منها معركة الشعر الجاهلي فقد صمت طه حسين ازاءها صمتا منكـرا ؛ ومعركة لقمة العيش التي اثارها الدكتور زكي مبارك ، ومعركة جناية احمد امين على الادب العربي التي اثارها الدكتور مبارك .

معركـــة مفـاهيــــم الادب

معارك مفاهيم الادب بدات حول الاسلوب عـــام 1923 بين الرافعي وطه حسين ، ثم تناولت غاية الادب واتصلت بالاسلوب والمضمون ؛ وتوسعت هذه المعارك فشملت الفن للفن ، والفن للمجتمع والتراث العربــي القديم ومعارك مفاهيم اللغة .

وقد قامت هذه المعارك على اساس مهاجمــة الاسلوب القديم المفرق فى السجع والمقدمات والالفاظ القاموسية ، وحول غلبة العناية باللفظ على العنايـــة بالمضمون ؛ وقد وقف شكيب ارسلان والرافعـي فـي صف الدفاع ، ووقف سلامة موسى وطه حسين فـي صف الهجــــوم .

وكانت حجة المدافعين حماية اللغة العربيــة من اعجمية العامية التي كانت هدف الدعوة التي اثيــرت واستشـــــرت .

وجرت معركة حول اسلوب الكتابة بين شكيــب ارسلان وخليل سكاكين حيث هاجم الاخيـر كتابـات امير البيان كما كانوا يطلقون عليه ، وقد جرت هــــذه المعركة على نحو معركة الرافعي مع طه حسين وسلامة موســـــى .

وفى عديد من معارك جرى البحث حول الاسلوب والمضمون واتصل هذا بدعوة جبران حين كتب مقالة (لي لغتي ولكم لغتكم) .

معـارك الشعـر

ودارت المعارك الادبية حول مفهوم الشعر ، حيث بدا النقد الادبي للشعر ياخذ طابعا جديدا على يدي ثلاثــة الديوان « شكري والعقاد والمازني » وهم الذين حملوا لواء الدعوة الى وحدة القصيدة منذ عام 1908 ، وكان

مطران قد سبقهما عام 1900 فى الدعوة الى تحرير الشعر التقليدي : اشترك فيها العقاد والمازني من ناحية ومدرسة المهجر وعلى راسها جبران وميخائيل نعيمة وامين الريحاني . وكان مضمون مفاهيم الشعر عند المدرسة الحديثة هو : ان يكون الشعر متصلا بالنفس وان اي قصيدة اذا غير ترتيب ابياتها اضطرب معناها ، وان يكون له قوته اذا ترجم الى اي لغة اجنبية وان تكون القصيدة وحدة كاملة .

وقد كان للشعر مجال ضخم فى معارك الادب وحظى احمد شوقي بالجانب الاكبر منه فقد هاجمته المدرسة الحديثة هجوما عنيفا ، وقد بدأ العقاد حملة على شوقي عام 1912 فى رثائة لبطرس غالي وولاه في كتاب الديوان 1922 ، كما حمل المازني على حافظ عام 1912 وكان الرافعي قد رتب الشعراء عام 1905 فى مقال له بمجلة الثريا طبقات ، ووضع نفسه فى الطبقة الاولى مع الكاظمي والبارودي وحافظ ووضع صبري وشوقي ومطران فى الطبقة الثانية

ثم بدأت معركة السرقة الشعرية بين شكري والمازني 1918 حيث اتهم شكري المازني بالسرقة فى مقدمة الجزء الخامس من ديوانه والاغارة على شللر وهيني وغيرهما ، ورد المازني الضربة لشكري في الديوان بمقال مقذع باسم (صنم الالاعيب) .

ودارت معارك اخرى حول « امارة الشعر » بعد وفاة شوقي وحافظ وكانت أقسى المعارك الشعرية بين الرافعي والعقاد وبعد كتاب (على السفود) اشد هذه الحملة اقذاعا

وقد بلغت معارك النقد فى الشعر ابعد مدى من التعنت والتحامل وانبعثت فى الاغلب من الخصومة السياسية وقد عرف الرافعي بتعنته فى نقده للعقاد ، وعرف العقاد بتعنته لشوقي ، وعرف المازني بتعنته فى نقده لشكري

ومن امثلة هذا النقد قول العقاد (ايه يا خفافيش الادب ، اغثيتم نفوسنا اغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم ، السوط فى اليد ، وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت ، وستفرغ لكم أيها الثقلان ، فاكدوا من مساوئكم فانكم بهذه المساويء تعملون للادب ، والحقيقة اضعاف ما عملت لها صفاتكم ان كانت لكم حسنة يحسها الادب والحقيقة) .

ويمكن القول بان القواعد التي وضعتها المدرسة الحديثة فى الشعر لم تكن نبراسا لها فيما نظمت من شعر ، بل ان العقاد نفسه تحول عن هدفه حين نظم فى المسرح والرثاء وان الدكتور مندور قام بتغيير ترتيب قصيدة له فجاءت بنفس النتيجة التي قام بها العقاد لشعر شوقي وجعلها قاعدة لنقده للشعر التقليدي .

تحول النقاد عن القواعد التي وضعوها

واعجب ما فى الامر ان هؤلاء النقاد قد تحولوا عن مناهج النقد التي وضعوها فقد غير طه حسين رأيه فى دراسة الادب ، بعد ان دعا فى كتابه (ذكرى ابي العلاء) الى دراسة الادب على اساس علمي محض، عاد بعد ثلاثة عشر عاما فى كتاب الشعر الجاهلي فقال ان الادب لا يستطيع ان يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها ولا بد من اعتماده على الذوق الخاص .

وتحول المازني عن نقده لحافظ وشكري .
وتحول طه حسين عن نقده للمنفلوطي .

وتحول طه حسين عن رايه فى شوقي كما تحول المازني فى نقده لشوقي .

وقال المازني عن نقده لحافظ (اما النقد فقد اسقطنا من جملة ما كتبنا غير آسفين على اسقاطه ، فقد كان مما اغرت به حماقة الشباب .

ومن هنا يمكن القول بان كتابنا لم يلتزموا قواعد النقد الادبي التي رسموها ، وانهم لم يكونوا جادين فى فرضها . وان نقدهم كان فى الاغلب مفرضا ذاتيا مرتبطا بالاهواء الخاصة والتقلبات السياسية ، وقد بلغ النقد الادبي حدة من العنف عند احمد فارس الشدياق فى فجر الحركة النقدية فى الادب العربي وقد اورث هذه الطريقة احمد زكي باشا شيخ العروبة ، وسار فى هذا الاتجاه الرافعي وطه حسين والعقاد فكانوا اشد نقادنا عنفا وابعدهم عن النزاهة والتجرد .

وكان الخلاف بين الرافعي والعقاد — وقد دارت بينهما اعنف المعارك — انما يرجع الى اسباب خاصة منها ان للعقاد رايا فى اعجاز القرآن غير راي الرافعي ذكره فى حديث له فى مجلة المقتطف ، وان العقاد ازعجه تكريم سعد زغلول لكتاب الرافعي هذا واتهامه بانه لم يكتب له شيئا ، وكان هناك خلاف آخر حول النشيد

القومي ذكره العقاد في كتاب الديوان ، ويمكن ان يضاف الى هذا ان مقابلة تمت بين الكاتبين مع الكاتبة مي ، اغضت فيها الكاتبة قليلا عن الرافعي في اهتمام بالعقاد دفعت الرافعي الى الخصومة معها وقطع صلته بها والحملة على خصمه العقاد .

وكذلك كان الخلاف بين الرافعي وطه حسين — وقد دارت بينهما اعنف المعارك — وكان الرافعي هو اول من حمل لواء معركة (الشعر الجاهلي) بعنف ، ويرجع ذلك الى اسباب سابقة ربما كان اهمها أن الرافعي كان حريصا على أن يكون استاذ الادب العربي في الجامعة وان طه حسين احرز هذا المنصب من دونه .

ومما يذكر ان كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين قد واجه اكثر النقود عنفا فقد الفت أكثر من ثمانية كتب في الرد عليه : للرافعي ، وفريد وجدي ، والخضر حسين ، ولطفي جمعة ، والغمرادي ، وشكيب ارسلان والخضري ، ومحمد عرفة .

ويمكن القول بان النقد تأثر كثيرا بالخصومات والصداقات وان خلافات الكتاب لم تكن تبعا لمذاهب فكرية بقدر ما كانت قائمة على الخصومات الشخصية والخلافات الحزبية .

ومعنى هذا ان النقد الادبي الحديث لم تكن له مناهج تعهد بها النقاد او وقفوا عندها .

ونستطيع ان نقرر بعد دراسة اكثر من ستين معركة كبرى في الفترة من اوائل القرن حتى عام 1940 ان اغلب احكام هذه المعارك تدل على التناقض ، فالراي مقيد بوجهة نظر وظرف معين ، فاذا اختلف هذا الظرف تغير الراي ، وآية ذلك ان طه حسين بايع العقاد عام 1934 بامارة الشعر ، وكان قبل ذلك قد بايع بها العراق ثم عدل عنها وعاد طه حسين عام 1956 فاعلن ما يلي :

« أحب ان أؤكد اني لم ابايع العقاد بامارة الشعر وما كان لي ان ابايعه لاني لم اكن شاعرا » .

وربما كان في النقد عامل آخر هو ان هناك رايا مسبقا بالنسبة للكاتب ثم تجرا النقد لمحاولة تبرير الراي وتأكيده بالتماسه هنا وهناك من نصوص الاثر المنقود .

ولقد حملت الصحافة لواء النقد وافسحت له المجال واتاحت الفرصة للقراء لمتابعة معاركه ومواقفها .

القاهرة : انور الجندي



المثل الأعلى للإنسان في المغرب

للأستاذ: عبد الله الكامل الكتاني

يتحدث الناس في كل عصر عن « مثل اعلى » للامة في الحياة ، تؤمن به ، وتسعى لبلوغه ، وتعمل جاهدة على احترامه وتقديسه ، كما يتحدثون ايضا عن « مثل عليا » خاصة أو عامة ، بالافراد وبالجماعات .

وكثيرا ما يتأثر المثل الاعلى للامة بهذه المجموعة الخاصة او العامة من المثل العليا للافراد والجماعات .

ولذلك كان مفهوم المثل الاعلى من المفاهيم الواسعة الحدود التي يمكن للمتحدث ان يتحدث عنها بصيغة الافراد كما يمكنه ان يتحدث عنها بصيغة الجمع دون اخلال عنه بشيء من معناه .

فالمثل الاعلى اذا هو ذلك الوصف الفاضل الذي يتحراه افراد الامة في اعمالهم وتصرفاتهم حتى تكون مطابقة للخير ، متصفة بالجمال ، هادفة الى الحق .

وهو القدوة الحسنة الموجهة للانسان الى التفتح على الحياة في نشاط مستمر يخلق من سكون الماضي انطلاقة محركة للهمم نحو الابداع والوعي والتقدم في في المستقبل .

وهو الهدف البعيد الاسمى والغاية العزيزة المرجوة من « الكينونة » التي تسمى الى الحكمة والكرامة والخلود .

والانسان المغربي ميال – بطبعه – الى المثل تيفما كان : وصفا فاضلا او قدوة حسنة او هدفا بعيدا ، ولكنه لم يصل بعد الى مرحلة التوازن التي تجعل من هذه المفاهيم الثلاثة للمثل الاعلى مفهوما واحدا مستقرا يشمل الخير والجمال والحق ويقود الى الابداع والوعي والتقدم ويهدف الى الحكمة والكرامة والخلود .

فالخير عند بعض الناس في سعادته وسعادة اسرته ووطنه ما دام هذا كله يمضي في اتفاق وانسجام وتقف امام المشكلة وجها لوجه حينما تتعارض المصلحة الذاتية مع مصالح الاسرة او مصالح الذات والاسرة مع مصالح الوطن ، عندها لا نجد للراي العام المغربي موقفا موحدا يدفع الناس اليه دفعا ويقسرون عليه قسرا .

والخير كذلك عندنا هو الاخلاق والفضيلة والشرف النفسي والسمو الروحي والتحابب الاجتماعي ، وكراهية الانحلال والرذيلة والفاحشة والانحطاط والنفاق الاجتماعي ، غير ان هنالك عقبات وصعوبات كثيرة تبعثنا – في بعض الاحيان – على تفضيل جانب الرذيلة على الفضيلة ، والنفاق الاجتماعي على التحابب الاجتماعي ، لان ذلك قد اصبح من قواعد « المحيط » وعادات « الجو » بحيث اصبحنا امام « قسر فاسد » يوجهنا الى حيث يريد : مع ان الفضيلة والتناصح والخير كلها اوصاف تهوى اليها افئدة الناس في كل مكان في هذا المغرب الحبيب .

والجمال في مفهومه الانساني والمغربي نفور من القبح المعنوي وتعلق بالحس المطلق في كل شيء : في عناق الموجة الغاضبة من موجات الاطلسي للشاطيء الغربي من بلادنا ، في الاشعة الارجوانية الحمراء المنبسطة في الافق عند التقاء البحرين ، في ريفنا الخالد ، في اطلسنا العالي ذي القمة الدائمة البياض وعند السفوح الزهرية الفواحة ، في غابتنا المعمورة ، في سوسنا الاسمر ، في طبيعتنا الفناء هنالك الجمال الانيق والحسن الاخاذ حيث ينثر نور الشمس حبات من ذهب ، وتهمي السماء بقطرات من رحيق زلال ، هناك تجد حقا جمال بلادك الذي لا يجده آخرون في بلادهم فيرحلون اليه يبحثون عنه في جنيف ولوزان وفيينا وسالزبورغ والبندقية ، وفي غير ما بلاد جميلة من بلدان اوربا وامريكا .

ومع هذه الطبيعة الوضيئة المعطاء لاتريد نفوسنا ان تتفتح على هذا الجمال لسبب واحد هو انه حسن بدائـــي .

والحقيقة ان الناس جميعا فى كل زمان وفى كـل مكان متحضر قد سئموا الجمال « المصنوع » وراحوا يتطلبون هذا الجمال « الطبيعي » الذي تتوفر بلادنـا عليه ، ولكن ما حيلتنا اذا كان الامر فى بلادنا لم يستقر بعـد ولم يتخذ لـه ميزانا يسير عليـه ، اذا لتفتحت نفوسنا على هذا الجمال وجعلنا له فى قلوبنا موضعـا للمحبـة والتقـديس .

على ان المغاربة ـ فيما يرى اناس ـ من أكثـر أهل الارض محبة للحق وتفضيلا له على الباطل ، حتى لقـد شاع على ألسنتهم ان المغاربـة ناس طيبـون ، متمسكون بالدين ، فيهم غيرة على الحق وحماسة لـه وحمية عليه .. وهذا كله حق وصدق ، غير ان محبتنا للحق هذه اصيبت بشيء من الاختلال وعدم التـوازن لاسباب انسانية وتاريخية منها الجهل الذي خيم على عقول المغاربة فترة من زمان ولا زالت مخلفاته تتوارث حتى عصرنا هذا ، ومنهـا كذلك الاستعمـار البغيض الذي استغل محبة المغاربة للحق هذه استغلالا غيـر انساني فى ظروف وملابسـات يعلمها الجميع .

ان التعلق بالحق أمر مهم ، ولكن الاخلاص لـه ولمفاهيمه اجدى على المغاربة من هذا التعلق العرضي الذي يزول بزوال عاداته واسبابه ، ذلك ان الاخـلاص للحق تتمثل فيه أوصاف خالدة مجردة كالاستمـرار والتفاني فى سبيل المبدا ، وهذا ما يدفع عن الحق صفة « النفعية » و « الوقتية » ويجعله انسانيا فى اطـار وطنـي صميـم .

لذلك فاننا نستطيع ان نصحح تلك الاوضــاع الفكرية التي هي من مخلفات الاستعمـار والجهـل فى بلادنا بالفهم الصحيح لمعاني الحق ومقوماته : فيصبح الانسـان المغربي طيبـا بمفهوم الطيبوبة المجرد اي بالمفهوم الايجابي الذي يجعله طيبا فى كل زمان وفى كل مكان مع نفسه ومع الناس اجمعين ، لا ان يطلق عليه هذا اللفظ تـكينا لخاطره وتطييبا لنفسه بل لانه فى الحقيقــة والواقع طيب ولا يقبل الا طيبا ، فتغدو معاني التمسك والغيرة والحماسة والحمية اوصافا خالدة تنكر كـل تخاذل وكـل سلبية فى الاعمال والتصرفات ويسيطر المبدا الفكري الواحد القائل : « للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء ، ولله المثل الاعلى » فضعفاء العقيدة ليسوا على شيء ولهم مثلهم السيء يمضون عليه فى الحياة كما ان للمؤمنين بالله اي بالحق مثلهم الاعلـى وطريقتهـم الواضحة ووصفهم الخالد المكيـن .

والمثل الاعلى بعد هذا قدوة حسنة متحركة مبدعة وخلاقة تستمد القوة من العناصر الايجابية فى الماضي التليد لبلادنا ومـن العناصـر الايجابيـة فى الحاضـر السعيد للبلاد المتقدمة الاخرى ، وبهذا المفهوم يكـون المثل الاعلى للمغربي فى هذا الزمان حركة دائمة لا تخلد للراحة ولا تعرف السكون وابداعا خلاقا لا يجمد على التقاليد الفاسـدة فى الماضي وفى الحاضر كذلك ، واتجاها مستقرا هادفا ومتدفقا دائمـا نحـو الامـام .

والابداع فى هذا المفهوم ترويض الفكر على الخلق والابتكار ، وتوجيه الامكانيات المادية والطاقات المعنوية للامة الى التجديد والاختراع حتى تصبح مسايـرة للتطور بل ومسهمة فيه بالنصيب الاوفى .

ومن هنا تبدو حركية المثل الاعلى التي تحـارب كل جمود على القوالب المعروفة للحضارة وتندفع الـى الاسهام الفعال فى تطور المجتمع الانسـاني ، ويغدو المثل الاعلى حركة واندفاعا ونشاطا لا مجرد ايمان ساكـن مقلـــد .

على ان روح التجديد هذه هي اهم شيء فى العمل الابداعي صناعيا كان أم فنيـا .

والصناعات المغربية واعني بها هنـا التقليديـة شيء جميل ورائع بالنسبة الى فترة معينة من فترات تاريخنا حين كانت تلك الصناعة تمثل آخر حلقـــة في سلسلة التطور ، اذ كانت تمثل الابداع الحق وصانعها يستحق منا التقدير والاعجاب لانه اعمل فيها الفكـر الخلاق واظهر فيها ابداعه ومهارتـه ومساهمته فـي التطور ، ولكن الصانع الذي يجتر تلك الصناعة نفسها لا ينال من تقديرنا ولا من اعجابنا شيئا يذكر اذ انــه اقتصر على « التقليـد » و « المحافظة » على الطابـع القديم ، ولكنه ينال منا شيئا آخـر لا اعـرف كيف اسميه ، شيئا من الرغبة فى الاحتفاظ بـه ليـؤدي هذا الدور .. وهذه الرغبة منا فى الاحتفاظ بهـذا الرجل ليست هي الاعجاب أو التقدير اللذين ينالهما منا ذلك الصانع المبدع القديم ولكنها شيء آخر انها تجريد منا لهذا « الصانـع » من روحانيتـه لانـه تنـازل عنهـا بمحض اختياره حين « جمـد » على قوالب الحضارة المعروفة فاصبحت رغبتنا فى الاحتفاظ به كرغبتنا فـي الاحتفاظ بما تصنع يده من تقليد سواء بسواء ، ومـا رغبتنا هذه فى الاحتفاظ بـه الا رغبـة فى الابقاء علـى

« القدوة الحسنة » التي هي صلة ما بين تراثنا الماضي وبين ما نسعى اليه من تجديد وتطوير وابتكار وابداع ، فهذه المرحلة ليست هي الابداع نفسه وانما هي مرحلة اعداد .

ويختلف الامر بعض الشيء بالنسبة للصناعة العصرية او « التصنيع » كما يقال في هذه الايام ، ذلك ان التصنيع قد توجهت اليه انظار سائر الدول في العالم واصبح ميدانا للتسابق السريع والمنافسة المدهشة حتى ليصعب علينا عمليا وماديا مجرد التقليد والنقل ، فالذي يقع ،اننا عندما نحاول ان نقلد تعوزنا المادة واذا وجدنا المادة افتقرنا الى ما نسميه بالفنيين، ومع ذلك فقد يجيء نقلنا مشوها وتقليدنا غير مطابق للاصل ، فهذه المرحلة كما نرى مرحلة « بدائية » مشوهة لا تصلح بحال من الاحوال اساسا للتجديد ولا للابداع .

لذلك كان لابد ان تسبق هذه المرحلة الابتدائية مرحلة اعداد وتصميم لايجاد الامكانيات المادية والمعنوية من اموال وفنيين للسير ببلادنا قدما نحو التصنيع .

فاذا حولنا وجهتنا نحو الابداع « العلمي » و « الفني » وجدنا الحالة قريبة بعض الشيء مما تحدثنا عنه في ميدان الصناعة قبل قليل ، فالعلماء والادباء واهل الفن في بلادنا مقتدون ، والاقتداء ليس عيبا بالمرة بل هو مرحلة اعداد للابداع اذا لم يقف المقتدي عند حد الترجمة والنقل والاجترار الذي لا لذة فيه ولا جديد .

فاصطلاح « بضاعتنا ردت الينا » الذي رمانا به الاديب ابن العميد ليس الا تصويرا صادقا لحالة الاجترار هذه الحالة التي نحن عليها اليوم ، وان كنا نحب — من اعماقنا — ان نتعالى على هذا الوصف الذي وصفنا به عبر العصور ، فالعالم منا قد « جمد » — هو الآخر — على قوالب الحضارة القديمة وذاب في النصوص والتزم المذهب بل وربما رضي لنفسه براي رجل واحد من رجال المذهب وجده اقرب منالا في الفهم والادراك .

ليست هذه هي الاسوة الحسنة وما هي بالقدوة الصالحة أبدا ، وانما المثل الاعلى في ذلك كله مشاركة عملية ، ومعالجة للنصوص ، وقدح الفكر بالفكر ، والاخذ باسباب الجديد والبديع من كل شيء .

واهل الفن عندنا « محافظون » ونسخ طبق الاصل « للملحون » و « الاندلسيات » و « الموشحات » و « الشرقيات » ، واهل الادب في نوم هادىء مستكين ، يعكف الواحد منهم على مقالته شهرا من زمان وعلى بحثه عاما يستكمل فيه سائر شروط الاجادة الفنية لدرجة اقفر معها الجو من كل اثر ادبي أو فني وخلت دنيا الادب من كل انتاج جميل ، اللهم الا نثارات هي الى حديث الجريدة والصحافة اقرب منها الى حديث الادب والقصة والشعر .

ولسنا نجد لمشاكل الابداع الفني والعلمي والصناعي هذه مثلا الا في « الوعي » العميق لخطورة المشكلة .

والوعي شعور مستنير بحقيقة الوضع ، واتجاه صارم متحفز الى الامام ، ويلاحظ انه في امكان كل واحد منا ان يتصور الوضع ويشعر بسلامته او خطورته فيسمى عندئذ واعيا ، ولكن المثل الانساني الاعلى للوعي ان يكون هذا الشعور العميق بالمشكلة ذا اثر قوي في المواطن بحيث يحفزه على العمل بمقتضى هذا الوعي .

وكلنا في هذه البلاد واعون لعمق المشكل الذي نعيشه ولكننا لا نملك من العزم ومن التصميم ما يجعلنا في مستوى المثل الانساني الاعلى في هذا المضمار، ولعل الآباء واهل الراي منا هم الذين يناط بهم اداء هذا الدور الاخلاقي والتربوي في مجتمعنا الحديث .

ان مهمة « التوعية » او نشر الوعي بالمعنى الامثل لا توكل عادة الا لاصحاب الضمائر النقية الذين يمهدون السبل امام الناشئة للعمل والاقتداء والتاسي .

ومتى انتشر الوعي وتوفرت وسائل الابداع امكن للامة ان تشق طريقها نحو التقدم والازدهار .

والتقدم مسير الى الامام في مختلف الميادين المادية منها والحضارية ، فلكي تتقدم الامة يجب ان تثبت مواقع اقدامها على الارض ، وتتمركز في المحيط الدولي جاعلة لها فيه موقعا يناسب مكانتها كأمة مكونة من مجموعة من البشر تستند الى ماض قريب أو بعيد بمقوماته ومقدساته ، وتعيش على رقعة من الارض فيها خيرات وارزاق واقتصاديات ظاهرة او مخبوءة تحت الارض يقتضيها التقدم ان تستغلها احسن استغلال وتتصرف فيها بما يلائم موجوداتها من الطاقات البشرية الحية والامكانيات الحضارية التالدة .

من هنا نلاحظ ان فترة ما بعد الاستقلال المغربي باحداثها وملابساتها لم تسمح لامتنا ان تثبت مواقع اقدامها على الارض اذ ان طاقاتنا البشرية لازالت تعاني من الجهل صروفا والوانا تمنعنا من الانطلاق والتقدم كما ان رواسب ايام الاحتلال لا زالت تقف عقبة في وجه التطور وجميع امكانياتنا الاخرى المادية منها والحضارية مادة خام وارض بكر لم يتح لها بعد ان تشهد نور التخطيط والتصميم الذي يشيع فينا الخير والرفاء .

لذلك تبقى القدوة الحسنة في هذا المضمار املا من آمال الامة العزيزة وهدفا من اهدافها البعيدة المرجوة الى جانب الحكمة والكرامة والخلود .

ذلك ان المثل الاعلى الحكمة كامن في العلم الواسع الغزير والاطلاع الذي لا يعرف الحدود والاختراعات النافعة للامة وللانسانية ، والتنظيمات الجبارة الهادفة الى البناء والتعمير .

والحكمة كذلك « ضالة المؤمن انى وجدها التقطها » فهي عرق وجهد وتعب ونصب وكد مستديم، فما اقل ما تجد رواد الحكمة في بلادنا لصعوبة الطريق.

فهي اذن هدف عزيز مقرر ، ومبدا لايدور حول ضرورته خلاف ولكن العمل له والسعي اليه من الامور التي تكلف غاليا وتحتاج الى اكثر من جهد لبلوغه .

اما الكرامة فهي ميزة الانسان الآدمي الذي يتصف بالمعرفة والعقل ومحبة الخير .

واذا كان العقل والعاطفة مصدرين لكرامة الانسان فان هذه الكرامة لا تتوفر له الا باستعمال معرفته العقلية وعاطفته الانسانية فيما يعود عليه وعلى الاخرين بالنفع والعزة ، ففي الطبيعة وسائل خير وامن وقوة لا يحركها الا العقل ولا يستفاد منها الا بالعقل ولا يمنعها من التسلط والطغيان والظلم الا القلب الانساني الكريم ذو العاطفة الرحيمة .

ونحن المغاربة كرماء مبدا ، عقلاء اصالة ، رحماء عادة ، ولكن المبدا والاصالة والعادة كل هذه صفات لم تجد لها مكانتها من نفوسنا وعقولنا واصبحت في حاجة ماسة الى شيء من الصقل والتهذيب والتوجيه .

والمغرب — بعد هذا — امة خالدة تاريخيا ، فاين نحن من خلود العصر الحاضر الذي تغيرت فيه مقاييس المجد والبقاء والخلود .

وعندي انه لا خلود في هذا العصر لامة ليس لها من مشاركة في التراث الحضاري للانسانية من حيث العلم والفن والصناعة والثقافة ، ولا يحسب لها حسابها من حيث القوة والمنعة والجاه .

الامة الخالدة في هذا الزمان هي التي تعتصم بمثلها الاعلى الذي لا يعرف التبعية كيفما كانت اشكالها وصورها ، هذا المثل الذي هو حرب على التفسخ والانعزالية والانانية .

ان المؤمن بمثل اعلى صاحب دعوة في هذه الارض لا تهدا له نفس ، ولا يقر له قرار الا اذا عاشت دعوته عزيزة الجانب موفورة الكرامة سائدة حاكمة .

اننا في مرحلة انتفاضة لتجديد مثلنا الاعلى وتهذيبه وصقله ، ونحب لمثلنا الاعلى هذا ان يكون مغربيا اولا منبثقا من وعي جماهيرنا وابداع شعبنا ثانيا مؤمنا بالحكمة والكرامة ثالثا .

وكل مثل يؤخذ به عن غير هذه الطريق ، ويراد به غير هذه الاهداف انما هو مثل سوء لا مثل خير ، ومثل ادنى لا مثل اعلى .

سلا — عبد الله الكامل الكتاني

العلمانية واللاعلمانية

للاستاذ المهدي البرجالي

واقع الفكرة العلمانية في المجتمعات العربية الحديثة ـ النخبة العربية وصلتها بالتيارات الفكرية والعقائدية المعاصرة ـ النخبة العربية بين العلمانية واللاعلمانية ـ بعض الاعتبارات الاساسية التي يقوم عليها المبدأ العلماني في مجال النظر والتطبيق ـ العلمانية وقضية الديموقراطية الاجتماعية ـ العلمانية وقضايا التعايش الدولي ـ اللاعلمانية من حيث المبدأ العقائدي الاسلامي والامكانيات الايجابية المتوافرة لها بهذا الصدد .

من بين القضايا التي تثير قدرا كبيرا من الاهتمام عند التعرض لموضوع الحركة العربية الحديثة ، قضية الصلة بين هذه الحركة ؛ وبين مفهوم العلمانية كما يدين به البعض ، واللاعلمانية كما يرى ذلك آخرون والذي يظهر بادىء ذي بدء ، ان جانب الفكرة الاولى ـ فكرة العلمانية ـ لا يزال منحصرا في نطاق محدود جدا ، سواء من حيث الاوساط الفكرية التي تدعو لها او من حيث التاثير الذي يمكن ان تكون قد احدثته على بعض قطاعات الراي العام في البلاد العربية ، ويعترف كثير من العلمانيين بهذه الحقيقة مستنتجين ذلك من واقع الاحوال العقلية والوجدانية التي تسود مختلف انحاء العالم العربي ، وما تقوم عليه هذه الاحوال من تاثر عميق بالفكرة الدينية الشاملة ونتيجة لذلك فانه من اليسير دائما التاكيد بان مبدا العلمانية لم يتخذ بعد اي سبيل للتجذر تجذرا حقيقيا ومؤثرا في جوهر الحركة العربية المعاصرة ؛ وكما يلاحظه المراقبون فان مختلف الدساتير التي صدرت خلال السنوات العشر الاخيرة سواء في مشرق العالم العربي او مغربه ؛ تتضمن تاكيدا حقيقيا لهذه الظاهرة، واثباتا للراي القائل بان العقلية العربية لم تتوافر لها الدواعي اللازمة لاحتضان مبدا العلمانية ، وذلك على مثال الصورة التي يقوم عليها هذا المبدا في الغرب ، واهم ما يلاحظ في هذا الشان التنصيص الذي تتضمنه هذه الدساتير على ان الاسلام هو دين الدولة ، مع احترام مبدأ الحرية الدينية بالطبع بالنسبة لجميع الاقليات العقائدية الاخرى ، ومثل هذا التنصيص يوجد مثبتا سواء في الدستور المغربي او التونسي او العراقي او غير هذه الدساتير ، ومن اهم الماجريات التي حدثت بهذا الصدد خلال الفترة الاخيرة ، صدور المبادىء العامة التي تقوم عليها الانظمة التوحيدية بالشرق العربي ، واشتمال هذه المبادىء على مضمون الاعتراف بالدين الاسلامي كحالة عقائدية رسمية ، ومن غير شك ، فان اقرار مبدأ من هذا النوع ليس مما يتفق مع الفكرة العلمانية التي يحتضنها البعض على نحو أو آخر ، الا أن العامل الاساسي في مجموع هذا الامر كله، هو واقع الفكر العربي على وجه العموم ، هذا الفكر الذي لا يبدو مستعدا بدرجة كافية لاستقبال عناصر الفكرة العلمانية ، والاستنتاجات التي تقوم عليها هذه هذه الفكرة سواء بوجه او بآخر .

ولا يتجاهل العلمانيون في العالم العربي ، اهمية هذه الحقيقة القائمة .. حقيقة الفارق الكبير بين النظرية العلمانية في خطوطها الكبرى من جهة ، ومؤثرات الفكر الديني في المجتمع العربي من جهة اخرى الا انهم ينتهون مع ذلك الى التاكيد بان العلمانية لابد أن تجد سبيلها في الاخير الى التاثير على وجهة الفكر العربي سواء في مجالات التنظيم السياسي او الثقافي، او في غير ذلك على صورة من الصور ، وبالنتيجة لذلك فانه من الجائز جدا ان يصبح لها دور مهم وبعيد المدى في مستقبل الحركات التوحيدية التي تقوم هنا وهناك في مختلف انحاء العالم العربي ، ويحظى ـ بهذا الصدد

ان الانتلجنسيا العربية المتفتحة على معطيات التطور العالمي ، وقضايا التقدم الانساني المعاصر ، يمكنها ان تؤدي ادوارا على درجة من الاهمية في هذا المضمار وذلك باسهامها في بث الروح العلمانية داخل المجتمعات العربية ، وتمديد الافق امام الفكر العلماني لكي يحدث تأثيره الحقيقي على العقلية العربية ، وعلى أوسع نطاق ممكن .

والواقع ان مساهمات النخبة العربية في مجال التطور الفكري والحضاري العربي ، ما فتئت تكتسي اهمية بالغة حقا ، وما زالت تبدو كعامل من اقوى العوامل التي اثرت في سير هذا التطور ، واكسبته قوته التقدمية المبدعة ، الا ان الذي نستطيع ان نلاحظه على هامش هذه الحقيقة ايضا ان النخبة العربية لم تستطع اية جماعة منها ان تحدث من التأثير ما يعاكس روح الامة العربية في الصميم ، ومما يتناقض مع شخصيتها ومقوماتها الاساسية او يحولها عن اتجاهها التاريخي الحتمي : لقد بدرت في افق العالم العربي منذ بداية عصر النهضة الحديثة ، بوادر مختلفة ومتلاحقة ، قام بها او دعا اليها هؤلاء او اولئك من بعض رجال الطليعة الفكرية والتوجيهية بالبلاد العربية، وتمخضت هذه البوادر شكل حركات ثقافية او اجتماعية او سياسية او غير ذلك ، واتخذ بعضها صورة منظمات حقيقية ذات برامج واهداف ووسائل بل ان منها ما وصل فعليا الى اصطناع بعض الاحداث المدوية في التاريخ العربي الحديث ، وملأ بذلك جزءا من سجل الوقائع والتطورات التي تميز هذا التاريخ وتلون صوره ومظاهره كذلك كان الامر في مختلف الدعوات القومية الضيقة التي عرفها الشرق العربي خلال العقود الثلاثة الماضية ، هذه الدعوات التي تقوم في اسسها على محض الخيال التاريخي المجنح ، وتتجاهل بجانب ذلك معطيات الواقع الماثل وما يحتويه هذا الواقع من حقائق انسانية وجغرافية وتطورية ، وكذلك كان الشأن في المذاهب والنحل الاخرى ذات الصبغة الفلسفية والاجتماعية من شيوعية ونيهليستية ووجودية وغير هذه المذاهب التي وجد لها في كثير من الحالات دعاة ومروجون على الصعيد العربي ، والتي تعتمد في جملتها على قيم ومعطيات تتناقض احيانا وطبيعة التطور التاريخي للامة العربية وتتنافى مع اهداف الرسالة العربية الى العالم : وسواء في هذه الحالة او الاخرى — حالة القومية الضيقة او المادية الاممية او غير هذا وذاك فان الطليعة التي تلقفت بعضا من ذلك او كله ؛ ثم ما فتئت تحاول البحث من خلال هذا عن سبل ومناهج وعوامل ومقاييس يتحدد بها سلوك العرب في سيرهم الحتمي نحو التطور ، ويتكيف بها المصير العربي على امتداد ابعاده وآفاقه ، ان النخبة العربية التي آثرت هذا الطريق واختارته دون غيره ، لم تستطع مع كل ذلك ، ان تنتهي منه الى احداث التأثير الجذري المنتظر على صعيد الحياة الثورية العربية ولم تتمكن — بالتالي — من الاندماج في هذه الحياة الثورية بالصورة اللازمة ، والتفاعل معها على المستوى الذي تتطلبه احوال من هذا القبيل ، ومن ثم فقد بقي نشاط هذه النخبة محدودا جدا في مجالات نظرية معينة ، واستمرت العزلة قائمة بينهما وبين المجتمع العربي المتطور ، ولم يكن لها ان تساهم في حركته — ان كان هناك من اسهام — الا بدرجة متضائلة حقا بل وتافهة في بعض الاحيان ، ولا يعني كل هذا ان الحركة العربية الحديثة ، توجد متقوقعة في نطاق ضيق جامد ، لا تتعداه مطلقا ولا يمكن لها نتيجة لذلك ان تتفاعل مع حقائق العالم ، وعوامل التحول والتجديد التي تجتاح آفاق الحياة في ربوعه ، ان ظاهرة التفتح في روح الحركة العربية الحديثة هي ظاهرة واضحة ملموسة ، ندرك آثارها جيدا من دراسة اتجاهات هذه الحركة ، وتطورها العام في مختلف الميادين ، غير ان هذا التفتح الانساني وان كان يدفع الحركة العربية الى مجال التصادي مع جملة الافاق الماثلة في العالم المعاصر، الا انه لا يبيح لها ايضا الانسلاخ البسيط المجرد من كل اطاراتها الانسانية والتاريخية والانفلات من مجموعة الحقائق والملابسات التي تلتصق بمحتواها الجوهري على نحو او آخر ؛ فمن الضروري حقا للحركة التطورية العربية ان تسعى الى تحقيق مزيد من مظاهر التلاؤم والتكيف مع الآخرين ، وذلك باعتبار الاطار الحضاري العالمي الذي تعيش في محيطه العام ، ومن اللازم ان تتفاعل معه على مختلف النسب والمستويات ، لكنه ليس من الضروري — من جهة اخرى — ان يكون هذا التلاؤم ايضا مجرد تهافت ساذج وغير هادف ، ربما لا يكون هناك احيانا ما يبرره او يجيز وقوعه ، ومما يلاحظ بهذا الشأن ان المراحل التي ما فتئت الحركة العربية تقطعها منذ عشرات السنين لم تكن كلها من صنف هذا التهافت الساذج او مما يوازيه ، لقد امتزجت الحركة العربية — طوال فترات تطورها الى عهدنا الحاضر — امتزجت بمعطيات فلسفية وانسانية عديدة كان منها ما هو نابع من صميم هذه الحركة ،

وعميق استمداداتها الذاتية والتاريخية ، وكان منها ما هو آت عن طريق التفاعل مع الحركات الاخرى فى العالم ، والافكار والتيارات التي تسود حياة الشعوب الاخرى الا ان الحركة العربية — وقد التقت بهذه المعطيات الفلسفية والعقائدية المختلفة — فانها لم تتاثر بها فى النهاية الا بصورة نسبية ، ولا يبدو انها تسير فى سبيل الامتزاج بها الا بقدر ما يتفق ذلك مع خصائص الفكر العربي ، وطبيعة الاتجاه القوي الذي يتبناه هذا الفكر فى مجالات الاصلاح الذاتي ، والتعاون الدولي والتضامن الانساني واشياء كثيرة من هذا القبيل ، لقد التقت الحركة العربية من قبل مع بعض الافكار « الشوفينية » التي سادت اوربا فترة من الدهر وما زالت تؤدي الى ضيق الافق الفكري وازدياد التصلب العنصري والتطرف القومي بكل حيثياته ونتائجه ، لكن كل هذا لم يساهم — بصورة عميقة — فى تعديل اهداف الفكرة العربية وتجريدها من محتواها الليبرالي الانساني والاتجاه بها الى سبيل آخر غير سبيل الديمقراطية التعاونية المتحررة ، سواء فى المستوى الداخلي او على الصعيد الدولي العالمي ، والتقت الحركة العربية أيضا بالافكار الرائجة حول المادية التاريخية وما يتصل بذلك من نوازع الصراع الطبقي الداخلي والتطاحن العالمي الشامل ، الا ان ذلك كله لم يكن له ليؤدي الى (تشييع) الحركة العربية واخضاعها لحتمية المنطق الذي يتبناه الجدليون الماديون فى اوربا والعالم ، بل كان هناك على العكس من ذلك مجال لبروز حقيقة الحركة التعاونية العربية والحياد الايجابي وما يرتبط بهذه المفاهيم من افكار واختيارات قد تختلف فى كثير من الاحيان مع عدد من النتائج التي ما زال ينتهي اليها الماركسيون واشياعهم فى القديم والحديث ، واتصلت الحركة العربية بجملة افكار وقضايا وعروض من هذا القبيل ، والواقع انها لم تنته بعد الى اساس قار وحاسم حول هذه القضايا بالذات وذلك بما فيها قضية الاشتراكية والحرية والديموقراطية وغير هذه المسائل الضرورية بالنسبة لبناء اي مجتمع سواء كان مركبا او بسيطا ، لكن المهم فى الامر ان مرحلة التقليد والاتباع الساذج الذي كانت تتميز به المراحل الاولى من نشوء الحركة العربية الحديثة — المهم ان هذه المرحلة قد وقع اجتيازها الآن على نحو او آخر ، وقد اصبحت النخبة العربية — متجاوبة مع مقتضيات البيئة الفكرية والعقائدية الجديدة — اصبحت هذه النخبة او كثير من ممثليها على الاقل — تبدو شديدة الحرص على ممارسة حقها فى الانتقاء والانتخاب ، واختيار السبل الاكثر تلاؤما مع حقيقة الوجهة الحضارية العربية ، والمقومات التي ترتكز عليها هذه الوجهة ومدى استعدادها للاشعاع على نفسها وعلى العالم ، وهناك — ولا شك — بعض الاختيارات ذات الاهمية القصوى لا تزال معروضة امام النخبة العربية فى بعض الاقطار العربية ، ومن بين هذه الاختيارات ما يتصل بقضية العلمانية واللاعلمانية والصلات التي بين ذلك ، وبين تصور المفهوم التقدمي المتطور للجماعة العربية الحديثة ، وقد يكون هناك من بين الاوساط الطلائعية العربية ، من يتخذ موضوع العلمانية هذا اساسا حيويا لكل اتجاه يهدف الى تطوير الجماعة العربية المعاصرة ، واكسابها القدرة على مواجهة الحقائق الاجتماعية والسياسية التي يفرضها واقع العالم الحاضر ، الا ان هناك داعيا للتفكير بان هذه الوجهة من النظر — وان كانت تشكل اساسا عقائديا حاسما عند البعض — فانه ليس من اللازم — بالضرورة — ان تكون صالحة دون غيرها لاقامة مفهوم صحيح عن طبيعة البناء السياسي والاجتماعي عند العرب المحدثين والصبغة العصرية التي يتعين على هذا البناء ان يكتسبها على وجه او آخر ، ليس من اللازم فعليا الاعتماد — بصورة خاصة — على جملة تاكيدات من هذا الباب ، وليس من الضروري كذلك اعتماد هذه التاكيدات فى التوصل الى استنتاجات واختيارات حاسمة ، تتعلق باتجاه الحركة العربية الحديثة ، وما يرتبط بهذا الاتجاه من ملابسات فلسفية وعقائدية ووجدانية ، فالاختيارات التي يمكن التوصل اليها فى هذا المجال لا يسوغ ان تعتمد على مجرد التفكير العابر ، القائم على بعض النماذج المترائية هنا وهناك فى مختلف انحاء العالم ، بل انه من اللازم — لكي تكون هذه الاختيارات معقولة وصحيحة فى اسسها ونتائجها — ان تكون هناك ضرورة من الضرورات الاصلاحية تبيح احتضان هذه الاختيارات وتطبيق مقتضياتها بصوره او اخرى — على البيئة او المجتمع المراد اصلاحه ، يجب ان يكون هناك اذن هدف ايجابي لابد منه لتبرير اي اختيار يمكن اتخاذه، والا كان هذا الاختيار مجرد تهافت واعتباط ربما يكون من قبيل العبث احيانا ، وفى مثل الحالة الماثلة امامنا فان الهدف المتوخي بوجه او بآخر ، لابد ان يكون اما متركزا حول الاصلاح الداخلي ، وتحقيق اوضاع ذاتية اكثر منطقية ونفعا واستمرارا ، واما ان يكون هذا

الهدف منصبا على قضايا العلاقة مع العالم الخارجي وذلك عن طريق العمل على تحقيق قدر من الانسجام مع بقية شعوب العالم ، والتعاون معها في خدمة مصالح السلام والتعايش والتقدم والازدهار .

فهل من الجائز ان نطرح قضية العلمانية واللاعلمانية ضمن هذه الاعتبارات ونحاول ان نجد من خلال ذلك اساسا صحيحا للتقدير والتقييم : تقدير الحقائق والملابسات التي ترتبط بهذه القضية على صورة او اخرى ، وتقييم جانب الضرورات الممكنة التي يجوز ان يكون لها تاثير في الموضوع ، والنتائج الموضوعية التي لابد ان يسفر عنها كل ذلك ؟ وبتعبير مغاير : هل هناك دواع عقلية وموضوعية تقتضي من رواد المجتمع العربي الحديث ايثار جانب العلمانية دون غيرها ، كعنصر من عناصر النهج التنظيمي الاجتماعي الذي يحتذونه ؟ وهل تبدو العلمانية — بهذا الاساس — كمبدا ايجابي وحيوي ، لامكانية انجاح هذا النهج ، وايصاله الى مداه ، او بالاقل اجتناب العراقيل النفسانية والعقائدية التي قد تحول دون نجاحه ؟ من اليسير جدا — عند استعراض اقوال العلمانيين العرب — ان نعثر على كثير من التقارير والتاكيدات المنصبة على ضرورة النهج العلماني في بناء المجتمع العربي الحديث ، والاهمية القصوى التي تنتظر من اتباع هذا النهج ، باعتباره الاداة اللازمة لتعصير الوجود العربي ، واصطناع مركز مناسب ومتطور للجماعات العربية في عالم اليوم ، لكن على ما تتبنى تاكيدات مطلقة من هذا القبيل ؟ وهل من الممكن ان تقوم كقاعدة انطلاق الى تنظيم بعض جوانب الحياة العربية ، والاسهام في تطويرها على صورة من الصور ؟ من القضايا التي يدلي بها في معرض الدلالة حول هذا الموضوع : ان العلمانية هي السبيل الطبيعي المعقول لتحقيق المفهوم الديموقراطي للدولة ، وان اي بناء ديموقراطي دولي (Etatique) لا يمكن ان يتحقق الا عن طريق العلمانية ، وذلك بالتزام الدولة لموقف الحياد ازاء العقائد الدينية الماثلة ، وامتناعها عن تبني او احتضان اية واحدة من هذه العقائد اطلاقا ؛ ومما لا ريب فيه ، ان من بين مظاهر الديموقراطية العادية ، ان تكون الانظمة والمؤسسات الاجتماعية مستمدة وجودها من روح الجمهرة الغالبة وقائمة على قاعدة الاستجابة لاهداف السواد الاعظم من الناس ، والانسجام مع مصالحهم واتجاهاتهم المشتركة فهل تستجيب العلمانية — في واقع الامر — لجملة الاهداف والمثل التي تحتضنها الكتل الاجتماعية الغالبة في مختلف البيئات العربية الراهنة ؟ ليس من شك في ان الروح السائدة عند هذه الكتل ، تعكس اتجاها عقائديا قويا اذا حللناه الى اصوله الاولى فاننا نجده اقرب ما يكون الى الايحاء باللاعلمانية منه بالعلمانية ، فالولاء الديني في البيئات العربية والاسلامية اقوى منه في اية بيئة اخرى في العالم ؛ هذا مع غض النظر عن مفهوم الدين وما يحمله من مقتضيات متباينة عند عموم الجماعات العربية الراهنة ، ولم يسبق — من جهة اخر — ان كان الدين في المجتمع العربي موضوع الجدل والصراع المستمر مثل ما كان عليه الشأن في غربي اوربا ووسطها منذ اوائل عهد النهضة الحديثة واذا كان هناك من صراع عقائدي بين العرب في القديم فانه لم يكن يتناول روح الدين من اساسه ، بقدر ما كان يتناول بعض اوجه الفكر الفلسفي او الصراع السياسي الممتزج احيانا ببعض المفاهيم الدينية العابرة ، كالخلاف الذي كان ينشب كثيرا بين الشيعة وغيرهم ، طوال عصور متلاحقة من التاريخ الاسلامي ، اما الصورة التي كان يتخذها الصراع الديني في اوربا ، والتطورات التي وقعت في ميدان العلاقات بين البابوية من جهة ، والاباطرة الاوربيين ثم رجال الثورات السياسية والعلمية في ايطاليا وغيرها من جهة اخرى ، فكل ذلك يختلف في كثير — من الصور — عن الاحوال التي تميز بها تاريخ الحياة الدينية وتطورها عند المسلمين في مختلف العصور ، وفي وسع المرء حقا ان يقيم بعض اوجه المقارنة ، بين ما كان يتم في كثير من العهود الاسلامية من استغلال للدين في غير مناحيه الطبيعية واستخدامه احيانا لتركيز اوضاع فكرية وسياسية واجتماعية منحرفة ، واحاطته — من اجل ذلك — بهالة من مظاهر الطقوسية المتجمدة — في وسع المرء ان يعقد اوجها للمقارنة بين ذلك ، وبين بعض الاحوال الدينية التي سادت اوربا فترة من الدهر ، وكانت تتميز بشدة وطاة الكنيسة على حياة الفكر والمجتمع ، وتحالفها كثيرا مع القوى السياسية القائمة ، ومشاركتها في الاستبداد بمقدرات الافراد والجماعات على اختلاف الصور والمستويات ، على انه اذا ما كان هناك سبيل لنوع من المقايسة من هذا القبيل ، فان هذه المقايسة تفقد كل مبرراتها اذا ما سرنا بعيدا في تقدير الحقائق والظروف التي ما فتئت تحيط بتطور النظرة الى المؤسسات الدينية وانعكاسات ذلك على تفكير الناس ومشاعرهم سواء في الشرق الاسلامي من جهة ، او الغرب المسيحي من جهة اخرى ، فعند

الغربيين مثلا فان النظام الكنائسي المعقد ما زال معتبرا دائما بصفته المنفذ الاساسي لاي تفتح على العالم الديني ، ودنيا اللاهوت بمجموع ما ينطوي عليه ذلك من مضامين ومحتويات ، ولهذا فقد تجذر في عقلية الثائرين على هذا النظام ، ان السبيل الطبيعي للتخلص من مساوئه ، هو السعي الى الانفصال عنه سياسيا واجتماعيا وثقافيا وغير ذلك ، واقامة الحاجز هكذا بين السلطة الزمنية ، متمثلة في الدولة ومؤسساتها من جهة ، والمراجع الدينية متمثلة في النظام الكنائسي وتوابعه من جهة اخرى ، وقبل ان يتم الانفصال بهذه الصورة في بعض دول اوربا وفرنسا بصورة اخص ، وذلك في اعقاب الثورة الفرنسية سنة 1789 ؛ قبل ان يتم ذلك بذلت محاولات اصلاحية بعيدة المدى لتحقيق مبادىء معينة للاصلاح الديني والكنائسي على نطاق واسع ، فقد قامت البروتستانتية و (الكلفانية) اوائل القرن السادس عشر كمظهر نزوع الى التجديد في العقلية والطرائق الكنائسية المتبعة ، غير ان هذه المنازع الاصلاحية الثورية لم تؤد ـ بالفعل ـ الى تحقيق التطور الذي كان من الجائز ان يتم بصورة عامة شاملة ، وعلى المستوى الذي يشمل الحياة الدينية عند عموم المسيحيين في العالم ؛ لم يتم هذا الاصلاح الثوري على صعيد المسيحية كلها ـ كما كان يبدو ذلك ممكنا من حيث المبدأ ـ الا ان هذا الاصلاح قد مس كثيرا من قطاعات الراي العام المسيحي في العالم ، وادى في النهاية الى تكريس الانفصال المذهبي الذي اصبح يميز باستمرار بين المسيحية الكاثوليكية من جهة ، والمسيحية البروتستانتية من جهة اخرى ، ومن النتائج الحتمية لذلك : ان بقيت الكنيسة التقليدية تمارس سلطتها بصورة واسعة ، وتستأثر في كثير من المناطق بربط وشائج الصلة بين الناس والعالم العلوي بل انها اضطرت ـ مرة اخرى ـ في سبيل الحفاظ على ذلك ـ الى اللجوء لنظام محاكم التفتيش في مكافحتها للبروتستانتيين وانغمرت ـ وهي تمثل السلام والاخوة والمحبة ـ في خضم المطاحنات الدموية التي عرفتها اسبانيا وهولاندا وانجلترا وفرنسا والمانيا طوال القرن السادس عشر ، هذا الى الهوة الاجتماعية التي ما فتئت تفصل بين رجال الدين انفسهم ، اذ كانوا منقسمين الى طبقتين اجتماعيتين متمايزتين ، طبقة المستأثرين بالجاه والنفوذ والترف ، وطبقة المحرومين ، وليس للمرء ان يدعي بان هذه الاحوال والظواهر كانت فقط الباعث الوحيد للدعوة التي انطلقت فيما بعد ـ عبر اوربا ـ مقتضية العمل على الفصل بين الدين والدولة ، واقامة العلمانية كفلسفة ومنهج وعقيدة ، فهناك حقا الكثير من الملابسات التاريخية الاخرى التي لا ترتبط بموضوعنا والتي كان لها دائما ـ ولا شك ـ اثر متفاوت في كل هذه الامور ، الا ان الحقيقة التي لا تقبل المراء بهذا الشان هي ان بروز الكنيسة باعتبارها الباب الوحيد للصلة بين العالم المادي والروحي عند المسيحيين ، ثم ما صاحب تمتعها بهذا الامتياز من مؤاخذات سلوكية واجتماعية واعتقادية وغير ذلك ، ما كان يؤدي اليه اصطدامها مع الآخرين من حروب ومطاحنات رهيبة ، استغرقت التاريخ الاوربي لفترة طويلة من الدهر ، كل ذلك كان لابد ان يكون له تاثيره في المآل الذي بلغته الفكرة الدينية عند كثير من الاوربيين ونشوء النظرية العلمانية عند بعضهم على نحو او آخر ، والحال في البلاد الاسلامية يختلف عن هذا في كثير من الاوجه ، فقد كانت تقوم في كثير من عصور التاريخ العربي الاسلامي اوضاع دينية منحرفة ، كانت تبدو في اغلب الحالات ، مناقضة لروح الدين ومنطوقه ومفهومه ، والوعي الفكري الذي حمل لواءه بعض الثوريين الاصلاحيين ، كابن قيم الجوزية ، وابن تيمية في القديم ، وابن عبد الوهاب ، وجمال الدين الافغاني في العصر الحديث ـ كان يهدف في جملة ما يهدف اليه تطوير هذه الاوضاع ، واقامة اصلاح ديني حقيقي ، على اوسع نطاق ممكن ، والظاهرة التي يلاحظها المرء بهذا الصدد هي ان حركة الاصلاح الديني التي عرفها العالم العربي خلال القرون المتتابعة ، لم تكتنفها ـ على وجه العموم ـ نفس الظروف والتطورات التي احاطت بحركة الاصلاح الديني في اوربا اوائل عهود النهضة وفي بداية العصور الحديثة ، ويبدو ذلك في مظاهر عديدة من بينها :

1 ـ ان حالات الحروب الاهلية والصراع الدموي الرهيب الذي نشا عن الاصطدام بين الكاثوليكية من جهة ، والبروتيستانتية ومشتقاتها كالكلفانية من جهة ثانية ، مثل هذه الاحوال تختلف كثيرا عن ردود الفعل التي كانت تحدثها الدعوات الاصلاحية الدينية في العالم العربي ، هذه الردود التي كانت اقل عنفا وشدة ،مما اعتاد الاوربيون ان يمارسوه دهرا طويلا ، واذا كانت هناك من ردود فعل سلبية كانت تقع على صورة او اخرى في العالم العربي فانها لم تكن تعدو نطاق الاضطهاد الذي كان ينصب على بعض

الاصلاحيين ويصيبهم بنصيب متفاوت من الضـرر والسوء ، هذا الى بعض الحروب الصغيرة ، كالتـي حدثت في الحجاز على اثر الدعوة الوهابية ، ولكنها لـم تتجاوز نطاقا ضيقا ومحدودا جدا .

2ـ ان الصراع الجزئي المحدود الذي سببتـه الحركات الاصلاحية الدينية بالعالم العربي ، لم يساعد على النيل من مكانة الدين في اعين الجمهور ، والكثيـر جدا من أوساط النخبة المفكرة ، مثل ما حدث بالنسبة الى الاوربيين ، وعلاقتهم بالدين المسيحي على وجـه العموم ، ولعل من الاسباب الداعية الى ذلك عدم وجود سلطة معينة تنحصر في نطاقها ـ كما هو الشأن بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية ـ جميع منافذ الدين ووسائلـه ونتائجه ، وتتركز بين القوامين عليها مختلف سبـل الجزاء والغفران وما هو من قبيل ذلك الامر الـذي ساعد ـ بحق ـ على ترك المجال متفتحا بصـورة سهلة امام انتشار الدعوات التعديلية والاصلاحيـة واعان ـ بالتالي ـ على الاعتقاد بانه ليـس من اللازم تحقيق الاصلاح عن طريق العلمانية ، وما آليها ، بل ان هذا الاصلاح ممكن جدا ، عن طريق ازالة الجمود الذي ران على الفكرة الدينية ، حقبـة طويلـة من الدهـر ، وتخطي الحواجز التي ما فتئت تحول دون ذلك سواء على نحو او آخر ، وهكذا فقد ادت التطورات الفكرية الدينية التي رجت العالم العربي الى غير السبيل الذي ادت اليه في دنيا الغرب اذ ان الامر قد افضى في النهاية ببعض الشعوب الاوربية الى اعتنـاق العلمانيـة بمـا تقتضيه من فصل شامل للدين عن الدولة ، ثم ما ساعد عليه كل ذلك من تعبيد السبيـل امام قيام الدول الملحدة التي لا تكتفي بمجرد التزام الحياد امام الديـن ، بـل تتعدى ذلك الى درجة العمل على مناوأة الفكرة الدينية عن طريق الدعاية المنظمة ، والتعليم الموجه ، ولو بصورة غير مباشرة ، واذا كانت الامور قد تمت بهذه الصورة في بعض اقطار الغرب ، فان ما آل اليه الحال في العالم العربي يناقض ذلك مناقضة ملحوظة ، فقـد تركـزت الدعوات الاصلاحية المتعاقبة في ربوعـه حـول مبـدا الرجوع الى طريق السلف الصالح في فهم الدين وتصوره وتطبيقه ، وتلك فكرة ـ وان كانت تختلف المدارك في استيعابها وتقييمها على صورة من الصور فانها قـد ادت الى نوع من التطور والانبعاث الديني ، شمل كثيـرا من الآفاق العربية واعان على تلقيح النهضة العربيـة الحديثة بعناصر قوية وذات فاعلية ، وليس بامكـان المرء حقا ان يدعي ان النهضة العربية الحديثة تكتسي صيغة معينة تجعل منها نهضة اسلامية حقيقية لهـا كامل الاتصال بجميع خيوط الدعوات الاصلاحيـة الدينية التي عرفها العالم العربي سواء خلال العصـر الوسيط او في بداية العهود الحديثة ، كما انه ليـس للمرء ان يدعي ايضا ان العلمانية لا توجد مؤثراتها على اية نسبة من النسب في طبيعة الاتجاهات العامة التـي تسود كثيرا من البلدان العربية ، سواء على صورة او اخرى ، بيد انه يجب الاعتراف ـ من جهـة اخرى ـ ان الفكـرة العلمانيـة بكامـل تسلسلهـا المنطقـي ، والاستنتاجات التي تقوم عليها ـ على اعتبار ما لهـذه الاستنتاجات من حيثيـات فلسفيـة وايديولوجيـة وتطبيقية ـ ان الفكـرة العلمانيـة قياسـا على هـذه الاعتبارات كلها ، لا توجد لها جذور عميقـة في مجـال الفكر العربي الحديث ، ولا تؤثر على مراجع هذا الفكر والاوساط التي ينتسب اليها ، الا بصورة محدودة جدا وعلى مستوى سطحي في كثير من الاحيان ، اما السواد الغالب من الكتل العربية ، فالملاحظ بكل بساطة انه لا يتفعل مطلقا بمبدا الفكـرة هذه ، ولا يبـدو انـه ذو استعداد حقيقي للتجاوب معها والتأثر بمقتضياتها على اي منحى من المناحي .

ويقر عدد من العلمانيين العـرب بوجـود هـذه الحقيقة الا انهم لايجدون في ذلك ما يدعو الى التخلـي عن فكرة العلمانية باعتبارها عاملا مهما له قيمته فـي تحقيق مبدا الديموقراطية في المجتمع العربي الحديث وقد راينا ـ فيما يتصل بقضية الديموقراطية وعلاقتها بمبدا العلمانيـة ـ ان هذا المبدا ـ كمـا تعنيه بعـض اقطار العرب لا يلتقـي مطلقـا مـع الاتجـاه الفكـري والوجداني الذي يؤثر في سير المجتمعات العربية بـل انه يتناقض احيانا مع بعض ما تحتضنه هذه المجتمعات من قيم معنوية وتقاليد فكرية،وما تعتمده من موضوعات ومقاييس في مجال النظر والتقييم ، واذا كانت هـذه القيم والتقاليد والمقاييس لا تستدعي بقوة العقـل او بقوة الواقع ايثار العلمانية كاطـار من اطـر التنظيـم الجماعي فانه من الجائز حينئذ التأكيـد بـان الفكـر العربي ـ على وجه العموم ـ لا يستجيب لمبدا حيـاد الدولة ازاء الدين ، لان هذا الفكر ذاته قد نما اول مـا نما ، وترعرع بداية ما ترعرع في ظلال الحقيقة الدينية وضمن الاطار العام للفكـرة الحضاريـة الاسلاميـة ، وبالتالي ، فانه لم يستمد كثيـرا من عناصـر نمـوه واستمراره الا من وجود هذه الحقيقة ، وما تشتمـل عليه من مضامين ومحتويات ، ذات الاثر البعيد فـي

اعماق الزمان والانسان واذا ما توافرت لدينا دواعي التسليم بهذه الظواهر الاساسية فانه سيكون في امكاننا ان نشدد على جانب الحقيقة الآتية : وهي ان اتباع سبيل العلمانية لا يمكن مطلقا ان يتفق مع مقتضيات النهج الديموقراطي في مجال تطور المجتمعات العربية الحديثة ، وذلك لسبب اساسي وبسيط : وهو ان التفكير السائد في هذه المجتمعات لا يستجيب — في اعماقه لمبدا العلمانية الاوربية ، ولا يستقيم مع هذا المبدا الا بصورة لا تكاد تذكر ، اي باستثناء بعض الاوساط المعدودة التي لا يتوافر لها قدر كبير من التجاوب مع اغلبية التيارات الفكرية الكبيرة التي تستأثر بالذهن العربي العام ، وكم يحاج العلمانيون العرب المحدثون — في خلال هذا الموضوع ، بقضية الاقليات والطوائف غير الاسلامية ، التي تشكل اجزاء من الكيان العربي ، وتلتحم بالمجتمعات العربية القائمة سواء على وجه او آخر ، وهم يرون — في معرض حججهم هذا — ان الديموقراطية الحق ، لا يمكن ان تجد لها مجالا صحيحا للتطبيق الا بحماية وجود هذه الاقليات من الناحية الفكرية والعقائدية والثقافية ، وضمان مصيرها الاتجاهي الخاص ، وذلك فقط عن طريق العلمانية ، وما تقتضيه من الدولة من التزام الحياد الديني المطلق ، اي تامين قدر متساو من التجاوب والانسجام بين الدولة من جهة والطوائف والجماعات المختلفة التي تنتسب اليها وتقوم على ولائها من جهة اخرى ، لكن السؤال الذي لابد ان يفرض نفسه على هامش هذا الموضوع هو : هل يقوم الانتماء الديني للدولة ، كعائق يحول بينها وبين الاستجابة لرابطة الولاء التي تصلها بجميع الافراد والجماعات المنتسبين اليها ؟ واذا جاز ذلك من حيث الواقع ، اي من خلال ما يبدو احيانا من مظاهر العلاقة السيئة بين بعض الدول والطوائف المتساكنة في حظيرتها ، اذا جاز ذلك من حيث الواقع من هذا النوع فهل يجوز كذلك حتى من الناحية العقلية والمبدئية ؟ ان الانتماء الديني من حيث المبدا لا يقتضي من الدولة تحيزا طائفيا او عنصريا ، هذا مبدا ثابت وصحيح على مختلف المستويات ، وصحته تستلزم بالطبع صحة الامكانيات المبدئية والعقلية التي تقوم عليها حالة التوفيق بين ديموقراطية الدولة من جهة وانتسابها الديني من جهة اخرى ؛ اما مظاهر التحيز التي تستبيحها بعض الدول ضد طوائف او جماعات من ابنائها ، فالامر في ذلك يعود الى نوع من الشذوذ يتميز به سلوك هذه الدول لسبب او آخر ، ولا يحصل هذا الشذوذ دائما من جانب الطوائف ذات

الاغلبية العنصرية او العقائدية ، بل ان هناك حالات معينة يقع الاستبداد فيها من جانب الاقليات الدينية اذا ما توافرت لها حالة السيطرة على الاكثرية الساحقة من السكان المنتسبين الى ديانة اخرى ، ومن بين الامثلة على ذلك ، ما يقع من حين لآخر بين المسيحيين والبوذيين في بعض اقطار الشرق الاقصى حيث يشتد الصراع بين الاقلية والاكثرية هناك ، وتتشعب جوانبه الى مدى بعيد ، وهذا يدل على ان الامر في انجاح الديموقراطية داخل بلد من البلدان لا يقتضي بالضرورة ان تتخلى الدولة عن انتمائها الديني لفائدة جماعة او اخرى من الجماعات المتساكنة فيها ، اذ ان ذلك — ولو انه يقع على وجه من الوجوه ، فانه لا يساعد دائما على تحقيق الديموقراطية اذا كانت الفكرة الديموقراطية باهتة او منعدمة ، وبواعثها المادية والانسانية تكاد تكون غير متوافرة ، انما العبرة في كل ذلك هو ان يكون الانتماء الديني للدولة وهو منبثق عن واقع تفكير الاغلبية ، ان يكون هذا الانتماء قائما على قاعدة ليبرالية متسامحة ، والا يؤدي في اية حالة الى اضطهاد الاقليات الدينية الاخرى ، وانكار حقوقها القائمة على اي مستوى صحيح ومعقول ، وهذه — كما اسلفنا — النقطة الحساسة والاكثر اهمية في جميع القضايا من هذا القبيل ذلك انه من المتواتر جدا ان نجد دولا غير منتمية من الناحية الدينية ، وتعتبر علمانية نظريا وواقعيا ايضا ، وبالرغم عن ذلك ، فان الاقليات في حظيرتها تتعرض احيانا لحالات التمييز او حتى الاضطهاد القائم على اساس الفروق الدينية او العنصرية او غير ذلك ، كما يمكننا ان نجد دولا اخرى ذات انتساب ديني علني يقره دستورها الخاص ، ومع ذلك فانه تتوافر للاقليات الدينية في حظيرتها ظروف من الاستقرار والمساواة الفعالة ، سواء على الصعيد الاجتماعي او الاقتصادي او السياسي او ما الى ذلك ان ما يمكن استخلاصه من مجموع هذه الملاحظات هو ان قضية الديموقراطية لا يجب ان ترتبط حتميا ، — كما يبدو للبعض — بتوافر الاتجاه العلماني عند هذه الدولة او تلك ، فالصلة بينهما ليست ضرورية وجوهرية في جميع الحالات ، بل ان اشتراط العلمانية من اجل تحقيق بعض مظاهر الديموقراطية — ولو كانت هذه العلمانية لاتتجاوب مع شعور الاغلبية وتفكيرها — ان هذا الاشتراط من شأنه ان يجر الى جملة من التناقضات البارزة تتمثل في نبذ مفهوم الاكثرية والاقلية ، واغفال الاعتبارات المنطقية التي يقوم عليها هذا المفهوم ، سواء من الناحية النظرية او العملية ،

هذه بعض من جملة الملابسات التي تثيرها العلمانية او اللاعلمانية في المجال الدولي الداخلي اي بين العناصر المختلفة والمتساكنة داخل اطار الدولة الواحدة ، اما ما يحدثه ذلك على صعيد العلاقات الخارجية أي بين الدول المتعايشة على سطح الكوكب في مضمار العلاقات بينها من النواحي المختلفة ، فان ما يردده العلمانيون بهذا الصدد هو ان الانتساب الديني لاية دولة ربما يقودها في بعض الحالات الى الحد من طواعيتها في الاتصال بالشعوب الاجنبية ، ويجمد من مرونتها في مجال التفتح على العالم ، والارتباط بقضاياه ومشاكله طبقا لما يقتضيه واقع الاتصالات الانسانية الحاضرة وتتطلبه مقتضيات التفاعل العالمي المعاصر ، وبغض النظر عن الوهن الذي تتسم به هذه النظرية من الناحية الفكرية والمبدئية ، فان في وسع المرء ان يلاحظ كيف انه لا يجوز اتخاذ مثل هذا الاعتراض قاعدة ثابتة والاستدلال بها في مختلف مظاهر العلاقات العالمية الواقعة ، ان الجمود الذي تصاب به دولة ما في حياتها العالمية والدولية ، ياتي – في الواقع – كنتيجة طبيعية لجمود عقلية هذه الدولة ، او عدم استعدادها العام التعاطي مع الآخرين ، والاسهام في حياة العالم اسهاما ذا هدف وفاعلية ، ومن التمحل والانتحال حقا ان تنسب مظاهر جمود من هذا القبيل الى طبيعة الانتماء الديني للدولة ، وارتباطها بعقائدية دينية معينة ، اللهم الا ان تكون هذه العقائدية في جوهرها ذات روح جامدة مجمدة ، وباعثة في ايحاءاتها على العزلة والخمود والتواكل ،وحينئذ يكون من المعقول ان توجه المؤاخذات ضد هذه العقائدية بصورة خاصة ، وليس ضد مبدا الانتماء الديني بوجه عام .

وبعد ، فان السؤال الذي عرضنا له في غضون هذا الموضوع هو : هل هناك من ضرورات ملحة تقتضي ايثارا مبدا العلمانية بالنسبة لاية دولة عصرية تقدمية، وتجعل هذا المبدا عاملا حتميا من عوامل تحقيق الديموقراطية والحرية والتكافل ؟ .

ولا نستطيع الزعم بان ما بسطناه في معرض الجواب عن هذا السؤال يقوم بالكفاية في القاء الاضواء على هذا الموضوع من اسسه ، واقامة الحجة ، وافرة البنية ، متسعة المدلول ، حول مختلف المشاكل التي تثيرها قضايا كبيرة من هذا القبيل ، فالموضوع – كما يلاحظ ذلك – هو على اقصى ما يكون سعة وتبحرا ، لانه يقتضي – من اجل التوفية له – القيام باستعراض مختلف المسائل والاحكام الناشئة عن حالة الانتماء الديني للدولة ، واستقصاء عناصر التوفيق بين حالة الانتماء هذه ، وبين الجوانب الكثيرة التي تشكل علاقة الدولة بسكانها الاصلاء والطارئين وكل ذلك على ضوء روح الدين من جهة ، والمعطيات السياسية والقانونية والنفسانية والاجتماعية للواقع العالمي القائم من جهة اخرى ، وعلى الرغم من ان المجال الآن لا يفي بايراد مختلف النقط العديدة المتعلقة بهذه القضايا الا ان امامنا – مع ذلك – معطيات اساسية استعرضنا ملامح منها في خلال هذا الموضوع ويمكننا على اساسها ان نقدر قضية العلمانية واللاعلمانية ، لا على انها قضية فلسفية تجريدية ، بل على العكس من ذلك باعتبارها قضية حياتية ، تتصل بواقع اتجاه الدولة ، وجوانب حياة سكانها ، ومن ثم فان السؤال ينصب حول هذه الجوانب الحياتية ، وصلة العلمانية او اللاعلمانية بها وقد راينا كيف توجه الاعتراضات بهذا الشان ، متركزة حول ما يمكن ان يكون هناك من تناقض بين انتساب الدولة الديني من جهة ، وبين واجباتها من جهة اخرى نحو مختلف الكتل والطوائف المتباينة دينيا ، والمنتمية اليها على حالة او اخرى ولا جرم ان مشاكل الطوائف والاقليات في العالم الحاضر ، تعود باغلبيتها الى اسباب سياسية واقتصادية وعنصرية ودينية ايضا ، ولكننا عند ما نستعرض صور هذه المشاكل في الصعيد العالمي العام ، فاننا قد لا نجد للعلمانية او عدمها تاثير مهم في اثارة مختلف هذه المشاكل وتطويرها ، والوصول بها الى ما هي عليه ، على ان دينية الدولة ، اذا كانت تعني في جوهرها التنكر لحقوق الطوائف والاقليات الاخرى ، فقد يكون هذا هو الشأن ، بالنسبة الى عقائديات دينية اخرى غير الدين الاسلامي الذي يعرف عنه الكثير في مضمار التسامح والتساوي وضمان الكرامة الانسانية في اطارها الفردي والجماعي فمن المؤكد ان اللاعلمانية ضمن النطاق العقائدي والسلوكي الاسلامي يمكن ان تشكل في العصر الحاضر اساسا لطريقة ليبرالية صحيحة في مضمار العلاقات الطائفية الدينية والعنصرية داخل المجتمع الواحد ، كما انه من المؤكد ان تساعد هذه العقائدية على ابراز صور ايجابية معبرة عن صور التعايش الانساني الخير ، القائم بين الدول والكتل الدولية ، سواء منها المتجانسة في الانظمة والمناهج ، او المتباينة في ذلك على درجات تختلف من حيث النسبة او النوع ، وهذه الامكانيات الموجودة في نطاق العقائدية الاسلامية من شانها ان ترفع عن الفكرة العلمانية مختلف الاعتبارات النفسانية والعلمانية التي تجعل منها في نظر البعض

حتمية ضرورية واساسية ، ولا يحدو المرء الى أطلاق هذا التأكيد مجرد تعصب في العقيدة او الراي ، او اعتداد بالموقف المتخذ ، او مسايرة للافكار الرائجة ، فقد داب منذ بعيد كثير من المفكرين غير الاسلاميين على ترديد نظريات عديدة حول المعطيات الديموقراطية الاسلامية ، وحول سلامة الموقف العقائدي والسلوكي الاسلامي في مجال العلاقات الانسانية على اختلاف المستويات .

ولا يجب في الواقع ان نعتد كثيرا بمثل هذه النظريات والمواقف ، ونتهزها ذريعة الى مساندة وجهات نظر شخصية وموالية للعقائدية الاسلامية ، والاستناد الى ذلك بالتالي في تدعيم موقف هذه العقائدية امام المعترضين عليها ، ليس من ضرورة لسلوك سبل انتهازية من هذا القبيل بل ان هناك — عوضا عن ذلك — مجالا متفتحا دائما لمناقشة التفاصيل حول مثل هذه المواضيع ، واعتماد المنطق العلمي ، والعقلانية الدقيقة في مساندة الحقائق التي يمكن استخراجها على هذا الاساس والنفوذ من ذلك الى اتخاذ مواقف في الاخير لها نصيب أوفر من عناصر الموضوعية والوضوح والاستقرار .

سلا — المهدي البرجالي

تصحيح أخطاء مطبعية

وقع في المقال المعنون بـ (سابق البربري ثانية) المنشور بالعدد السابق من هذه المجلة بقلم الاستاذ عبد الله كنون بعض اخطاء مطبعية احببنا التنبيه عليها لاهميتها بالنسبة للفائدة المرجوة من المقال .

في العمود الاول :

وهي مما كان عندي لهذا البحث ، **الصواب : كان معدا عندي ......** ولسهولة الروابط **الصواب : الربط .**

في العمود الثاني :

وخطيب ، **الصواب : وخصيب (بالصاد) .**
مثبت أن الرقي ، **الصواب : أنه الرقي .**
جنح اليه ابي حاتم ، **الصواب : ابن ابي حاتم .**
من طريق ذكرهم ، **الصواب : من طريق من ذكرهم** ، المطاطي ، **الصواب : المطماطي**

في العمود السادس :

بالتصر عي تشوف ، **الصواب : بالنص على تشوف** . اني تحدثت ذات مرة ؛ **الصواب : تحدثت عنه ذات مرة .** Oh ! La ! La ! الصواب o La ! La !

في العمود العاشر :

وبارك الله علي دعائه ، **الصواب : دعانه (بالنون).**
اما تشديد ياء ثانية في العنوان فهي من عمل الخطاط .
معذرة للكاتب والقراء .

أفغانستان الحديثة

بقلم: جورج لينزوسكي

ترجمة وعرض: الأستاذ عبدالله السرايري

دراسة مستخلصة من كتاب « الشرق الاوسط فى الشؤون العالميـة » بقلم جورج لينزوسكي

ظهرت افغانستان كدولة مستقلة على يد احمد شاه سنة 1747 ، وهو ينتمي الى قبيلة « صادوزاي » احدى بطون القبيلة الدورانية الكبرى ، حيث شمل حكمها بلوخستان وكاشمير والبنجاب ، وكانت عاصمتها كاندهار ، ثم تحولت العاصمة بعد ذلك الى كابول فى عهد حكام صادوزاي حين اخذت رقعتها تتقلص خصوصا فى الهند كنتيجة للتوسع الاستعماري البريطاني ، فشمل هذه الاقاليم الهندية سنة 1809 عقب توقيع اتفاقية بين بريطانيا وافغانستان ، وذلك لتفادي احتمال أي هجوم يقع من روسيا او ايران ضد الهند .

تقوم المصالح البريطانية بافغانستان على اساس الاعتبارات الاستراتيجية ، ذلك ان الموقع الطبيعي لافغانستان ينحصر فى سلسلة هندوكوش ، وهي تمتد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي مخترقة طول البلاد ، وسلسلة هندوكوش مورد عظيم لمياه النهرين اندوز واوكسوس « عمزداريا » . كما ان الحدود الطبيعية للهند تقع فى الشمال الغربي ، ولبريطانيا مصلحة حيوية تهدف الى منع أي قوة عدوانية تحاول السيطرة على هذا الحاجز العظيم . فمنذ ان حاول نابليون ان يتوسع بالهند عن طريق روسيا وبريطانيا لا يغمض لها جفن عن هندوكوش ، فكانت حائرة بين امرين ، فاما ان تحتل هندوكوش وتلحق افغانستان بالهند ، واما ان تسيطر على هذه المنطقة بكيفية غير مباشرة ، كأن تكون بها دولة تابعة لنفوذها . ولمدة سبعين سنة خلت (1809 — 1879) ظلت السياسة البريطانية تتردد بين الاختيارين ، ففي الجبهة المجاورة للحدود الايرانية كانت بريطانيا بافغانستان تقف موقف المهاجم ، في حين بقيت روسيا تحاول أن تتخذ من الايرانيين رأسا للرمح . ومثل هذه السياسة التي نهجتها بريطانيا دفعتها الى شن حربين ضد الافغانيين الاولى فى 1839 — 1842 والثانية فى 1878 — 1879 ويرجع سبب هاتين الحربين الى التقارب الروسي مع الحكام الافغانيين الذين لم يرغبوا فى التبعية البريطانية . ففي خلال الحرب الاولى احتل البريطانيون كابول ، واسروا الامير الاكبر محمد موسى اسرة براكزاي وهي « فرع آخر من القبيلة الدورانية » ، ثم ارجعوه الى الحكم ، وضمنوا حياده فى النزاعات التي تقع بين روسيا وبريطانيا .

وفى الحرب الثانية احتلت القوات البريطانية جزءا كبيرا من البلاد ، فأبعدت الامير شير علي ذا الميول الروسية . وفى سنة 1879 عقدت معاهدة جانداماك مع خلفه يعقوب حيث تنازل فيها لبريطانيا عن موقع كبير ببلاده ، وقبل اشراف بريطانيا على العلاقات الخارجية مقابل اعانة سنوية تقدمها بريطانيا الى افغانستان تقدر بـ 60.000 جنيه استرليني .

ثم قام نزاع مسلح ضد بريطانيا عقب كل هذه التغييرات التي توصلت بها بريطانيا ثم اثرها تنازل يعقوب عن الحكم . ففي 20 يونيو 1880 تم الوصول الى حل مع خلفه وهو عبد الرحمن (1880 — 1901) فخولت له بريطانيا الاشراف على شؤون البلاد الداخلية ، وسحبت فرقها ، ولكنها اصرت على ان تملك زمام العلاقات الخارجية ، وتعهدت بالدفاع عن البلاد من اي اعتداء خارجي ، وتأكدت هذه الالتزامات ايضا فى 21 مارس 1905 مع الامير حبيب الله

(1901 — 1919) فأصبحت المساعدة المادية البريطانية تبلغ فى عهده 160.000 جنيه استرليني .

ظلت بريطانيا منذ (1880 — 1920) تتبع سياسة الاشراف غير المباشر على كل شؤون افغانستان ، فتخلصت من الفرق البريطانية ، واضحت تتمتع باستقلالها الداخلي التام ، وكان يحرم على افغانستان اثناء استلامها للمساعدة المادية من (حكومة الهند البريطانية) ان تتعامل مع اية قوة اخرى باستثناء بريطانيا .

النزاع على الحدود

بعد ان تعهدت بريطانيا بالدفاع عن افغانستان ضد اي اعتداء خارجي يقع عليها ، ينبغي ان نعرف اين تقع اهمية الحدود الافغانية فى هذه الفترة ، ذلك ان التوسع الروسي بلغ حدته خصوصا من 1870 — 1880 فى آسيا الوسطى ، فقد الحقت روسيا اقليم ميرف فى سنة 1884 بترابها . واضحت روسيا منذ ذلك الحين تشكل خطرا على افغانستان ، وهي لكي تحتل واحة بنجده ، كان لابد ان تخترق الحدود الافغانية ، وكان رد الفعل البريطاني قويا امام التحركات الروسية لدرجة اصبح التلويح بالحرب متبادلا بين الطرفين ، وفى سنة 1885 توصل الطرفان الى حل لمشكلة الحدود الشمالية ، وذلك بابرام اتفاقية بينهما، واضيف اليها تحديد آخر سنة 1895 خصوصا في منطقة بامير بالطرف الشرقي لافغانستان ، ثم حلت بعد ذلك مشكلة الحدود الايرانية الافغانية ما بين افغانستان وبريطانيا بواسطة اتفاقية تدعى اتفاقية ديوراند .

كان حل مشكلة الحدود عملا ايجابيا ، كما كان سببا للاحتكاك بين الدول المعنية ، سيما وان موقع الحدود كان رديئا وغير عملي . ذلك ان اغلب الطرف الشمالي للحدود يتجه اتجاها لا يحمي نهر اكسوس ، او يتخلل المعبر المسطح ، وهو لهذه الحالة لا يمكن اعتباره حدا استراتيجيا ، بل اكثر من هذا ؛ انه قسم منطقة تسكنها قبائل من جنس واحد الى قسمين: القبائل التركمانية والاوزبيك ، ومن ناحية اخرى قبائل التاجيك ، وكانت قبضة افغانستان على هذه القبائل فى وضع دقيق . اما ما يقال عن الحدود الجنوبية انها تشكل حدودا ذات موقع استراتيجي ، فهي تتموج بين قمم الجبال ، ولكنها لسوء الحظ تقسم المنطقة المتجانسة السكان فتترك بالناحية الهندية ملايين قليلة من القبائل الافغانية الخالصة ، وهذه الخاصية الجبلية تجعل الرقابة على هذه القبائل من الصعوبة بمكان .

كانت روسيا تبدي استياءها لاشراف بريطانيا على العلاقات الخارجية لافغانستان ، ولكنها قبلت ذلك فى الاتفاقية الانجليزية الروسية التي عقدت فى 1907 حيث اعلنت بان افغانستان خارجة عن نفوذها . وظلت افغانستان محايدة اثناء الحرب العالمية الاولى وحاول الامير حبيب الله عبثا ان يتفاضى عن اشراف بريطانيا الخارجي ، فيتصل ببعثة المانية تحت رئاسة نيبدبرمايروفون هانتيج ، الا انه لم يجرؤ على عقد اتفاقية مع المانيا نظرا لان بريطانيا كانت له فى الهند بالمرصاد .

التحرر من الوصاية البريطانية

فى 20 فبراير 1919 اغتيل حبيب الله ، ثم عين اخوه نصر الله خان زعيم الحزب المحافظ والمعادي لبريطانيا ، وكان مؤيدا فى ذلك من طرف رجال الدين والقبائل . عارض هذه التولية ابن حبيب الله الشاب امان الله الذي كان حاكما على كابول ، وبمساعدة الجيش تمكن من خلع نصر الله فى 27 فبراير ، ثم اصدر الحكم بالاعدام على نصر الله لانه تعمد قتل ابيه تسببت هذه الحركة فى غضب الطوائف الدينية ، فطائفة تعارض فى صمت ، واخرى تعمل بايعاز من بريطانيا . ثم أعلن امان الله الجهاد فى مايو على بريطانيا وذلك بأن تكتسح جنوده الهند . وكانت هذه هي الحرب الثالثة كما سميت قد ازعجت بريطانيا ، سيما وقد قامت قلاقل بالبنجاب ، ومع ذلك تمكن الانجليز من مجابهة امان الله ، فوجهوا فرقهم الى الحدود الشمالية الغربية معززة بسلاح الطيران ، ومنها الى كابول وجلال باد ، وانتهت بارغام الافغان على التراجع الى اراضيهم ، ثم طلب امان الله الاستسلام فاعطي له . لم تكن للانجليز رغبة فى احتلال بلاد الافغانيين من جديد ، وانما فضلوا — نظرا لارتباطهم بالهند — أن تبقى افغانستان حاجزا فاصلا ما بين الهند وروسيا . وكلفت هذه الحرب حكومة الهند 16.000.000 جنيها استرلينيا . لهذه الاسباب اغتبط الانجليز بعقد معاهدة مع الامير الافغاني فى 8 اغسطس 1919 سميت بمعاهدة راولبندي ، فهي بالرغم من انتصارها على الافغان ، تنازلت عن موقعها الممتاز فى افغانستان ، ثم اعترفت باستقلاله التام فى الداخل والخارج . واعتبر ذلك امان الله انتصارا على بريطانيا . وفى سنة 1919 توجهت بعثة افغانية الى

موسكو ، تلتها بعثة روسيــة الى كابــول . وحيث ان الوطنية الهندية المناوئة لبريطانيا كانت تجد عطفا لدى الافغانيين ، فقد امكن لبعض الزعمــاء الهنــود مثــل مهاندرايرتاب ، وبركة الله الذين كــانت لهم جمعيــة تحظى بعطف الســوفيات فى طشــقند ، هؤلاء الزعمــاء جعلــوا مــن افغانســتان قاعــدة لتحدي الاستعمــار البريطاني ، خصوصـا بعد ان رفض امــان الله طلــب البريطانيين فى طردهم من بلاده ، ثم استدعــى امــان الله القائد التركي جمال باشا لينظم الجيش الافغاني ؛ وكان قدوم جمال الى كابول مما شجع بريطانيــا على عدائها لتركيا ، وذلك حتى لا تخفف من بنود معاهــدة سيفرس التي عقدت مع تركيا بعد الحرب العالميــة الاولــى .

وفى 28 فبراير 1921 عقدت كل من افغانستان وروسيا معاهدة الصداقة ، ونصت على تبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين ، وفتح القنصليات بكل مــن حيرات ، وميمينا ومزار الشريف وكاندهار وجانزى ، ثم منحة سنوية تقدمها روسيا تقدر بمليــون روبــل ذهبــي ، وتقديم الذخيــرة الى افغانســتان ، وتاسيــس الخط التلغرافي ما بين كوش ، وهيرات ، وكاندهــار ، وكابول . كانت هذه المعاهدة بمثابة صدمة لبريطانيا ، خصوصـا بعد ان اكــدت على استقــلال افغانســتان ، فاضحت البعثات الافغانية ترسل الى العواصم الاوربية لطلب الاعتراف بها ، ثم جلب الفنيين الاجانب وتاسيس علاقات تجارية . وفى أثناء زيارة البعثة الافغانية الــى لندن اصرت على أن تفاوض وزارة الشؤون الخارجية البريطانية بدلا من مكتب الهنــد . ولقي المبعــوثــون الافغانيون معاملة فظة خصوصـا من كاتب الدولة فــي الشؤون الخارجية البريطانيــة اللورد كيــرزون . لم يلبث امان الله أن اعاد النظر فى علاقتــه مــع روسيــا البلشفية ؛ حيث اذعنت بعض الدول فى آسيا الوسطى لزحفها ، اذ ذاك بدأ يميل الى بريطانيا ، فاستقبل بعثة بريطانية فى 22 نوفمبر 1921 وعقد معها معاهدة جديدة اكدت فيها بريطانيا للمــرة الثانيــة على استقــلال افغانستان التام ، واعترفت بالحدود القائمــة ، وتــم بينهما التبادل الدبلوماسي والقنصلــي ، ثــم منحت افغانستان تسهيلات جمركية بالهند ، وتــم التعــاون بين البلدين لتحقيق السلم فى المناطق القبلية القريبــة من الحدود . والحت بريطانيا على امان الله ، فوافــق على عدم السماح للسوفيات بانشاء قنصليات فى كــل من جانزي وكاندهار الواقعتين على الحدود الهندية ؛ وتقرر توقيع المعاهــدة باسم الحكــومة البريطانيــة لا باسم حكومة الهند مع موافقة بريطانيا على ان تتوجــه اليــه باسم صاحب الجلالــة .

العلاقــات السوفياتية الافغانية

كان ميل امان الله الى روسيا اكثر من ميله الــى بريطانيا ، ففي 22 يونيو 1921 عقد معاهدة الصداقة مع تركيا وايران . اما بالنسبة الى تركيا فقد فتــح الباب على مصراعيه للضبــاط الاتــراك والمعلميــن والخبراء . ويعاد الى الاذهان بان تركيا فى هذا الوقت كانت تتعاون مع السوفيات ، ولم تكن علاقتها حسنة مع بريطانيا ، وهذا ما جعل امان الله يستأنف علاقتــه مع السوفيات ؛ فسمح لهم بتاسيس فرع الشركــة التجارية التابعة للحكومة (فينيشتورج) ثم منحهــم امتيازا لانشاء فرع لمصرف «بنك» الدولة الســوفياتي . وقبول خدمات الخبراء فى عــدة مشاريــع : كتاسيس القوة الجوية الافغانيــة ، وارسال الملاحيــن الافغــان للتدريب فى طشقند . وفى سنة 1926 عقد ميثاقا مــع روسيا للحياد وعدم الاعتداء ، واعقبته فى سنة 1927 اتفاقية جوية تربط بين كابول وطشقند ، ثم افتتحت بعد ذلك مفاوضات للاتفاقيات التجارية .

الواقع ان امان الله لم يقدم جسمه وروحه كلية الى الروس ، ففي بعض المناسبات كانت سياستهمــا تنحرف بعض الشيء ، فقد اراد ان يجعل مــن نفسه المدافع عن الاسلام ، وخصوصا عندما وقعت كــل من بخارى وكيفا فى قبضة الســوفيات . لقد خشي اميــر بخارى أن يلقى حتفه على يد البولشفيك ، فالتجا الــى افغانستان ، وأحسن وفادته امان الله ، بل ذهب ابعد من ذلك فقام بنشاط لصالح الثورة الباسماشية التــي زعزعت النفوذ الروسي فى آسيا الوسطى سنــة 1922 واراد ان يخلق تحالفا فى وسط آسيا تحت زعامتــه . وللوصول الى هذه النتيجة ؛ ركز قواته على امتــداد الحدود الشمالية ، واســس اتصالات بينه وبين الزعيم الطوراني اينيفيــر باشا ، وما كــان من السوفيات الا أن طالبوه باعلان الحياد ، وسحب الفرق الافغانية مــن مناطق الحدود ، واستجاب امان الله لذلك ، وتوفــي اخيــرا العاهــل الافغاني ..

ووضعت وفاة امان الله حدا لتلك التصميمات فى موضوع وسط آسيــا ، وبقيت ثــورة الباسماشــي مستمرة الى سنة 1931 .

وفي سنة 1925 قام خلاف كبير بين الحكومة السوفياتية وافغانستان حول منطقة تقع على نهر الاوكسوس ، ولم تكن هذه القضية ذات اهمية ؛ فتنازلت الحكومة السوفياتية لافغانستان ساحبة قواتها من هذه المنطقة . اعتبرت حكومة امان الله ذلك انتصارا لها ، والواقع أن الاتحاد السوفياتي حقق بدبلوماسيته التي تبعها مع امان الله تركيزا لنفوذه بافغانستان ؛ وخاصة ضد التوازن البريطاني عن طريق استعمال كثير من المساعدات وانواع التعاون التي ظهرت بين البلدين ، ومن جهة ثانية استغل الواقع الذي كانت عليه الحدود في الشمال سيما وان اقلية لا تتكلم التركية كانت تحت النفوذ السوفياتي على شكل حماية ، ومن ناحية اخرى ، لقيت دعايتهم بعض الصعوبات الى درجة بعيدة في العشرينات الاولى من هذا القرن لدى التجار الافغان والهنود الذين يقدمون على أسواق بخارى وطشقند ، فتعرضوا الى مضايقات البولشفيك ، وتنوقلت اخبار تلك المعاملة ولهذا لم يحقق السوفيات ما ارتجوه من دعايتهم . بل قبلوا في الاخير ان يقدموا تعويضات عما فقده التجار الافغان .

وجدت الدعاية للمبادىء الشيوعية بعض الاصداء لدى قبائل التركمان وكذا التاجيك والاوزبيك في الحدود الافغانية ، الا ان الروس من جهة اخرى استطاعوا بانشائهم للسكك الحديدية ومدهم للاسلاك الكهربائية أن يجدوا تأثيرا خاصا لدى الافغان . ولقد قوى التبادل التجاري بين البلدين امتداد السكك الحديدية الى كورش ترميذ في الحدود الافغانية ، وخدم في نفس الوقت الاغراض الاستراتيجية السوفياتية .

كان هدف الدعاية السوفياتية يقوم على تشجيع نمو الحكومات الذاتية او الحركات الانفصالية الممكن استخدامها ضد الحكومة الافغانية عند الاحتياج ، وفي نفس الوقت كان الروس يهدفون من توسعهم الاقتصادي في افغانستان وخصوصا الاقاليم الشمالية ان يجعلوها معتمدة على روسيا باعتبارها مركزا تجاريا ، وهذه الحالة شبيهة بشمال ايران حيث نلاحظ في نفس الحالتين أن سلاسل الجبال تفصل عاصمة البلاد عن مناطقها الشمالية فتصبحان سلاحا في يد الروس .

العلاقات الافغانية البريطانية

لم يكن امان الله قلقا على موقفه ، ثم انه لم يعتبر ذلك نذيرا كافيا لاتخاذ الاجراءات المضادة او التحالف مع بريطانيا ، فهو بالعكس اتجه اهتمامه الى الحدود القلقة في الجنوب ، والتي تسكنها قبائل الباتان . ونشير دائما الى ان هذه المنطقة القبلية كانت مقسمة تقسيما اصطناعيا يجتازها خط ديورانت ، حيث يقع بموجبه الفصل بين الحدود الهندية الافغانية . وهناك اشارة مميزة اخرى لمنطقة قبائل الباتان انها لاتخضع لحكومة الهند ، بل يقع الاشراف عليها من بعض المراكز العسكرية البريطانية المتفرقة ، وبواسطة الموظفين السياسيين ، فكانت مهمة دقيقة بالفعل ، ومع ذلك فان الحكام بكابول كانوا يعارضون أي مظهر للاشراف البريطاني على هذه المنطقة . يضاف الى ذلك ان هؤلاء الحكام كانوا يتمسكون باستمرار نفوذهم وسلطتهم على قبائل الباتان ، ولهذه السياسة دواعي دفاعية وهجومية ، ذلك ان الحكام الافغانيين اتخذوا من هذه القبائل سلاحا موجها ضد بريطانيا ان كان ذلك ضروريا ، ومن جهة ثانية فان اختراق رجال هذه القبائل للحدود الافغانية كان مصدر ازعاج الى الحكومة الافغانية نفسها ، وأمام هذه الحالة اعتبر الحكام الافغانيون من الحيوية بمكان ان يدعموا صداقتهم مع زعماء هذه القبائل .

وبما ان امان الله عرف بعدائه لبريطانيا فقد كان يجرب دائما استخدام القبائل المذكورة الامر الذي نتج عنه ان طاقة بريطانيا العسكرية كانت كلها مركزة في هذه المنطقة المضطربة .

اصلاحات واضطرابات

في الوقت الذي حاول امان الله ايجاد توازن بين النفوذين البريطاني والروسي ؛ فقد كان يكد في اعداد بلاده للتحضر ، وطمح ان يقتدي بمصطفى كمال زعيم تركيا . ففي 9 ابريل 1923 اعلن القانون الاساسي ، واتبعه باصلاحات تهدف الى جعل البلاد عصرية في جميع المرافق ، ثم اتجه بعد ذلك الى الفنيين والمستشارين من جميع الجنسيات للاستعانة بهم ، فاقتدى بالشاه رضا بايران ، فجلب الالمان باعتبارهم يمثلون « القوة الثالثة » ولعبوا دورا بارزا سواء قبل الحرب او بعدها ، من ذلك جلب الاساتذة والمدرسين العسكريين والفنيين وموظفي البنوك والاطباء والعلماء .

وخلال سنة 1924 افتتحت مدرسة المانية للمدرسين بكابول . وتم انشاء معامل الورق والنسيج. ثم تولى العقيدة « الكولونيل » الالماني كريستين آمرية الكلية العسكرية الافغانية ، وبصعود هتلر الى الحكم اصبح التوغل الالماني شديدا ليس فى افغانستان فحسب ؛ بل عم منطقة الشرق الاوسط ، وفى سنة 1935 وصلت بعثة علمية لدراسة هندوكوش ، وفي سنة 1936 اسست الشركة الالمانية « لوفتانزا » خطا ما بين كابول وبرلين .

فقد قام المولى لامي بثورة سنة 1924 فى منطقة الكوست ضد القانون المدني حيث اعتبره مخالفا للدين، وبقي يتحدى السلطات لمدة عشرة أشهر ، وكلف الحكومة جهودا واموالا لاعادة الامن الى نصابه .

وفى سنة 1927 قام امان الله برحلة طويلة الى اوروبا زار اثرها كلا من ايطاليا والمانيا ، وفرنسا ، وانجلترا ، ووجد استقبالا يناسب مقامه ، كما عقد عدة اتفاقيات كلها فى صالح الاقتصاد الافغاني ، واثناء الرجوع عرج على موسكو ، وقدم له الروس اربع عشرة طائرة وكمية هائلة من الذخائر ، ثم ختم زيارته هذه فسافر الى تركيا ومنها الى ايران ، واثناء رجوعه الى بلاده اصدر سلسلة من الاصلاحات فى التعليم شملت المراة واتسعت الهوة بينه وبين رجال الدين .

المشاكل الداخلية

فى 14 نوفمبر 1928 قامت ثورة قبيلية بايعاز من رجال الدين المتزمتين ، وبمرور شهرين على قيامها اصبحت خطيرة ضد الحكومة حيث قامت قبيلة التاجيك بزعامة باشا سقوة ، وفى 17 يناير 1929 اصبحت تهدد العاصمة ، واضطر امان الله ان يتنازل عن الحكم لاخيه عناية الله ، ثم فر الى كاندهار ، وعبثا حاول أن ينظم المقاومة من هناك ففشل ، ثم اخترق الحدود الهندية قاصدا منفاه باوروبا ، وخلال هذه الايام السوداء ؛ كان سفير الاتحاد السوفياتي وتركيا يلحان على امان الله فى استمرار المقاومة ضد القبائل الثائرة لتحقيق اصلاحاته ، بل ذهبت روسيا ابعد من ذلك ، حيث كان سفير افغانستان بموسكو غلام نبي ينظم ارسال قوة عسكرية بالاتحاد السوفياتي معظمها من الروس لانقاذ امان الله ، ولكنها وصلت متأخرة ، الواقع أن الشعب كان يعادي أمان الله فى اقاليم الشمال ؛ فبعد اسابيع قليلة كانت قوات غلام نبي تقفل راجعة الى الاتحاد السوفياتي ، وبقي التوازن في افغانستان لمدة شهور فى تقلقل سيما وأن نظام الحكم اصبح فى خطر بافغانستان واوشك التدخل الاجنبي على الظهور . ثم اخذ باشا سقوة يوطد نفوذه القائم على الرعب ؛ واثره انسحب كثير من الاجانب المقيمين بافغانستان ، والغيت كل الاصلاحات التي قام بها امان الله ، ولقي ذلك قبولا حسنا من رجال الدين .
لكن الحالة لم تستقر بالبلاد مع ذلك ؛ فقد قامت ثورة مضادة بزعامة محمد نادر خان ، وهو ينتمي الى قبيلة براكزاي احدى فروع القبيلة الدورانية ، فقد كان يشغل منصب سفير افغانستان بباريس ، ثم رجع مع ثلاثة من اشقائه فى مارس 1929 واعاد تنظيم القوات فى الجنوب ، ولم ينحصر نشاط الاخوان فى الجنوب بل امتد الى كل البلاد ، وكانت القوات تتكون من قبائل وزيري وماسود بالهند ، فزحف نادر بهذه القوات مع اخوانه على كابول فى 16 اكتوبر 1929 ثم اعلن ملكا على افغانستان .

لقد سبب ارتقاؤه على العرش ضجة كبيرة في الصحف السوفياتية باتهامه بانه من عملاء بريطانيا ، وردت بريطانيا على ذلك بأن لا يد لها فى انقلاب نادر .

نادر شاه

ظهرت شخصية نادر فى الحرب الثالثة الافغانية ضد بريطانيا كقائد للجيش الافغاني ، وبالرغم من أنه هيأ جيشه بالحدود التي تشرف عليها بريطانيا بالهند، فلم يكن ذا ميول بريطانية بل بالعكس ، فقد كان مؤيدا لسياسة هجوم القبائل الافغانية على الحدود الشمالية الغربية الهندية ، ولكنه تراجع عن هذه المغامرة ، فاصبح ينشد حسن الجوار ، وربط علاقات طيبة بينه وبين بريطانيا بالهند ، لاعتقاده بأن امن القبائل امر تستلزمه الضرورة فى الحدود بالنسبة للحكومة الافغانية .

كانت اعباء الحكم فى عهده ثقيلة ؛ خصوصا بعد الحكم الفوضوي الذي أرهق البلاد فى عهد الثوار ، ثم أن البلاد كانت موزعة سياسيا ، فأعاد تنظيمها بعد مدة اربع سنوات . وفى 1932 اعلن دستورا جديدا للبلاد مع انشاء مجلسين . وكان دستور نادر شاه شبيها بدستور أمان الله من بعض الوجوه ، ثم اعلنت القوانين الجديدة التي كانت بمثابة تغيير للنظام الاوتوقراطي السياسي ، وازعج ذلك جماعة المحافظين
كان يشغل بال نادر مسألتان : أولاهما الاثار التي نجمت عن ثورة باشا سقوة ، وقد راينا كيف تغلب عليها . وثانيهما رجوع غلام نبي الى روسيا حيث بدا

يعمل فى الدس ضد الملك نادر . وكما هو معلوم فان الحكم فى البلاد كانت تتقاسمه قوتان ؛ الاولى : وهي شخصية الملك . والثانية : رؤساء القبائل وهؤلاء يستشارون فى المجلس الكبير « لوى جيركا » .

شغل اخوان الملك نادر مناصب وزارية هامة ، فقد تولى رئاسة الوزراء محمد هاشم خان من 1924 ـ 1946 ثم عين شاه والي خان وزيرا فى باريس، وعهد اليه ان يراقب امان الله بمنفاه فى جميع حركاته وسكناته ، كما اسندت الى اخيه محمود شاه خان القيادة العليا للجيش "الافغاني ، اما وزارتا الشؤون الخارجية والتعليم فقد اسندتا الى اتباع الملك .

قامت سياسة نادر خان على ايجاد التوازن بين الدولتين روسيا وبريطانيا ، وتحقيقا لذلك ، فقد استعان بكثير من الخبراء الاجانب فى جميع المسائل الفنية . وفى سنة 1930 قامت حوادث على الحدود هددت العلاقات الافغانية السوفياتية خصوصا بعد ان مرت على حكم نادر نصف سنة . فلم تكن الاقاليم الشمالية قد خضعت بعد لحكمه ، ذلك أن الزعيم باسماشي فى فرغانة ، واحد شركاء اينفير ، وهو ابراهيم بك ، اصبحت فى يده مقاليد الهيمنة السياسية على هذه الولاية ، فاراد أن يجعل من التركستان الافغانية قاعدة لشن هجومات ضد السلطات السوفياتية ، ولم يجد الروس بدا من تسيير قوات عسكرية اخترقت منطقة الاوكوس بمسافة اربعين ميلا داخل التراب الافغاني ، وتسبب ذلك عن رد فعل قوي لدى الافغان ، فتحركت قوات افغانية متجهة الى منطقة الاوكوس ، وبعد معركة صغيرة دفعت ابراهيم بك الى اختراق الحدود الافغانية ، ولتجنب سوء العلاقات فى المستقبل مع روسيا ، التجا نادر الى التخلص من اللاجئين المقيمين فى التركستان الافغانية ولا سيما جماعة البخاريين .

ولم يستمر حكم نادر طويلا ، فقد اغتيل فى نوفمبر 1933 من طرف احد اعدائه ، فتولى بعده ابنه محمد ظاهر شاه ، ثم تابع سياسة ابيه بتوجيه اعمامه، فكانت سياسة واقعية حذرة . وفى سنة 1937 انضمت افغانستان الى ميثاق سعداباد الذي ضم كلا من العراق وتركيا وايران ، ثم تعرضت العلاقات الافغانية الانجليزية الى بعض التوتر الموقت نتيجة لثورة شامي بير ، فكان مواليا لامان الله ، واخيرا اخترق الحدود الافغانية من الهند ، وانهزم فى معركة مع قوات الحكومة الافغانية .

افغانستان والحرب العالمية الثانية

لزمت افغانستان الحياد خلال الحرب العالمية الثانية ، ففي سنة 1944 عزم البريطانيون والروس على احتلال ايران ، فطلبوا من افغانستان أن تتخلص من مواطني دول المحور المقيمين باراضيها ، واجتمع مجلس رؤساء القبائل « لؤي جيركا » للتباحث فى الامر ، واخيرا وافق المجلس على رغبة الحكومة القاضي بالتنازل عن طلب الحلفاء .

لقد تضررت افغانستان اقتصاديا بسبب هذه الحرب ، فقد اعتمدت على روسيا خصوصا فى تجارتها الصناعية المستوردة من هذه الاخيرة ، فانقطعت عنها ، مما جعل افغانستان تستورد من الهند ، وتميل الى السياسة البريطانية . ففي سنة 1944 عرضت بريطانيا على افغانستان عقد اتفاقية لفرض تدريب ضباط الجيش الافغاني بالهند ، وقدم بالفعل مائتا ضابط افغاني للتدريب فى المراكز البريطانية ، ثم افتتحت مفاوضات اخرى لفرض تسليم الفائض من الاسلحة البريطانية الى افغانستان بعد انتهاء الحرب ، وهذا ما جعل رغبة افغانستان تزداد فى استخدام الخبراء الانجليز فى مثل هذه الميادين العسكرية ، ثم شرع بعد ذلك فى انشاء معامل النسيج ، وازداد نشاط القنصل البريطاني فى كابول ، هذا بالاضافة الى وفود رجال التعليم البريطانيين التي اخذت تفد على افغانستان ، فتاسست المدرسة الثانوية الرابعة فى العاصمة اضافة الى المدارس الثانوية الثلاث لكل من المانيا وفرنسا وأمريكا . ثم ساهم الروس ايضا بدورهم فى الميدان الثقافي فنظموا رحلات كثير من رجال الثقافة الافغانيين الى طشقند . وفى هذه الاثناء تنازل رئيس الوزراء هاشم خان وتولى بعده اخوه الشاب محمود خان سنة 1946 .

واول عمل قام به هو اطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، وتم تدشين أول جامعة فى كابول سنة 1946 ثم تلتها سلسلة من المدارس الثانوية للبنين والبنات بارغم من سخط رجال الدين . عملت الحكومة على مجابهة هذه المعارضة بأن فتحت كليات للدراسات الدينية ، وكانت هذه التفاتة ذكية من الحكومة .

الحاجيــات الاقتصاديــة

ظل الاقتصاد الافغاني يشكو ضعفا رغما عـن التوازن الذي تحقق لدى الحكومة مـن دولار ايـام الحرب . فقد بقي ثلثـا الشعب الافغانـي يعيش على حياة الرعي ، ومن الواضح أن افغانستان كانت تريـد ان تحقق تقدما ماديا ، فهـي محتاجـة الى مضاعفـة صادراتهـا خصوصا في الفواكـه والجلـود (جلـود الخرفـان) وتحملت بضاعـة الجلـود خسارة كبيرة بسبب مزاحمة روسـيا لها ، يضاف الى ذلك من ناحية اخرى مناقشة جنوب غربي افريقيـا .

واثنـاء هذه الظـروف التجأت افغانستان الى الولايات المتحدة ، وخصوصا مـع شركـة موريسـون كنودسـون بولاية اداهو لتحقيق بعض المشاريع الفنيـة مثل انشاء الطرق ، ومد القناطر والسـدود ثم تصميمات كهربائية وقنوات للري ، كان الطريق الممتد من كابول الى كاندهار من احـدى انجازاتهـا ، كمـا ان اهـم مشروعات الشركة يقع على نهر هيلماند باقامة سـد عليه ، الامر الذي نتج عنه نزاع بين ايران وافغانستان، ذلك لان ايران ترى في انشاء هذا السد سببا في نقصان مياه بحيرات سـيتان التي تسـتفيـد منهـا . وهنـاك مشروع آخر للتنقيب عن البترول فقد تقدمت الشركة « انلانـد » بمفاوضة الحكومة لهذا الغـرض ، الا ان النتائج كانت هزيلة . ثم قامت محادثات اخرى بيـن الشركة الامريكية للطيران « الخطوط الجوية العالمية » فانشأت فرعا لها يربط كابول ببعض دول العالم . وفي سنة 1948 رفع التبادل الدبلوماسي من درجة مفوضية الى سفارة علما بأن التبادل تم بينهما سنة 1943 وفي سنة 1948 قام وزير الاقتصاد الافغاني عبد المجيـد خان بزيارة الولايات المتحدة لطلب المساعدة الفنيـة . فتم لـه النجاح . ثم تقدم بنك الاستيراد والتصديـر سنة 1949 بالولايات المتحدة بقـرض الى افغانستان مقداره 21.000.000 دولار لغرض التجهيز ، تـلاه طلب آخر من الحكومة الافغانية الى البنك الدولي بـأن يقـدم لها مسـاعدة ماليـة .

بالرغم من ان افغانسـتان لم تعلـن الحـرب على دول المحور فقد قبلت بهيئة الامم المتحدة سنة 1946 ولعبت هذه المنظمة دورا هاما في تجهيـز افغانسـتان ، ففي سنة 1950 وصلت بعثة من الخبراء الاقتصاديين لدراسة حاجيات افغانستان برسم برنامج المسـاعـدة الفنيـــة .

امتازت العلاقات الافغانية السوفياتية بأنها ظلت قبل الحرب وبعدها تتسم بالمسـالمة ، فلقد حلت كثيـر من القضايا المعلقة بين البلدين كمشاكـل الحـدود ، والاراضي الواقعة على نهر الاوكسوس ، والحقـوق في مياه واحات كوش ، فسويت كلها بواسطة لجنة افغانية سوفياتية . ثم اعيد العمل بالاتفاقية التجارية سنـة 1948 بين البلدين ، فاخذت روسيا تصـدر السكـر والقطن والبضائع بانواعها ثم البترول . كما لم تكـن هناك وكالات تجارية منبثة داخل البلدين ، وانما كـان تسليم البضائع يقع في نقط معينة على الحدود تجنبـا لكل نفـوذ سياسـي .

كـانت افغانستان تتخوف من التقـدم الفنـي والزراعي الذي احرزت عليه دول آسيـا الوسطـى ، فبدأت تولي ذلك اهتمامهـا الكبيـر ، زد على ذلك ان افغانستان كانت تعتبر تركستان الافغانية النقطة التي يمكن أن يمتد منها نفوذ الاتحاد السوفياتـي ، فبـدأت الحكومة الافغانية بالفعل تنقل بعض البدو الافغانييـن مـن الجنـوب ، وذلك لزراعـــة الارض بالشمـال ، وافغانسـتان كبقية البلاد الاسلامية ، لم تكن تشكـو فرقا كبيرا في الثروة فالبلد بصفة عامة كان فقيرا ، ومع ذلك ، فـان روسيا لم تبـادر بارسال وكلائهـا الـى افغانستان ليتخذوا منها منفذا الى الهند والباكستان كما كان نشاطها من قبل . والدعاية الشيوعيـة فـي افغانستان لم يكن لها مظهر بارز ، ولكنه سيكون مـن غير الحكمة ان نتغاضى عن مفعولها لدى قبائل الاوزبيك والتاجيك والتركمان الذيـن يعيشـون على الحـدود موزعين بين افغانستان والاتحاد السوفياتي . فالملاحظ ان هؤلاء المواطنين اصبحوا يعيشون في نظام اقتصادي اشتراكي بالشمال . في حين ظـل الجنـوب متأثـرا بالشروط الاولية للمجتمع الشرقي البطيء الحركة .

اما امكانيات الجيش الافغاني فـلا تستطيع أن تواجه أية قوة كبيرة باستثناء مجابهـة أي نشاط في الداخل ، ولم تكن منطقة هندوكوش تمثل عقبة كئودا امام جيش منظم عصري اذا حاول اجتيازها ، فالمسألة مسألة ايام فقط اذا مـا أرادت القـوات السوفياتية اجتياز الحدود الكشميرية والباكستانية .

كـانت نهاية الحكم البريطاني للهند سنة 1947 مما عقد مشكلـة « حراس منطقة هندوكوش » لقـد عوضت بريطانيـا بدولتين ضعيفتيـن : افغانسـتان وباكستان ، فالاولى مهتمة بامنها الداخلـي واصبحت بكيفية آليـة اكثـر تعرضا للضغط الروسي ، ثـم ان العلاقات الافغانية الباكستانية تعرضت لازمة عنيفـة

منذ ظهور الباكستان على المسرح الدولي ، وذلك بسبب الاقليم الواقع فى الشمال الغربي من الحدود ، والذي توجد به ملايين من قبائل الباتان ، فيجب اذن تحديد مستقبلها وكيفية خضوعها للحكومة الافغانية ، وقد رفض المسؤولون الباكستانيون ذلك . ونتيجة لذلك فقد ورثت الباكستان المنطقة الجنوبية من خط ديورانت ، ومنذ ذلك الحين اخذت افغانستان تعمل على انشاء دولة مستقلة تفصل ما بين باكستان وافغانستان تسمى « باكتونيستان » ثم تطورت العلاقات بينهما الى احداث خطيرة على الحدود بسبب التوتر الذي سيطر على هذه العلاقات خصوصا في الفترة ما بين 1947 — 1949 .

وفى سنة 1950 توصل الطرفان الى حل موقت بعد تدخل الحكومة البريطانية لدى الحكومتين المعنيتين ، فبالرغم من تحرر باكستان ، ظل الضباط البريطانيون يشتغلون فى المنطقة الشمالية الغربية ، وكان الوكيل الباكستاني السياسي فى منطقة كيتا بريطانيا . ونظرا الى ان باكستان عضوة فى الكومنويلث، فقد وجدت التأييد منه . هذا بعد ان ظلت لبريطانيا مصالحها واهدافها السياسية فى منطقة هندوكوش . وبالرجوع الى النزاع بين الشرق والغرب يجب أن نوضح بان روسيا لم ترغب فى التدخل فى شؤون افغانستان ، بل اعتبرتها طريقا للهجوم على شبه القارة الهندية . ففي سنة 1950 — 1951 ظهرت روسيا وكأنها تريد ان تحتضن الهند شرقا من خلال الصين وبورما ، وهذا ما يوضح لماذا كان هناك هدوء في الجبهة الافغانية .

علاقات افغانستان الخارجية سنة 1950

فى بداية شتنبر 1953 تخلى محمود شاه خان عن منصبه كرئيس للوزارة بعد سبع سنوات ، وخلفه الجنرال محمد داود خان الذي كان يشغل منصب وزير الدفاع ، فلم يحدث تغييرا هاما فى هيكل الحكومة . وظهر هذا الوزير وكأنه يريد ان يدفع بفكرة دولة باكتونيستان لتخرج الى حيز الوجود . ففي 28 ديسمبر 1953 طالب بريطانيا ان توافق على اعادة النظر فى معاهدة كابول سنة 1921 اذ فيها تأكد خط ديورانت كحد فاصل بين افغانستان والهند . وعلى ذلك ، فعندما اعترفت بريطانيا بسيادة باكستان الكاملة فى 15 اغسطس 1947 اصبحت تمثل قوة ذات سيادة فى جنوب افغانستان ، وبدأت الحكومة الافغانية تواجه هذه الدولة فى كل القضايا التي تتعلق بالحدود، كما ظلت مشكلة باكتونيستان التي تتزعمها افغانستان مصدرا عائقا لتحسين العلاقات بين الدولتين . ذلك أن وجهة نظر الحكومة الافغانية تنحصر فى أن قبائل الباتان لهم من الحق ما يسمح لهم بقيام دولة تشملهم بحيث تحتل المنطقة الواقعة ما بين جنوب حدود افغانستان ونهر الهندوس . واذا اخذنا هذه المنطقة بكاملها ، فهي تضم جزءا كبيرا من باكستان ، ويمكن ان تمتد الى العاصمة « كراتشي » وكذا بلوخستان ، والاقليم المحادي لحدود ايران ، والمحيط الهندي ، مثل هذا الطلب يحتاج الى ما يسنده من حجج تاريخية وقانونية . لقد قال الافغانيون : ان افغانستان لا تطمع فى هذه المنطقة وانما تنحصر رغبتها فى قيام دولة مستقلة ، ومن شان هذا ان يرضى عنه الباتان . ورفضت الباكستان هذه الفكرة ، والتي تقوم على افتئات حقوقها بالحدود . ومنذ مارس 1955 اصبحت الحكومة الباكستانية تهتم بمشكلة باكتونيستان خصوصا عند ما ظهرت الفكرة بمظهر قوي ، فقد اعلنت الحكومة الباكستانية انها قررت الغاء التقسيمات السياسية التقليدية ، وانها تحول كل غربي الباكستان الى اقليم واحد . كان رد فعل محمد داود فى خطاب انتقد فيه موقف الحكومة الباكستانية على هذا القرار المعادي لافغانستان ، ثم حذر الحكومة الباكستانية من قيام احداث خطيرة قد تنجم عنه . وفى اليوم التالي قامت مظاهرات يقودها 15.000 متظاهر فهاجمت السفارة الباكستانية بكابول وتم نهبها مع تخريب امتعتها كما انزلوا العلم الباكستاني . ثم جرت هجومات مماثلة ضد القنصليات الباكستانية فى جلال‌باد وكاندهار، فلم تتدخل الشرطة الافغانية لقمعها ، وهكذا وجدت هذه الحوادث صداها الاستنكاري فى باكستان حيث تطورت الى هجوم ضد القنصليات الافغانية فى بيشاور. وفى فاتح ابريل طلبت الحكومة الباكستانية من افغانستان ان تقدم اعتذارا رسميا ، وتعويضا مشرفا . ثم استدعت ممثليها الدبلوماسيين والقنصليين ليلتحقوا بالبلاد من افغانستان ، واغلقت بعد ذلك الحدود ، وتوقف كل تعامل تجاري بين البلدين .

بدأت العلاقات ترجع بين الدولتين خصوصا بعد ان عرضت كل من مصر والسعودية وساطتهما للحيلولة دون استمرار النزاع ، فقبلتا ذلك ، واخيرا بذلت كل من العراق وتركيا مساعيهما الحميدة بعد أن وقعتا على ميثاق حلف بغداد ، وقبلت باكستان هذه الوساطة شريطة ابعاد كل ما يسمى بباكتونيستان ، ثم بدأت العلاقات تتحسن بينهما تدريجيا . واثناء الحفلة التي

حضرها وزير الخارجية الافغاني السردار نعيم خان بسفارة باكستان بكابول تفضل برفع العلم الباكستاني على بناية السفارة ، كما سمحت الحكومة الباكستانية مقابل ذلك بعودة النشاط التجاري عبر الحدود ، وظهر ان هذا الانقطاع كان له آثار هامة على افغانستان ولا سيما فيما يتعلق باستيراد الاسمنت والكازولين والاقمشة. ومن هنا ظهر الى أي حد يمكن للباكستان أن تؤثر على افغانستان اقتصاديا اذا ما التجأت الى اقفال الحدود كوسيلة للضغط . ومع ذلك ظلت مشكلة باكتونيستان بدون حل ، فافغانستان لم تكن تفوتها فرصة الا واثارت هذه المشكلة . وفى 19 نوفمبر من نفس السنة استنكر رئيس وزراء الباكستان شودرى محمد علي نشاط الدعاية الافغانية بأرض الباتان . واثناء اعلان استنكاره كان مجلس « لؤى جيرجا » ـ وهو مجلس يضم رؤساء القبائل كما راينا ـ يجتمع اعضاؤه لدراسة المشكل القائم بين افغانستان وباكستان ، فلقد تقدم رئيس مجلس الوزراء داود خان فأعلن بأن : « ميزان القوى بين باكستان وافغانستان قد هدمته باكستان بتحالفها العسكري مع الولايات المتحدة » وكان امام المجلس امران :

اولهما : هل تستمر افغانستان مطالبة بالمنطقة المتنازع عليها وهي منطقة الباتان ؟ .

ثانيهما : هل تتخذ افغانستان خطوات لاعادة ميزان القوى بينها وبين باكستان ؟ .

ففي 20 نوفمبر تقدم خمسمائة عضو فى المجلس المذكور بثلاث قرارات .

اولهما : التأييد التام لسياسة داود فى المطالبة بالمنطقة المتنازع عليها . ثانيهما : تخويل الحكومة السلطة فى اعادة ميزان القوى بين البلدين . ثالثها : رفض الاعتراف بباكتونيستان كجزء من اراضي باكستان . ومن هذه القرارات يظهر بكل وضوح أن افغانستان لن تساوم المطالبة بهذه المنطقة سيما وأن باكستان مرتبطة عسكريا بالايات المتحدة ، وكان امام افغانستان ان تتجه نحو روسيا طلبا للعون والتأييد .

وفى هذه الاثناء اخذت الاحداث تسير بسرعة ، فبعد ارفضاض المجلس المذكور بشهر كامل ، قام بزيارة افغانستان كل من بولجانين وخروتشوف حيث كانا يقومان بزيارة بعض دول آسيا واعرب الزعيمان عن تأيدهما المطلق لوجهة النظر الافغانستانية فى مشكلة باكتونيستان ، ثم قدما مساعدة فنية واقتصادية الى حكومة كابول مع دفعة من الاسلحة بمختلف انواعها وانتهت هذه الزيارة بتقديم قرض قدره مائة مليون دولار تدفع على اقساط كما اعربت الدولتان عن تمسكهما بالتعايش السلمي ، ثم أعيد النظر فى المعاهدة المعقودة بين البلدين لسنة 1931 والمعروفة بمعاهدة الحياد وعدم الاعتداء وتقرر العمل بمقتضاها .

كان للاتفاقيات التي عقدها الاتحاد السوفياتي مع افغانستان اصداء عظيمة لدبلوماسيته بآسيا، اذ قوى التقارب بين الدولتين وفى 1950 تقدمت روسيا لبناء خزانات البترول وانشاء الطرق بافغانستان ، وفى صيف 1954 قبلت افغانستان قرضا آخر من الاتحاد السوفياتي يقدر بـ 8.000.000 دولار لتحقيق مشاريع عدة منها مستشفى فى جلال باد وخزانات البترول فى كابول وكذا فى خيرات ، ومزار الشريف وكيليف ، ثم مدت انابيب البترول بين مزار الشريف وتيرميد ، وتقع هذه الاخيرة على حدود الاتحاد السوفياتي . وفى سنة 1955 بعث الاتحاد السوفياتي ثلاثمائة خبير وكذلك من تشيكوسلوفاكيا ، ثم اعقب هذا النشاط الاقتصادي ارسال البعثات من الطلاب الافغان الممنوحين الى الاتحاد السوفياتي وفى سنة 1954 استلمت افغانستان من تشيكوسلوفاكيا خمسة ملايين دولار كقرض لبناء معامل الزجاج والاسمنت والجلود .

وفى نفس الوقت استلمت افغانستان من الولايات المتحدة الامريكية قروضا استعمل معظمها فى مشاريع عدة كالادارة العامة والزراعة والغابات والري والسدود وقدرت بـ 40.000.000 دولار . لقد كان للزيارة التي قام بها الزعيمان السوفياتيان الى افغانستان والقروض التي استلمتها عقب هذه الزيارة آثار خطيرة على حلفاء امريكا فى هذا الجزء من العالم ، فقد وقف داود خان موقفا محايدا من النزاع بين المعسكرين بل اصر على تطبيق سياسة الحياد وعدم الاعتداء ضد روسيا . كما رفض الدخول فى حلف بغداد . ومن جهة ثانية حاولت افغانستان أن تبقى علاقاتها مع الغرب يسودها الود حتى تضمن المساعدات الاقتصادية التي تسلمتها منه .

عبد الله السرايري : نيودلهي ـ الهند



القيت هذه القصيدة ليلة المولد النبوي الشريف بجامع المولى سليمان أمام مولانا صاحب الجلالة امير المومنين الحسن الثاني أيده الله ونصره

قد وهبت البلاد حكما نقيا

للشاعر: عبد الرحمن الدكالي

كنت يا ليلة الهدى عنوانه ... وبدا فيك نوره سبحانه

ورأى الكون كله نور طه ... سيد الخلق من يصون كيانه

راح عهد وجاء عهد وولى ... ملك كسرى وقيصر والخيانة

انه الله قد محى دولة الشـ ... ـك واقصى بعدله طغيانه

ها هو المصطفى الى الله يدعو ... بوضوح الى الهدى وابانه

وجرى ما جرى من الشرك لكن ... ايد الله عبده واعانه

يا ابا القاسم الذي رفع الله ... ـه قدره وجاهه ومكانه

قد اتى فى الكتاب مدحك يتلى ... وتولى رب العباد بيانه

انت اعلى فى المدح من كل قول ... يا رسول الهدى وطود الامانة

اننا امة ((الاحمد)) تنمي ... ديننا فى الحياة خير ضمانة

ولدينا والحمد لله فرع ... علوي من دوحة فينانه

هو عرش فى الشرق والغرب عال ... عظم الله فى البرية شانه

ليس ينسى وان تقادم عهد ... بطل الدهر من فدى اوطانه

ليس ينسى ((محمد)) حين نادى ... وتصدى موضحا برهانه

قال : يا شعب قد طلبت حقوقا ... ان للحق وقته وزمانه

انكروه وكيف ينكر حق ... جاء فى الوقت مدركا ابانه

ان عهد استعباد شعب لشعب ... صار يبكي مؤبنا غربانه

كرة الارض حرة فليغادر ... كرة الارض من يريد اهانه

ساسة السلم في الورى قد سعيتم ... لسلام ؟ فهل ملكتم عنانه

انه العدل بين كل قوى ... وضعيف قد بثكم احزانه

انه نصرة الضعيف اذا ما ... جاء يشكو اليكم اشجانه

ليس اسطولكم على كل بحر ... وسلاح شكلتم الوانه

يمنع الحرب ان تشن ولكن ... يمنع الحرب عدله سبحانه

يمنع الحرب ان تنال حقوق ... يمنع الحرب ان تداس الخيانة

يمنع الحرب ان يرى مستقلا ... كل شعب يسعى ليصلح شانه

واذا الحق لم يفز بانتصار ... اشهروا الحرب اشعلوا نيرانه

هو دين عليكم ان تقولوا ... قولة تسمع الورى طنانه

لا ضعيف مستعبد لا قوي ... مستبد لا اثرة لا استكانة

حرروا هذه الشعوب وهاكم ... لانتشار السلام الف ضمانة

نحن قوم نصارع الظلم حتى ... يسقط الظلم لابسا اكفانه

يبذلون النفوس في طاعة اللـ ... ـه احتسابا ويبتغون جنانه

لا نخاف العدو حربا وسلما ... قد عرفنا في الحالتين افتنانه

زمن الخوف والتردد ولى ... كسر العزم عزمنا عيدانه

سجن هذا ونفي ذاك سبيل ... مخطىء من يريد منه لبانه

ساسن الفدا لشعب ابي ... ليس يرضى بعد افتقادي اهانه

غايتي في الحياة شعب كريم ... مستقل وليس فيه خيانه

انها صرخة العظيم سيلقيـ ... ـها على الدهر مالئا آذانه

لا تذوب الشعوب ظلما وتبقى ... للملوك الشعوب فيها مكانه

حسبي الله ان نفيت واهلي ... لا ابالي ولو نفيت لغانه

اي ملك في الارض طولا وعرضا ... اظهر الله في الورى رجحانه

سل عن الخامس العظيم قرونا ... سوف يتلو ابناؤها شكرانه

*

وقف اليوم ايها الشعر واذكر ... وارث السر بيننا والامانه

((حسن الشعب)) من وفى بعهود ... وغدا يمنح الوفا اوطانه

قد ابان الدستور منه اماما ... صالحا مصلحا يقيم الديانه

كم اياد له على الشعب قادت ... خلفه شعبه فاعطى عنانه

منح الشعب حبه وهواه ... ورضاه وعطفه وحنانه

فهو صب بشعبه مستهام ... اودع الله قلبه وجدانه
يعشق العلم والنهوض ويرجو ... ان يروي بلاده الظمانه
ويرى الشعب فى اعتزاز ومجد ... ويوالي بقلبه جيرانه
ويصون السلام والامن دوما ... ويقوى بجيشه اركانه
هو خير الملوك علما ودينا ... اخذ الملك بالكتاب فصانه
قد حمى الدين من مكايد قوم ... واللسان المبين شر الرطانه
لو قدرنا صغنا له الشمس تاجا ... وجعلنا من نورها صولجانه
وكفاه الاخلاص تاجا رفيعا ... انه كان دائما ميدانه
موقف يبهر الملوك ويسمو ... ان يحط الملوك فيه رهانه
ويقين وهمة وثبات ... وسماح ورقة ورزانه
هكذا فلينل من الملك مجدا ... من يؤيد بملكه اوطانه
هكذا من يريد خلودا ... ويقوي بشعبه سلطانه

*

انت من قلت قبل نفيك ((لا لا)) ... لعدو البلاد او من اعانه
سيد المنشئين دمت لشعب ... كنت فى الرشد والهدى لقمانه
بايع الشعب فيك شهما طموحا ... يخدم الشعب منشدا رضوانه
كل يوم نرى بناء جديدا ... للمعالي لا للهوى والمجانة
وضحت للورى مواقف جلى ... هل يريد العدا عليها استبانه
لا يخامرك فى انتصارك شك ... حسبك الله نلت منه امانه
كلما ازددت عزة وانتصارا ... ذهب النذل باكيا اوثانه
كل من كان ضد شعبك هاذا ... اظهر الله للورى بهتانه
قوض الجور ان حكمت بعدل ... ومحا الجهل ان قطعت بنانه
فوق هذا التراب شعب ابي ... كنت فى كل حالة عنوانه
لم تزل قلبه الذي بك يحيى ... ويديه وعينه ولسانه
صنتنا ان تهون والشعب يسمو ... بمليك يوليه كل صيانه
لا تقضي عيد ولا عاد الا ... كنت فيه محصنا شطئانه
قوة الله فوق كل قوى ... وبيد الله اهلكت خوانه

*

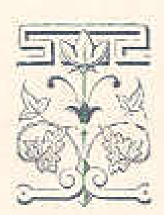
يا ابا الشعب عش لشعبك وحـ ... ـده وشيد رغم العدا بنيانه
قد وهبت البلاد حكما تقيا ... عمريا فى شدة وليانه

وطن كله وفاء وحب ... خاب من عق فضله اوخانه
اهلك الله من يبيت سوءا ... لبلاد ومن يريد الخيانه
سائل الشعب ان اردت بيانا ... وتامل جوابه وبيانه
حقر الشعب امرهم لا يبالي ... بفلان من رهطهم او فلانه
قد تعروا فلم تفدهم ثياب ... لبسوها من ذلة واستهانه
انما الشعب امة واحده ... ايد الله بالهدى سلطانه
فلنا اليوم ان تقول حيينا ... وعلى المجد ان ننال قنانه

*

ايها الشعب انت احفظ للعهـ ... ـد وقد كنت دائما صوانه
طاعة الله ان تكون جميعا ... فى وئام لنسترد المكانه
ولدى الهول والشدائد ارسى ... من جبال فى قوة وركانه
كل حر وحرة فى بناء ... زانها الحب للبلاد وزانه
لن ينال المراد شعب كسول ... لم يجهز ليومه شبانه
انما المجد مجدنا برجال ... عرفوه فاصبحوا فتيانه
يا شباب البلاد انتم بنوها ... فاعيدوا لشعبكم ريعانه
ابذلوا للبناء كل جهود ... ولتكونوا بحزمكم فرسانه
انتم انتم وليس سواكم ... من يفدى بروحه اوطانه
ايه مولاي انت عز بلاد ... بك والله ادركت ابانه
فتمتع بحب شعبك واسلم ... انت للشعب ما حييت ضمانه

الرباط : عبد الرحمان الدكالي
المرشد العام للقوات المسلحة الملكية



عبرة الذكرى

للشاعر المدني الحمراوي

القيت هذه القصيدة بين يدي صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله ليلة عيد المولد النبوي بمسجد مولاي سليمان :

تبارك من اضفى مواهبه الغرا   على الارض لما ارسل الرحمة الكبرى

فاورق غصن الحق بعد ذبوله   بمبعث من احيى العدالة والخيرا

بمبعثه الاسمى طوى الله ليلة   واطلع من اسرار حكمته الفجرا

فكان على الدنيا سلاما ورحمة   وامنا ونورا جاء فى موكب البشرى

وتم به للناس هدي فاسرعوا   الى قبس التوحيد واستقبحوا الكفرا

فقام بامر الله دين محمد   يخط لهذا الكون تاريخه الحرا

رسالته الغراء خير تحية   الى عصبة الاحرار شدت لهم ازرا

*

نبي الهدى عالي بمدحك طاقة   ولكنني ارجو قبولك والسترا

اذا خلصت من سر قلبي محبة   فليس على جسمي ان يعبرا البحرا

وما مدحك الميمون الا وسيلة   يصيب بها ذو الحب عاقبة الاخرى

لقد رامت الدنيا مديحك فانثنت   وقد قطع التقصير فى قولها الظهرا

اذا حبر الرحمن مدحك جامعا   فما لجهود الخلق ان تبلغ القعرا

وعذر بني الانسان حب وانهم   حسوا من رحيق الحب ما فضح الخمرا

وانك رائد الانام ونورهم   ونجم الهدى اضاء فى افق الغبرا

هتفت بصوت الحق والجور راسخ   وجئت بشرع الله لا تبتغي الاجرا

فصابرت واستسهلت كل كريهة   واعلنت ان الحق لا يرهب القهرا

وان بني الانسان فى الحق اخوة   فليس يفوق البيض سودا ولا حمرا

وكل امرىء ياتي الحياة محررا   وان ضلت الاقوام فاستعبدوا الحرا

وناديت ان الفقر ليس جريمة   وان على المثرين ان يصلحوا الفقرا

وليس بغير العقل والعلم عبرة   وان زور الاقوام من طمع نكرا

مددت الى الاقوام كف مسالم   ولكن حزب الشرك قد آثروا الشرا

وآمن قوم أن بعثك نعمة   فقالوا : اطعنا الله وامتثلوا الامرا

وذادوا عن الاسلام كل مراوغ   فكانوا لجند الحق قدوته الكبرى

وقد بذلوا لله مالا ومهجة   ولم يسلموا المختار فى الوقعة الحمرا

فدوك بما لا يفتدى المرء نفسه   به فى سبيل الحق واستسهلوا الوعرا

اولئك اهل الحق من خير أمة   اولئك جند الله أعظم بهم قدرا

اولئك من والوك فى وقت شدة   اولئك من آووك فى طيبة الزهرا

وهم صحبك الاخيار والعصبة التي   اتاحت لدين الله ان يحرز النصرا

فكسرت الاصنام فى كل بقعة   وحطمت الاغلال واجتاحت الكفرا

اذا ما مشوا تحت اللواء تهللت   وجوههمو البيضاء والتمعت بشرا

سراعا الى الرحمن دون تريث   قلوبهمو تهوى الشهادة للاخرى

عليهم سلام الله ما دام ذكرهم   يلقننا صبرا وينفحنا عطرا

فيا لهمو للدين والحق والهدى   وقد صير التبديل معروفها نكرا

وغير جيش الملحدين منارها   وبدل يسر الله من شرعه عسرا

وسرهمو ان ينكر الدين اهله   وان يطرحوا القرآن والسنة الغرا

فيا سيد الارسال هذه حالنا   تضرم فى الاحشاء من وقعها جمرا

فسل خالق الاكوان تفريج كربنا   وكن شافعا يا خير من يجبر الكسرا

فانت حبيب الله صفوة خلقه   وانت على الرحمن اكرمهم طرا

تلقيت من رب الجلال بلاغه   فجئت به تتلوه فى خلقه ذكرا

كتاب من الرحمن فصل حكمه   مهودا من الرحمن لا تقبل البترا

تضمن للانسان خير هداية   فمن حاد عن هدي الكتاب يجد عسرا

بآياته جاء الامين محمد   فداوى به الارواح واستنهض الصحرا

فوحد اهواء الجزيرة والبرى   يسددها بالوحي حتى استوت قطرا

بنوا دولة القرآن والعرب حرة   موطدة فوق السماكين والشعرى

اشاعت على الغبراء هدى محمد   فلا فد فدا ابقت ولا اغفلت بحرا

بها ادرك التمدين شاوكما له   وانبت سيل العلم فى الانفس الزهرا

مآثر من غرس النبى محمد   ومعجزة عصماء احيى بها الفقرا

فشيد صرحا للعروبة خالدا   على اسس القرآن يصطحب الدهرا

ولولا رسول الله جاء بحكمة   من الله للانسان ما احكم الامرا

ولا كان ذاك المجد للعرب بغتة   ولا اسرعوا فى مهيع العزة السيرا

فتلك لعمر الله منة احمد   ونعمة رب العرش تستوجب الشكرا

واعجوبة القرآن فى هدى امة   توزعها التفريق فانخذلت عصرا

فيا امة الاسلام عودي رشيدة   الى شرعة القرآن تسترجعي الفخرا

وحيدي عن الاهواء فهي ضلالة ... وبلبلة توهي العزائم والفكرا

ووحي اله العالمين مؤيد ... بعصمته من سار فى ظله فورا

وما لمريد الهدى من غير نوره ... نجاح وان غطت جحافله البحرا

فجازى اله العالمين حبيبه ... فقد نال أهل الارض من هديه ذخرا

وبلغ دين الله غير مقصر ... فمد به ظلا وحط به وزرا

فيا مصطفى الرحمن من خير خلقه ... اليك أسوق المدح من مقولي شعرا

تقبل ثنائي وهو نزر مقصر ... فكل مديح فيك لا يبلغ القدرا

كفى ان قلبي بالمحبة عامر ... وان بحور الشعر لا تطفىء الجمرا

فانعش زهور الشوق منك بنظرة ... تروح قلبا لم يجد عنكمو صبرا

وتعصمني من كل زيغ ومحنة ... وتملا صدري من حقيقتكم خبرا

وتكلاني من كل داء وذلة ... وهول عصيب الروع يستوعب الحشرا

وتنهلني كأسا من الحوض حلوة ... دهاقا فلا اشكو أواما ولا حرا

وتشفع لي فى موقف الفصل ان دنا ... حساب فلا القى نقاشا ولا عسرا

ويا رب بالمختار ثبت عقيدتي ... واكرم لقائي ان حللت غدا قبرا

ولا تخزني يا رب فى اي موقف ... وجاوز عن المحجوج واقبل له عذرا

ووفق الى الاصلاح أمة احمد ... وصن حومة الاسلام واكتب له النصرا

*

امام الهدى والحق انت خليفة ... لجدك لا نعصي لك النهي والامرا

فنحن على الاسلام نتبع نهجه ... وقد فرض الاسلام طاعتكم قسرا

وشعبك فى طول البلاد وعرضها ... مصر على الاخلاص يمحضك الشكرا

يرى فيك آمالا جساما ويحتمي ... بعرشك من ريب الزمان اذا استشرى

وما هو الا الحصن حصن سيادة ... ورمز اخاء ظل يجمعنا دهرا

ولولاه كان الخلف فينا ، ولم يكن ... كيان ولا كانت حضارتنا الزهرا

ولا كان تاريخ يعطر ارضنا ... ويلبسها مجدا ويكسبها فخرا

وما كان هذا العرش الا تخيرا ... من الشعب عن طوع وما سادنا قهرا

وما كان هذا العرش الا عقيدة ... وديننا وايماننا بان له سرا

وما كان هذا العرش الا خلافة ... حنيفية لا ملك فرعون او كسرى

وما كان هذا العرش الا قيادة ... موفقة قادت مواكبنا الغرا

وما كان هذا العرش يوما بخاذل ... عروبتنا الشماء بل زادها نصرا

وما كان هذا العرش عفوا ونهزة ... ولكنه مذ كان فكرتنا الحرى

وعرف وتقليد عريق وبيعة ... موثقة بالعهد لا تقبل النكرا

سلوا عنه تاريخ البلاد يجبكمو   بصدق فتاريخ البلاد به أدرى

يجبكم بان العرش للشعب عصمة   تصون عقرا وتحمي له ظهرا

يجبكم بان العرش فكرة امة   بها اثلت مجدا بها شيدت قطرا

بها فتحت آفاق عز وسؤدد   تسلسل عبر الدهر لا يعرف البترا

بها كان هذا الشعب شعبا موحدا   رفيع العلى يحى منيع الحمى حرا

يقوده املاك بعزم وحكمة   وقدقا سموه الحلو فى العيش والمرا

وهل عرف التاريخ مثل محمد   وشبله يوم الهول اذ فضلا الفقرا

فلم يتركا للغاصبين وسيلة   ولا اسلما شعبا ولا حاولا غدرا

ولكنه شعار املاكنا اذا   أصيب الحمى هبوا وشدوا له ازرا

فيا لهما من مالكين اراهما   قد افتديا شعبا من المحنة الكبرى

فكان فداء عز فى الدهر مثله   وهز شعوب الارض فانتفضت طرا

فديتهما من مالكين تخيرا   طريق الهدى والحق لم يجتنبا وزرا

وقد ربطا بالشعب امتن عروة   تقدسها الاجيال ما دامت الغبرا

امولاي عفوا ان فضلك باهظ   على امة لا تستطيع له شكرا

ولكنها تحنو عليك وتنحني   على عرشك المنصور والهة حيرى

تراك فتهتز القلوب محبة   وتسمع ما تملى فتمثل الامرا

وتدعو لك الرحمن جهرا وخفية   وتبكي اذا سافرت بل تفقد الصبرا

وتسمع ما تلقاه فى كل دولة   فتهتف بالاعجاب بشرى لنا بشرى !

ولا غرو ان لاقيت عزا ومظهرا   بكل مكان لحت فى افقه بدرا

فانت المليك الفذ والنفحة التي   سرت من ضمير الغيب تنعشنا بشرا

ووارث أسرار الجدود ومجدهم   وملهم هذا الشعب وثبته الكبرى

وباهر من تلقاه علما وحكمة   وقاهر من ايدى التحايل والمكرا

مآثرك الغراء فاحت على الورى   فهاموا بها حبا ومادوا بها سكرا

واعمالك الجلى فرائد لم يطق   سواك لها شفعا فما فتئت وترا

وسعيك فى الدستور فتح مخلد   يسجل للاجيال امثولة عذرا

اذا ذكر الدستور كنت قرينه   فاكرم بها واليه احدوثة زهرا

فللحسن الثاني مدى الدهر رفعة   يسير بها التاريخ منقبة غرا

فيالك من شهم ذكي موفق   تعرفت للتاريخ فى لمحة صغرى

شغلت حياة الناس فى كل محفل   بمبتكرات بيض تستوقف الفكرا

فسر بها الاحرار شرقا ومغربا   وساءت حسودا لم يجد مثلها ذخرا

ولكنه التاريخ ليس بمشفق … على احد يحصي جميله والشرا
سيعلم من ابدى عداء واحنة … وزور ان الحق يفضحه جهرا
وان لهذا العرش سرا وحكمة … بها ضمن الرحمن ان يصحب الدهرا
سيبقى مدى الاباد حرا وان ابت … عقول تظن الترب فى رأيها تبرا
امامته حق وعهده رحمة … ورتبته فى الدين تقتعد الصدرا
واملاكه فينا هداة ائمة … طووا صفحة التعسير وانتهجوا اليسرا
كفى انهم من نسل اشرف مرسل … وان لهم قدرا وان لهم طهرا
فمن رامهم بالكيد حاق به الردى … وشيكا وكان الخزي فى وجهه بقرا
امولاي عش واسلم لشعبك ماضيا … الى غاية علياء انت بها احرى
وقد شعبك التواق ان حماسه … يكاد من التصميم ان يفلق الصخرا
يساير ما تختط شبرا وخطوة … ويقطع فى عزم مراحله عبرا
ويقسم ان تبقى تقاليد مجده … وعرشه ، لا يبغي ولا يقبل الاصرا
ويقسم ان يبقى مدى الدهر مسلما … يساير دين الله يجتنب الكفرا
ويقسم ان تبقى امامة دينه … حنيفية بيضاء لا ردة نكرا
غدا سيرى من ضل ان نظامه … خراب وان الحق فى الخطة اليسرى
فيحمدنا حتى يعض بنانه … اذا بقيت اوهام خطته جبرا
فما هو الا الحق والدين من يشا … يجد فيهما نجحا اذا انعم الفكرا
ولكنها الاطماع تعمي مضللا … فتورده هلكا وتلحقه خسرا
فماذا يريد الناس منا وقد راوا … من البر والتكريم ما جاوز الحصرا
وما بال هذا القطر ان كان محسنا … يكن اجره وزرا ومعروفه نكرا
وما ذنبه والله غير فضائل … على شعبه وقف تحلى بها طهرا
فان يكن الاحسان جرما فاننا … على حقنا والله لا نرهب الزجرا
وليس يضير المرء ان كان صالحا … حسود ولا تثنيه السنة تضرى
لقد طال ليل العرب فى الهم والاسى … ولو تركوا والامر كانوا به ادرى
دهتهم بلايا البغي من كل وجهة … فهدمت البنيان واستأصلت جذرا
و (مكروب) صهيون يشمر ساريا … يدب دبيب النار فى الغابة الشجرا
خطوب واهوال على العرب لم تزل … مكايدها فى جمعهم تترى
باي خطوب العرب اقرع مسمعا … وليس لها عد نظاما ولا نثرا
ومن ايها اجلو واكشف عبرة … اسوء بها قطرا واهدى بها قطرا
ولكنها والله للعرب واعظ … تعلمهم بالجد ان يلزموا حذرا

ويستلهموا التاريخ هديا وخطة   وأن ينبذوا الارجاف ان عزموا سيرا

وأن يرتقوا فتقا تضاعف خرقه   وأن يقفوا صفا ويلتحموا سطرا

*

ايا طاهر الاعراق يا خير مالك   اعاد بما يبني عهودا لنا غرا

وأحيى رسوم الدين والملك بعدما   تمنى لها الباغون ان تسكن القبرا

هنيئا امير المومنين بوثبة   موفقة بالله قد اثمرت فورا

هنيئا بعيد أنت سر سروره   فلولاك ما كانت مواسمنا بشرا

ولولاك ما ابدى اليقين جبينه   ولا ظهرت للحق الوية خضرا

ولا محيت آي الظلام بآية   اطلت علينا بعد ان حجبت عصرا

كفاك من الاخلاق انك صابر   فابشر بان الله يمنحك النصرا

كفاك من الاخلاق انك منصف   فلولاك ظل الحر يلتهم الجمرا

كفاك من الاوصاف انك عادل   فبشرى بطول العمر في عزة بشرى !

تقبل لك الاجلال مني قصيدة   بفضل رسول الله قد صغتها درا

وآله اهل الفضل والطهر انني   ولوع بهم حبا وصب بهم مغرى

لهم مهجتي ما عشت اني بسرهم   خبير وقد صدقت في شأنه الذكرا

فقد قدس القرآن آل محمد   وقد فرض القرآن حبهمو اجرا

وايذاءهم يؤذي النبيء وربه   وايذائه يشقي ويستوجب الدحرا

وحقك في التعظيم والحب بالغ   فانت امير المومنين كما يدرى

وانت وبيت الملك نعمة خالق   هنيئا لنا بها ، رضينا بها ذخرا

الرباط : المدني الحمراوي



كفى بالموت للخلد انتياعا

للشاعر : عبد اللطيف خالص

كفى بالموت للخلد انتياعا — وللأحزان والغير اختراعا
كفى بالموت داهية الدواهي — تذكر من تنكر او اطاعا
اذا أزفت توارى كل شيء — وخر الكل ذلا واختضاعا
قضاء صامت يجري علينا — وحكم لا نطيق له دفاعا
قضاء الله يشملنا جميعا — ويأخذنا غلابا وانصياعا
مآل الكائنات الى زوال — ولو سكنوا بروجا او قلاعا
وهل يؤذيك في الاحداث امر — اذا عم البرية والبقاعا ؟
فما لغز الممات لنا بسر — يشاع اذ اردنا ان يشاعا
تعالى الله مقتدرا حكيما — يدبر امرنا صمدا مطاعا

* * *

كفانا لوعة وأسى وجرحا — واتراحا تلاحقنا تباعا
فبالامس القريب قضى اديب — عظيم الشان دينا واشتراعا

في عشية يوم الجمعة 10 مايو سنة 1963 ابى عدد من اصدقاء شيخ ادباء الرباط الشاعر الاديب احمد الزبيدي الا ان يقيموا له حفلا تأبينيا بمناسبة الذكرى الاربعينية لوفاته ، وهكذا فبعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم وترديد بعض الامداح النبوية تعاقب على منصة الخطابة العلماء والشعراء والاساتذة . وقد اجمعوا كلهم على تعداد مناقب الشيخ الزبيدي فقيد العلم والادب وابرزوا جوانب هامة من حياته الحافلة بالنشاط الادبي والاجتماعي ، وقد القى اخونا الاديب عبد اللطيف أحمد خالص بالنيابة عن مثقفي الرباط هذه القصيدة .....

الهي انني بك مستجير ... فقد اوهى الحمام لي اليراعا

نعى الناعون شيخا من اساه ... رباط الفتح ينصدع انصداعا

أصاب الموت اعظم ساكنيه ... واوسعهم علوما واطلاعا

وأجملهم صفاء وابتساما ... سما فى الناس لينا واتداعا

وارحمهم فؤادا فى سلوك ... وابرعهم حديثا واجتماعا

واصدقهم اباء واعتصاما ... وعزا فى الحوادث وامتناعا

واولى الناس ايفاء بوعد ... يرى فى الحق صدقا واقتناعا

نعى الناعون احمد فاضطربنا ... ذهولا واكتئابا وانسلاعا

* * *

قضى شيخ المعارف والقوافي ... فمن يحيي المجالس والرباعا ؟

ونجم العلم والتاريخ فينا ... توارى عن معالمنا وضاعا

وضاع الشعب فى قلب كريم ... غزا الاخوان منطقه ابتداعا

حديث صادق ينساب صفوا ... ويجري كالمعين طفا وساعا

له فى كل واقعة كلام ... يزيد الفكر عمقا واتساعا

* * *

فقيد الحق كنت لنا سراجا ... يضيء الكون نورا وانتفاعا

ذهبت تجول فى الاقطار طرا ... وتجعل امرنا ذكرا مذاعا

تبشر بانبعاث الروح فينا ... وتقبس من مزاياها لفاعا

وتنشر فى بقاع الارض ذكرا ... بمجدنا سموا وارتفاعا

ولما قام فينا من ينادي ... الى التحرير كنت لهم ذراعا

تصدرت الوفود وصرت تبدي ... امام الخصم عزما بل زماعا

تبنيت المطالب يوم هول ... وثرت على العدا تحمي الرباعا

وقاومت الدخيل وما رماه ... فما نال المراد وما استطاعا

وكيف يصول فى الاوطان باغ ... اذا لمس الشجاعة والشجاعا ؟

وكيف يجول فى الاقطار طاغ ... اذا وجد الشيوخ بها سباعا ؟

وفى عنف المواقف كنت طودا ... نرى فيه احتماء وادراعا

* * *

فقيد الخير لم تترك مجالا ... الى الاحسان منهارا مضاعا

فكم اسهمت فى مشروع بر ... اردت به لامتك انتفاعا

« مدارس » كم رات فيكم معينا ... يقاوم من يريد لها ضياعا

تولاها الفقيد بكل حول ... فما لان « الزبيدي » أو تداعى

رعاها محسنا يولي جهودا ... وابدى فى اماتنها اضطلاعا

بها اضحى الرباط منار علم ... ينير معالم الدنيا شعاعا

وصار الجهل مخذولا بأرض ... بعيدا لا يروم بها انطجاعا

تدارك خيريات كان فيها ... رحيما مسعفا قلبا رواعا

ذوو الباساء كان لهم وقاء ... تداركهم عراة او جياعا

رحمت ذوي النوائب والرزايا ... وذدت الظلم عنهم والقراعا

وللشبان كنت رسول خير ... بزكي نصحه حكم تراعى

وما عهدناك تترك أو تعادي ... فتى ود الكتابة واليراعا

ولكن كنت للتشجيع تدعو ... وبالتشجيع تدرك مستطاعا

فقيد الرشد كنت لنا مثالا ... « ومنهاجا لمن شاء اتباعا »

طواك الموت فى وقت عصيب ... ترى فيه اختلاقا لا اجتماعا

يئن الشعب فيه من انشقاق ... ويشكو منه آلاما وجاعا

فمن للشعب بعدك فى حياة ... يبدد حيرة ، يجلي اقتراعا ؟

* * *

فيا آل « الزبيدي » فى حماكم ... تراث قيم قد طال باعا

قضى امر الالاه فلا رثاء ... يخفف ما اصاب وما الاعا

عزاء خالص من عمق قلبي ... اقدمه ولاء واندفاعا

الرباط : عبد اللطيف احمد خالص



حول كتاب
أعمال مهرجان ابن خلدون

تعليق :
الأستاذ عبدالقادر زمامة

بين يدي الآن هذا السفر من الابحاث والدراسات التي كانت محور اعمال المهرجان الدولي الذي نظمه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة فى الاسبوع الاول من شهر يناير 1962 . حول ابن خلدون مبتكر علم الاجتماع وباعث الفلسفة الاجتماعية فى الحضارة والعمران .

وهذه الدراسات المتنوعة حول ابن خلدون كتبها باحثون من الشرق والغرب . وقد تناول الموضوع الواحد كاتب واحد او عدة كتاب . كل بطريقته الخاصة ومنظاره الخاص الذي ينظر به الى القضايا المعروضة على بساط الدرس .

فمن النوع الاول :

1) الدكتور عبد العزيز الاهواني . فى بحثه الطريف . عن ابن خلدون وتاريخ فني التوشيح والزجل

2) الدكتور اشبولير . فى بحثه عن ابن خلدون المؤرخ .

3) السيدة فتحية سليمان . فى بحثها عن الاتجاهات التربوية فى مقدمة ابن خلدون .

ومن النوع الثاني :

1) الدكاترة : ابو العلاء عفيفي . وزكي نجيب محمود . وعبد الرحمن بدوي . كل هؤلاء تناولوا ابن خلدون الفيلسوف .

2) اساتذة ودكاترة فيهم : علي وافي وابن عاشور. تناولوا بالبحث ابن خلدون مؤسس الاجتماع .

3) موضوعات الاقتصاد والسياسة والفكر تناولها آخرون بالدراسة والبحث .

سوف لا احدثك عن جميع القضايا التي اثارها هؤلاء الباحثون .. كما انني لن اسمح لنفسي بعرض او بنقد كل ما لفت نظري من آراء ونظريات فيها الصواب والخطأ والطريف والمبتذل ... ولكنني سأحدثك حديثا فيه عرض ونقد وتقريظ لموضوعات اعتبرها من اختصاصي ولي فيها رأي أومن به . قد يعتبره الناس خطأ أو صوابا ...

فمن المعروف عند من يدرس مقدمة ابن خلدون ان ثروتها اللغوية تكاد تكون منقطعة النظير . لا من ناحية الكثرة والتعدد والتنوع فقط .. ولكن من ناحية الدلالة والاستعمال فى المعاني والاغراض التي يريدها ابن خلدون ويقصد التعبير عنها .. ومن هنا جاءت المشكلة التي اوقعت كثيرا من الباحثين لافرق بين الذين يدرسون المقدمة فى نصها العربي . وبين من يدرسها فى النصوص المترجمة ..

فكلمة (عرب) فى المقدمة لها مدلول خاص اراده لها ابن خلدون واستعملها فيه ولكن الباحثين خفي عليهم حينا من الدهر هذا المدلول فطفقوا يتحدثون عن نظرية ابن خلدون فى (العرب) وينسبون اليه بالحق والباطل مالم يخطر له على بال .. !! وقد شقي بهذه الكلمة كما شقيت به .

وكذلك كلمة حضارة . وعمران . واجتماع بشري . وخاصة وعامة وغيرها (وهو شيء كثير) لها مدلول خاص يجب ان نعرفه فى لغة ابن خلدون قبل ان ننقد او نقرظ آراءه . .

وبالاضافة الى ذلك نجد لابن خلدون توليدا لغويا غريبا فهو يبتكر المجازات ابتكارا . ويحيي الفاظا كادت تلفظ انفاسها .. ويرتفع باللفظ العامي والاستعمال العامي فى الالفاظ المغربية (الاندلسية الى درجة الفصاحة والبيان . مما لم يعرف لغيره من الكتاب المغاربة والاندلسيين والشرقيين على السواء .

ولهذه الملاحظة وزنها وقيمتها عند نقدنا لبعض الآراء التي جاءت فى بحث الدكتور عبد العزيز عزت وغيره .

فالدكتور عزت يعرض آراء ابن خلدون في قيام الحضارة البشرية ويناقشها على ضوء المذاهب التي جاءت في الموضوع . ولكنه يخلط بين فهم ابن خلدون لمدلول حضارة وبين فهم غيره لها ويقول بالحرف :

(يحدثنا ابن خلدون عن الحضارة ويفهمها بانها التقدم والتفنن في الرقي والترف وهو فهم غير علمي اليوم) .

ثم يتابع نقده للنتائج التي بناها ابن خلدون على فهمه (الخاص) للحضارة واسباب قيامها ثم اضمحلالها في المجتمع .

فالدكتور الباحث يريد من ابن خلدون ان يفهم مدلول الكلمات كما يفهمها اهل القرن العشرين ..!! وهذا شيء مخالف للمنطق والواقع .

فهل يفهم رجال العصور الوسطى ومن قبلهم من مدلول كلمة . قلم . وكرسي . ومدرسة . ونظام . وسياسة . وعلم . ما نفهمه نحن في القرن العشرين ..؟

انهم كانوا ولا شك يفهمون منها مدلولا يناسب مشاهداتهم واصطلاحاتهم وواقعهم الفكري والحضاري

واذا كنا نفهم الحضارة اليوم انها (باختصار ؛ ما نعيش به من وسائل مادية في المأكل والمسكن والحرب والسلم والبناء والتنقل .. ومعنوية في النظام والحكم .. فانه لا يلزم ان يكون ابن خلدون يفهمها نفس الفهم وينظر اليها نفس النظرة ويحكم عليها نفس الحكم .

والذي يجب هو ان نفهم من مدلول الكلمة ما يفهمه ابن خلدون ونسايره في اصطلاحه ثم ننظر للنتائج التي توصل اليها أهي صحيحة في حد ذاتها أو منحرفة عن الصواب ؟

ولا يعنينا في شيء ان يخطيء أو يصيب . ولكن يعنينا ان نكون على صواب في حكمنا عليه .

ولعل هذه الملاحظة هي التي حدت بالمهرجان الى اقتراح البحث في لغة ابن خلدون من جديد على اساس علمي مقبول .

كما ان الباحث العربي الاستاذ ساطع الحصري كان موفقا كل التوفيق حين (صحح) المراد من كلمة (عرب) في مقدمة ابن خلدون .. وقد كنا قرأنا له هذا التصحيح في الدراسة التي كان قد كتبها عن المقدمة منذ سنوات . واعاده في بحثه الذي قدمه للمهرجان .. وهذا التصحيح يجعل المراد من كلمة (عرب) في اصطلاح ابن خلدون (البدو) سواء كانوا من الجنس العربي أو من غيره .. فاذا وجدنا في المقدمة هذا العنوان : (فصل في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب) يجب ان نحمل العرب في كلام ابن خلدون على البدو .. لانهم كانوا في تاريخ البشرية الطويل يدكون تحت اقدامهم معالم المدنيات والحضارات في بابل وآشور وصيدا وصور وقرطاجنة وروما وبغداد وغيرها ..!!

ولننتقل الى ملاحظة اخرى تلفت النظر في البحث الذي كتبه الدكتور عمر فروخ عن موقف ابن خلدون من الدين ومن القضايا الدينية .

لقد اعتاد ابن خلدون ان يختم فصوله بهذه الفواصل :

- والله اعلم
- وفوق كل ذي علم عليم
- سبحان الحكيم العليم

وقد اراد الدكتور أن يتخذ من هذه الفواصل دليلا على :

1) مراعاة الفاصلة للبحث الذي جاء في الفصل قبلها

2) مسايرة ابن خلدون لاهل عصره في ختمهم لابحاثهم بمثل تلك الفواصل .

وقد انتقد الدكتور راي الحصري في ان استعمال مثل هذه الفواصل يدل على عمق تدين ابن خلدون وتعلقه بخالقه جلت قدرته في جميع الاحوال .

والمتتبع لهذه الفواصل في المقدمة لا يقر الدكتور فروخ على رايه فالفواصل من جهة ليست كلها مناسبة بصيغتها لما تقدمها من فصول وهي من جهة اخرى مظهر من مظاهر تدين ابن خلدون وعمق ايمانه بالله واستمداد عونه وتوفيقه . وليست عبارات محشوة لامدلول لها .. أو هي لمجرد محاكاة ما اصطلح عليه اهل العصر .. من علماء وباحثين .

على ان الدكتور فيما عدا هذه الملاحظة اتانا ببحث طريف عن فهم ابن خلدون للدين وموقفه من نشأة الاديان وتاريخها واطلاعه الواسع على الثقافة الدينية عند اليهود والنصارى والمسلمين .

وفى البحث الذي كتبه الدكتور ابو العلاء عفيفي عن موقف ابن خلدون من الفلسفة والتصوف . نجد التوفيق يحالفه فى عرض آراء ابن خلدون فى الفلسفة عموما والاسلامية خصوصا .. اما فى نقده وعرضه لآرائه فى التصوف فقد ابتعد عن الصواب .

وذلك يرجع الى ان لابن خلدون آراء فى التصوف نجدها مبعثرة فى المقدمة هنا وهناك .. كما ان له آراء مجموعة فى كتابه (شفاء السائل لتهذيب المسائل) الذي طبع بتركيا بعناية وتصحيح وتعليق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي .

ويظهر ان الاستاذ عفيفي لم يرجع الى (الشفاء) لربط آراء ابن خلدون فى التصوف وتسلسلها واظهار ما طرا عليها من تغيير بسبب الحالة النفسية التي كانت مسيطرة على المؤلف اثناء كتابة (الشفاء) ثم (المقدمة) فيما بعد ...

وبصفة اجمالية فان ابن خلدون يبدو فى المقدمة وقد عركته التجارب . وصرعته النكبات والاحداث يميل الى نوع من الملاينة للمتصوفة والتماس العذر لبعضهم فى كثير من القضايا التي اثاروها بخلافه فى (الشفاء) فان آراءه كانت قاسية عنيفة لا هوادة فيها ولا ملاينة .. كما ان له فتوى فى الموضوع الحقها الاستاذ ابن تاويت بالكتاب المذكور ...

وقد كان ابن خلدون متصوفا عند ما عرض آراء الصوفية وهاجم بعضها وانتصر للتصوف الشرعي المبني على الاستمداد من الكتاب والسنة .

كما كان فيلسوفا حينما حاول ابطال الفلسفة من اساسها ولا شك انه كان يعني فلسفة ما وراء الطبيعة التي لا تؤدي ــ فى نظره ــ الا الى الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا .

وقد رايناه فى مستهل المقدمة يريد ان يعوز ما كتبه فيها وفى غيرها الى الالهام الذي الهمه الله فقال مفتخرا :

« فى غير تعليم ارسطو ولا افادة موبدان » .

ولننتقل بعد هذا الى البحث الطريف والكشف الجديد الذي اتحفنا به الدكتور عبد العزيز الاهواني فى موضوع :

« ابن خلدون وتاريخ فني التوشيح والزجل » .

والدكتور الاهواني له ابحاث موفقة فى الادب الاندلسي ولا سيما فني التوشيح والزجل وله مؤلف قيم فى الموضوع افادنا كثيرا عن نشأتهما وتطورهما ولغتهما واصحابهما .

وكان الفصل الذي كتبه ابن خلدون فى الموضوع منارا للباحثين لما جمعه من معلومات دقيقة فريدة من نوعها ... ولكن بحث الدكتور الاهواني اداه الى اكتشاف عظيم الاهمية وهو ان الفصل المذكور لم يكن الا جزءا من كتاب لابن سعيد مؤلف المغرب . والغصون اليانعة . والقدح المعلى . وغيرها من الكتب . واسم الكتاب المكتشف هو :

(المقتطف من ازاهر الطرف)

وقد عثر الدكتور الاهواني على مخطوطين للكتاب ووصفهما فى بحثه ثم نشر نصا من كتاب ابن سعيد وقابله بما عند ابن خلدون فى المقدمة بما لا يدع مجالا للشك ان ابن خلدون نقل ما كتبه ابن سعيد بالحرف مع تصرف بسيط يوهم القارىء انه اعتمد عليه فى بعض الاجزاء منه فقط مع ان الواقع خلافه .... وقد قال الدكتور الاهواني فى ختام المقارنة : (فقد أصبح من حقه (ابن سعيد) على من ينقلون هذه الاخبار عن التوشيح والزجل بالاندلس من العلماء المحدثين ان يقولوا : (قال ابن سعيد فى المقتطف) بدلا من قولهم (قال ابن خلدون فى المقدمة) ....

وبعد فقد كان هذا السفر الضخم تحفة علمية مشرفة لانتاج ابن خلدون الفكري .. أما شخصية ابن خلدون وتاريخ حياته فلم يعن بها الباحثون الا قليلا وقد عهد الى الدكتور عبد الرحمان بدوي بتاليف كتاب خاص عن مؤلفات ابن خلدون واستقصاء الحديث عنها .. ويظهر ان الكتاب الف فعلا لان المقدمة تتحدث عنه وتصفه باعجاب فعسى ان يكون فى طريقه الينا ....

فاس : عبد القادر زمامة

قصة العدد



المقعد

بقلم : ريشارد ريف
ترجمة : الأستاذ ابراهيم السولامي

توقف (*) الخطيب برهة وشرب جرعة ماء ، وكان كارلي قد سمعه باذن مرهفة لانه كان يقول كلمات نبيلة وصادقة ، ثم تنسم الهواء لان شمس نوفمبر اللافحة كانت تجثم على الجموع المصفية ، ولم تكن الاشجار لتلقي غير بعض الظلال فوق الساحة الكبيرة فى جو هانسبرج ، بينما كان المنديل الذي جعله كارلي بين عنقه وياقة القميص ينضح بالماء ، واجال كارلي عينيه فى هذا الخضم من الوجوه التي تحف به كانت وجوها من كل لون ، : ابنوسا لامعا وسط شحوب وجهين او ثلاثة بيضاء منبثة بين الجموع .

وحدج كارلي الرجلين اللذين يكتبان اثناء القاء الخطب من حين لحين ، كان الرجلان يرفعان راسيهما ليتفحصا الخطيب : (نحن ننكر حق كل جماعة فى ان تحكم راضية متعمدة جماعة مستعبدة ، وان علينا ان ندافع عن حقوق كل شعب يرى نفسه محكوما عليه بالتفرقة لاسباب عنصرية لونية ، وان نرفض وراثة ابنائنا للحقوق التي اريد لها ان تكون لنا ، اننا ضحايا التفرقة العنصرية فى ميدان التعليم وفى المجال الاجتماعي والمجال الاقتصادي) .

وسأل كارلي نفسه : هذا رجل يعرف ما يقوله ، انه يقول بانني اساوي قيمة اي انسان آخر وربما كنت اغلى من ابيض ، هذا امر يدعو الى التامل حقا ، واني لأتساءل ان كان يقصد ان لي الحق فى الذهاب الى اي سينما والاكل فى اي مطعم اشاء وارسال ابنائي الى مدرسة البيض ؟ ان هذه افكار خطيرة تستحق التامل ترى ما يكون راي اوكلاس فى كل هذا ؟ فاوكلاس يقول بان الله خلق السود من احد جانبيه وخلق البيض من الجانب الآخر ، وان البيض سيظلون دائما سادة ، والسود سيبقون عبيدا مسخرين ، لكن هذا الخطيب الآن يتكلم بشكل آخر وكلماته تدوي صادقة عادلة .

ورمش كارلي مفكرا ، وكان على المنصة خطباء كثيرون سودا وبيضا يتصرفون كما لو انه لم يكن بينهم اي تمييز .

كل هذه الاشياء كانت جديدة على فكر كارلي ، وكان عليه ان يكون على حذر فى تقبلها . ولم لا يتقبلها؟ فهو ليس رجلا ملونا بل انسانا كما قال آخر الخطباء ، وانه ما فتيء يذكر انه راى على الجرائد صورا لاناس تحدوا قوانين التفرقة العنصرية وهم يبتسمون رغم انهم كانوا مسوقين الى السجن ، لله ما اعجب الحياة.

ووالى الخطيب كلامه وكارلي يصغي باهتمام وتصميم ، كان يتكلم بهدوء يمكن ان يستشف منه انه خطاب هيء على مهل ، وفكر كارلي : (هذا رجل عظيم)

وكان آخر الخطباء امرأة بيضاء ترتدي فستانا ازرق ، وكانت تدعو المتجمهرين الى ان يشجبوا كل قانون يرمي الى التفرقة ، وان يسعى لتحقيق هذه الدعوة كل واحد حسب امكانياته فلما ذا كانت تتكلم هكذا ؟ ان فى مقدورها ان تذهب الى احسن دور السينما وتسبح فى ارقى المسابح .

وانتهى الجمع فشق كارلي لنفسه طريقا وسط الجموع بينما كانت اقوال الخطباء تدور فى رأسه ، ان هذا الذي سمعه لم يكن ليحدث فى Bietjiesvlei فهل هذا صحيح ؟ ودوى فرامل سيارة بجانبه فاعاده الى دنيا الناس من جديد ، واشراب وجه ابيض حانق :

— انظر الى حيث تضع قدميك ايها الزنجي القذر

---

* الكاتب ريشارد ريف قاص من جنوب افريقيا درس فى جامعة كاب تون ، وهو الآن استاذ للغة الانجليزية واليونانية فى مدرسة للملونين ببلاده.

وسدد كارلي انظر اليه فى بلادة ، أكيد ان هذا الابيض لم يستمع الى الخطباء منذ حين ولم ير السيدة البيضاء وهي تمنح تكسلي سيجارة ، لو رآها لصبت فى وجهه كلماتها تلك وقال فى نفسه :

الآن من الاحسن ان اتجه الى القطار وواصل التفكير فى كل هذه الاشياء .

ونظرا الى المحطة نظرة جادة ، فابصر بها كوكبة من الناس بيضا وسودا وسمرا مثله مجتمعين ، لكن كلا منهم كان يشعر بخوف غير طبيعي من الآخر ويحذره ، كل منهم كان سجين عالمه الصغير الضيق الموسوس ، الم يقل الخطيب ان علينا ان نحبط كل هذا النوع من التفكير ، كل حسب وسائله ؟ لكن ما هي هذه الوسائل ؟ وكيف يمكن ان تنبط تلك الافكار ؟ وغمر ذهنه هذا التساؤل الملحاح ؛ وعلى غرة اصر على التحدي وهو يلمح ضالته : المقعد ، مقعد المحطة وقد صبغت فوقه بالحروف البيضاء جملة (خاص بالاوربيين) ولمدة من الزمن بدا له ان هذا التحدي يجسد مجتمع افريقيا الجنوبية المتمايز باجمعه .

هنا اذن تحدى كارلي ، تحديه الذي يؤكد حقوق الانسان ، انه مجرد مقعد خشبي عادي يشبه مئات الملايين فى افريقيا الجنوبية ، لكن هذا المقعد يجسم الآن جميع شرور نظام لا يعرفه ويحس انه ضحيته ، ان هذا المقعد يحول الآن بينه وبين الانسانية ، فاذا اقتعده حقق انسانيته وان لم يفعل فقد فصم نفسه كانسان عن المجتمع الانساني ، وراوده شعور باطني بانه سيقلب كل هذا الوضع القاسي فى افريقيا الجنوبية فقط بجلوسه على هذا المقعد ، ان هذه تجربته الخاصة فليجهر بتحديه .

وكان مظهره هادئا تماما حينما جلس ، لكن قلبه كان يضرب بعنف ، ففي اعماقه كان يتصارع صوتان متناقضان احدهما يقول : (ليس لك الحق فى ان تقتعد هذا المقعد) والآخر يجيب : (ولم لا يكون لك الحق فى الجلوس على هذا المقعد ؟) ، الصوت الاول كان يتحدث عن الماضي وسلوكه العبودي فى الحقل ، سلوكه وسلوك ابيه وجده الذين ولدوا سودا وعاشوا عيشة السود وماتوا كالعجماوات ، والصوت الآخر كان يتحدث عن الافاق الجديدة : (كارلي انت رجل ، لقد استطعت القيام بشيء لم يستطعه من قبلك جدك ولا ابوك ، وستموت كرجل) .

وتناول كارلي سيجارة وشرع يدخن ، وغاظه قليلا الا يكون احد قد لاحظ جلوسه على المقعد ، لقد كان رجلا كبقية الناس يجلس على مقعد عمومي فى محطة غاصة ويدخن سيجارة ، فهل هذا يعد نصرا ؟ وهل يعد انتصارا ان كان انسانا كالآخرين ؟ ورأى امراة بيضاء انيقة تسير على الرصيف فتساءل فى نفسه : ترى هل ستجلس على المقعد ؟ ثم تابع تساؤله : (عليك ان تقف وتترك مقعدك للسيدة البيضاء) ورمشت عيناه بسرعة وشد اكثر على سيجارته ، ومرت المراة حذاءه دون ان تعيره التفاتة وتابعت سيرها على طول الرصيف ، فهل خشيت ان تتحداه؟ ان تتحدى حقه فى ان يكون انسانا ؟ واحس انه متعب ، وانبعثت باعماقه فكرة ثالثة جعلت كل شيء فيه محط تساؤل : (انك تقتعد هذا المقعد لانك متعب) فهل تسمر فى موضعه لما به من عياء ام لانه اراد ان يختبر ان كان فى قدرته الجلوس حيث يحلو له ؟ .

بدا الناس ينزلون زرافات من قطار دخل المحطة وهم يتدافعون ويتزاحمون دون ان يعبا احدهم بوجوده ، انه القطار الذي ينتظر ، وان بوسعه ان يركبه ويدخل منزله ، لكن هذا يعني انه سيستسلم ويرضى بالهزيمة ويعدل عن تحديه فيكون بالتبعية قد قبل ان يكون غير انسان ، فمكث جالسا يجذب نفسا من سجارته ويفكر نائيا عن التجمع وعن المقعد ، كان يفكر فى بيتجسفلي وفى اوكلاس الذي اصر على ذهاب كارلي الى كاب تو ، اوكلاس الذي كان يداعب غليونه وينظر اليك باستهزاء ، كان حكيما يعرف اشياء كثيرة ويقول انه يجب الذهاب الى كاب تو لمعرفة معنى الحياة ، اوكلاس كان يبصق ويغمز بخبث عند ما يتكلم عن النساء اللاتي عرفهن فى شارع هانوفر ، وكان يقول : ان الله خلق البيض والسود فعلى كل منهم ان يلزم مكانه .

— انهض من هنا .

لم يسمع كارلي الصوت الخشن .. وواصل افكاره : هناك اوكلاس ينتظر الآن فى المراعي ليحمل اليه كاسه الصغير من الخمر المناسب الثمن .

— اقول لك قف من هنا ايها القذر .

واستعاد كارلي على الفور وعيه وكاد ان يثب على قدميه لكنه تذكر من هو ولماذا كان يجلس فى ذلك المكان ، وشعر بغتة انه متعب حقا ثم رفع عينيه ببطء الى الوجه القرمزي الذي يحدق فيه .

— قف ، ان هناك مقاعد لك .

لم يتبس كارلي وظل محتفظا بنظرة باردة صارمة .

— الا تسمع بانني احادثك ايها الاسود القذر .

وفي هدوء وتعمد جذب كارلي نفسا من سيجارته وتبادلا نظرات التحدي كأنهما ملاكمان يعرفان انهما سيتلاكمان لكن كلا منهما يحتفظ بعدم المبادرة .

— هل يجب ان الوث يدي بلمس قذارة مثلك ؟

لم يجب كارلي ان الكلام معناه قطع التوتر السحري للحظة وتحطيم تعاليه الذي يحس انه يزداد.

وبعد سمت محرج قال الرجل :

— سانادي شرطيا لئلا المس حقيرا مثلك ، اني ارى انك لا تقوى حتى على فتح فمك النجس الاسود حين يكلمك ابيض .

وفهم كارلي ضعف الرجل الابيض الذي لا يقدر على التصرف بمفرده ، لقد ربح كارلي الشوط الاول ، واخذ الناس يتجمهرون ، فصاح احد المدعين :

— افريقيا معنا

ان كارلي يجهل هذا وتحلق الناس حوله مشدوهين من رؤية الاسود يجلس على مقعد خاص بالبيض .

وتابع كارلي تدخينه .

— انظروا الى هذا القرد ، ان هذه هي مغبة اطلاقنا العنان لهؤلاء الاوغاد .

— لا اعرف معنى لهذا التصرف ، ان لهم مقاعدهم
— لا تقم ، ان من حقك ان تجلس حيث انت .
— سينهض حتما حين يصل الشرطي .
— لكن لم لا يقدرون على الجلوس معنا ؟
— لقد كنت اقول هذا دائما ، كانت عندي خادمة زنجية بسفاهتها ...

ولبث كارلي جالسا لا يسمع شيئا ، وبعد تردد اتخذ موقفا محددا : لا شيء يرغمه على الوقوف ، فليعملوا ما يطيب لهم .

— آه . هو ذا . قف ، الا تعرف القراءة ؟

وغطاه الشرطي بكامل هيأته حتى ان كارلي كان يستطيع رؤية الاشارات الموضوعة على ازرار بدلته الرسمية ، ورؤية تجاعيد عنقه .

— اسمك وعنوانك ؟ اسرع .

فواصل كارلي احتفاظه بالصمت العنيد ، واحس الشرطي انه مأخوذ بموقف الرجل : وطفقت الجموع تتكاثر ، وسمعت المراة البيضاء ذات الفستان الازرق تصيح :

— ليس لك الحق في ان تكلم الرجل بهذه اللهجة.

— تدخلي فيما يعنيك ، ساطلب رايك حين أكون في حاجة اليه ، ان بسبب امثالك اخذ الاوغاد يعتقدون انهم سواسية والبيض . قف .

— اني الح على معاملته باحترام ؟

فامتقع لون الشرطي الانجليزي وغمغم دون ان يجد الكلمات المناسبة :

— نعم ... نعم ...

وصرخ احدهم :

— اضرب هذا النذل اذا رفض الوقوف .

وبقسوة وضع رجل ابيض جماع يده على كارلي:

— قف يا قذر .

فاستدار كارلي ليقاوم ويتشبث بالمقعد ، بمقعده ، لقد كانوا كثيرين فشرع يضرب بوحشية لكنه احس بضربة مؤلمة ملء وجهه ، واخذ دمه يتدفق بينما ظلت عيناه شرستين فصمم على مواصلة المقاومة، وعلى الرغم من ان الشرطي اسرع بوضع الاغلال في يدي كارلي وبدأ في تفرقة المحتشدين فان كارلي ظل يتروح مقاوما ، بيد انه فجأة تماسك وانتصب على مهل، لقد احس ان من العبث ان يستمر في المقاومة ، ولما ذا يقاوم ؟ لقد اطلق تحديه وكسب ، والآن آن اوانه ليضحك اذ ما قيمة الباقي ؟

— تعالى ايها الحقير .

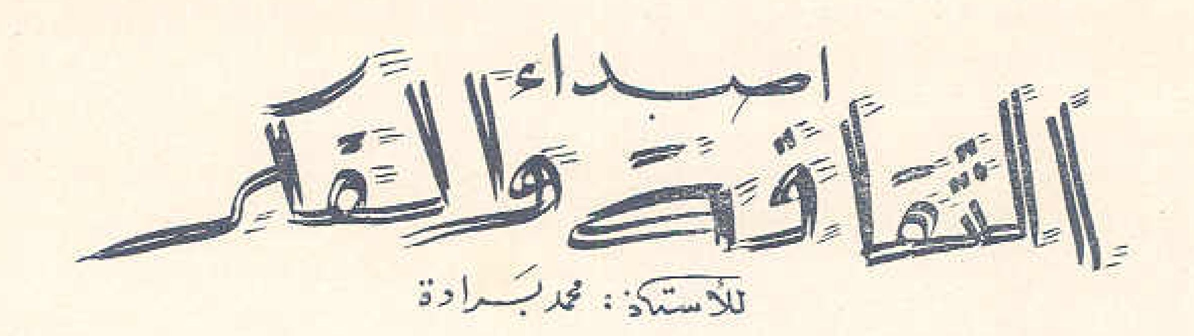
قالها الشرطي الانجليزي وهو يدفع كارلي بين الجموع .

فاجابه كارلي وهو يفتح فمه للمرة الاولى :

— نعم ... نعم ...

ونظر الى الشرطي بكل اباء الرجل الذي استطاع ان يجلس على مقعد (خاص بالاوربيين) .

القنيطرة : ابراهيم السولامي



للأستاذ: محمد برادة

مثقفوا افريقيا الجنوبية أمام مسؤولياتهم

خلال المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود الذي انعقد بروما سنة 1959 وقف فرانزان فانون يقول في مطلع بحثه : (*)

« يتحتم على كل جيل ان يكتشف ، رسالته ليضطلع بها أو يخونها ... »

ولكن « خيانة المثقفين » كما كان « جوليان بندا » يسميها اخذت تميل الى الاندثار بخاصة في الاقطار المستعمرة او الرازحة تحت تعسفات الميز العنصري.. نتيجة لانتشار الوعي بين الجماهير ، ونتيجة للانتصارات التي حققتها الانسانية من خلال تطور « التاريخ » . واذا كانت حركات الاستعمار تحرص دائما على تغليف محاولات الابادة والمسخ ، وتعمل على خلق جماعات من المثقفين المزيفين الذين لا ينفكون يلهجون بحضارة الرجل الاوربي وتفوقه ، فان تفتح الوعي ، والتحام الكفاح السياسي بالكفاح الثقافي . خلق تيارا فكريا ثوريا يعكس أوضاع المجتمع ، ويترجم بامانة مطالبه ومطامحه . ومن ثم بدأت الاصوات ترتفع لتعبر عن الانغام الجديدة التي تعزف سواء في آسيا او افريقيا او امريكا اللاتينية .. ذلك ان طبقة الزنوج السود او الملونة لم ترض بان تظل مبعدة عن صنع مستقبل نير للانسانية .

ولسنا الآن بصدد تتبع الاسهامات الادبية والفنية لشعوب العالم الثالث ... ولكنا نقصد الى ترجيع بعض أصداء مواقف رجالات الفكر والادب في افريقيا الجنوبية تضامنا منهم مع شعوبهم المكافحة من أجل القضاء على الميز العنصري ، واثبات حق الكائنات البشرية في الحرية والتساوي ...

وهكذا نجد ادباء لامعين أمثال نادين كوردمي ، والان باتون صاحب (ابك يابلدي الحبيب) وبيتر ابرهامز ، وغيرهم يقاومون الاضطهاد والتعسف ، ويجهرون بالدفاع عن حقوق الانسان . وردود الفعل الواعية لاتقتصر على السود من ابناء افريقيا الجنوبية، بل اننا نجد كثيرا من العلماء والاساتذة البيض يتضامنون مع الافريقيين ويساندونهم في مطالبهم المشروعة .. مما اضطرهم الى النزوح بعيدا عن مضايقات الحكومة الافريقية الرجعية . ونذكر من بين هؤلاء العالمة الانتربولوجية « مونيكا ولسون » التي ساهمت بأبحاثها وخطبها ، والمربي ريتشارد فاندير روس .. وعدد اساتذة الجامعة يتضاعف يوما بعد يوم . وهذا الشكل الذي اتخذه تضامن المثقفين الاوربيين المقيمين بجنوب افريقيا يدل بوضوح على ان الشهادة التي نقراها مثلا في رواية « ابك يابلدي الحبيب » ليست مضخمة أو مختلقة ، وانما هي مستمدة من جو مثقل بالكراهية والتعسف والميز العنصري المقيت ...

وقد استطاع انتاج ادباء جنوب افريقيا الملتزم ، ان يفرض مكانته بسرعة وان يثير اهتمام النقاد بما يشتمل عليه من تصوير صادق لمآسي السود المضطهدين في أوطانهم .. ورغم انه يصدر عن الاطار الاقليمي ويقتصر على تسجيل المشاكل اليومية ، فان صدقه يضفي عليه بعدا انسانيا يرفعه الى المستوى الانساني .. وبذلك اصبح الادب في جنوب افريقيا سلاحا قويا لفضح العنصرية وادانتها مما جعل الحكومة الرجعية في افريقيا الجنوبية تصدر تشريعا جديدا يفرض الرقابة على كل نتاج ادبي . وازاء هذا الاجراء

---

* Les damnés de la terre p. 155. Ed. Maspero.

التعسفي عبر جميع ادباء جنوب افريقيا عن احتجاجهم الصارم ، وبعثوا الى وزير الداخلية بيانا نقتطف منه ما يلي (※) :

« ان مسؤوليتنا ازاء مهنتنا وازاء المجتمع ، تحتم علينا ان نكتب بشرف دون التأثر باعتبارات سياسية او اعتبارات تراعي مصالح جهة واحدة ..

اننا جد قلقين على مستقبل كل جهد خلاق بافريقيا الجنوبية نظرا لاستحالة اية مناقشة صريحة او تحقيق امين ، ولتعذر اي نمو فكري في جو تختنق فيه كل المطامح منذ البداية .. »

وقد وقع هذا البيان 117 كاتبا من بينهم الان باتون ، ونادين كوردمير ، ولورانس فان ديربوست ، و 41 فنانا اخرين ...

وفي الدانمارك تمكن مخرج سينمائي من انجاز فيلم بعنوان : « Dilemme » صوره في « جوهانسبورغ » تحت سياج من السرية ؛ واقتبس موضوعه من رواية الكاتب الافريقي نادين كوردمير التي عنوانها : « عالم الغرباء » .

كل هذه المظاهر الفعالة لمساهمة الثقافة في مقاومة الميز العنصري تعطينا دليلا قويا على تحمل مثقفي افريقيا الجنوبية لمسؤولياتهم من اجل محو وصمة الحقد العنصري ، ومساندة الانسان الافريقي في معركة التحرر والمساواة ؛ وهي ــ لعمري ــ معركة الانسان اينما كان لتخليص القرن العشرين من « اخلاق العصابات » كما يقول البير كامو .

اليسار والالحاد .. في فرنسا

كثير من الموضوعات التي تطرح في ايامنا للمناقشة لا نجد جدتها ــ عند التحليل ــ تامة ، بل تكون مستمدة من قضايا اساسية في تاريخ البشرية اثارها الانسان منذ بدا يعي ذاته ويدرك المتناقضات ، ومعوقات الحرية . ولكن كل عصر يضفي على الموضوع خصائصه وملابساته ويربطه بتطوراته ومميزاته فيجعل منه موضوعا « بكرا » رغم الرجات التي عرفها من قبل .

من ذلك ، المناقشة التي اثيرت في صحيفة « فرانس اوبسيرفاتور » خلال شهر يونيو ، عندما كتب السيد جلبير فيريلاك مقالا بعنوان « هل ما يزال من حقنا ان نكون ملحدين ؟ » (※) تحدث فيه عن انتشار حملات الدعاية المسيحية بفرنسا ، وتسخير الصحف والافلام لفرض روح الانقياد ، وضمان سيطرة الكنيسة واستنتج من مناقشته لجوانب المسالة ان الدين يؤخر تفتح الانسان ، ويصرفه عن الادراك الصحيح ، لمشاكله في العصور الحديثة .. ثم يلاحظ ان المواطن لم يعد بامكانه ان يعيش دون ان يرتبط اما بالشيوعية او بالمسيحية ، ويتساءل : الا يمكننا ان نكون يساريين من غير مسيحية ؟

وقد كان لهذا المقال الصريح ردود فعل كثيرة من لدن قراء الصحيفة وبعض المثقفين المسيحيين ، فكتب فيليب هرنانديز ردا بعنوان : « هل للمسيحي حق في ان يكون يساريا ؟ » (※) يبين فيه ان المسيحية كعقيدة لا يمكن ان نحملها الاخطاء التي ارتكبت في سياق بعيد عن تعاليم الكنيسة . وذكر بالطابع الديناميكي الذي اخذ يسلكه رجال الدين ازاء مشاكل مجتمعهم وانتهى الى ان الدين لا يمكن اعتباره عائقا يحول دون تضامن المواطنين المتدينين والملحدين ، ما داموا ملتقين حول اهداف مشتركة ، ومؤمنين بمباديء العدالة والمساواة ...

والواقع اننا عندما نستقريء المراحل التي مرت بها المسيحية نجد فيها مبررات لتفسير الموقفين معا ، اي موقف الملحدين او اللادينيين ، وموقف المتدينين المتحررين .. فقد احتدم الصراع منذ عهد الامبراطورية الرومانية بين الكنيسة الكاثولكية ومهاجميها من النبلاء والبورجوازيين ، وكانت الكنيسة دائما تساند الحكومات ، وتدين المتطعين عن سلطانها ، ولم تسمح قط بوجود عناصر تفكر خارج اطار الاديان . غير ان العناصر المتحررة استطاعت ان تفرض نفسها من خلال صراعات دامية ، فلم تعد تعاليم الكنيسة الكاثوليكية هي المرجع الوحيد ، لان البروتستانت تمكنوا من طرح قضية حق حرية التفكير والعبادة ، واستطاعوا بتأويلاتهم الجديدة المتفتحة لتعاليم المسيح ، ان يلفتوا الانظار الى خطر سيطرة الكنيسة الكاثوليكية . واذا كان الفكر الحر في فرنسا قد استطاع ان يحقق انتصارا هاما مع اعلان ثورة 1789 ، فان ذلك الانتصار لم يكن نهائيا ، لان المتعصبين للدين « الواحد » ، سرعان ما عادوا الى بسط سيطرتهم ومتابعة اضطهاد

※ Preuves informations - Juin 1963.

※ Gilbert Verilhac - A-t-on encore le droit d'être athée ?

※ Philippe Hernandez - Un Chrétien a-t-il le droit d'être de gauche ?

العناصر العقلانية . فقد ضمن اعلان حقوق الانسان « حرية التفكير لكل فرد كما يشاء حتى في المادة الدينية وان يتمتع بالحصانة في اظهار تفكيره » (*) . ولكن البابا هاجم هذا الحق واخذ يعمل لنسفه . وكان القرن التاسع عشر عصر الصراع الكبير بين الكنيسة والعلمانيين الذين استمروا في الكفاح أمدا طويلا قبل ان يتوصلوا الى اقرار قانون 9 كانون الاول سنة 1905 القاضي بفصل الكنائس عن الدولة ، ذلك القانون الذي يؤمن « حرية الضمير » ولا يمنح اية اعانة مالية لاي دين » .

من هذا العرض يتبين لنا ان الكنيسة الكاثوليكية اصطبغت منذ قرون طويلة بصبغة التزمت والشعوذة ، ومقاومة التيارات التجديدية . ويتمثل لنا هذا السلوك في المواقف الرجعية التي اتخذتها البعثات التبشيرية الكنسية المرافقة لحملات الاستعمار في آسيا وافريقيا (*) . وكذلك سكوت الفاتيكان عن فظائع بعض الحكام المنضوين تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية .

الا ان المتتبع للخطة الجديدة التي اخذ الفاتيكان ينهجها في السنوات الاخيرة ، ثم الحركات المسيحية اليسارية . تظهر مدى التحول الطارىء على مفهوم مهمات رجال الدين . فلم يعد مقبولا من حماة « ملكوت الرب » ان يقبعوا داخل صوامعهم ليطلوا على العالم من خلال تاملات باطنية . ولعل ذلك ما حدا بالبابا الجديد بـــول ، الى القول بان « المخاطرة تكون جزءا من العمل الكنسي » .

وفي كتاب ضخم الفه احد الباحثين الالمانيين عن « الرهبان العمال » (*) نعثر على التطورات التي رافقت تغير عقلية الرهبان وخروجهم من العزلة الى العمل المباشر وسط الناس . ويقول المؤلف في ذلك :

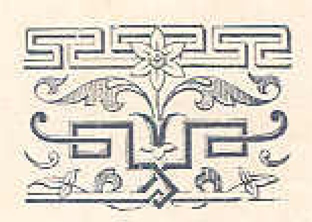
« كل عصر يتطلب نوعا من الرهبان يلائمه ، والقرن العشرون لا يسمح بتاسيس انظمة جديدة للتامل أو الاعتصام في الاديار . بل ان الامر يتطلب البحث عن شكل اكثر مرونة يهيء للذين نذروا حياتهم للالاه ، ان يبقوا على اتصال مع اخوانهم العلمانيين داخل بيئاتهم (المعمل ، الحي ، الاسرة) . .

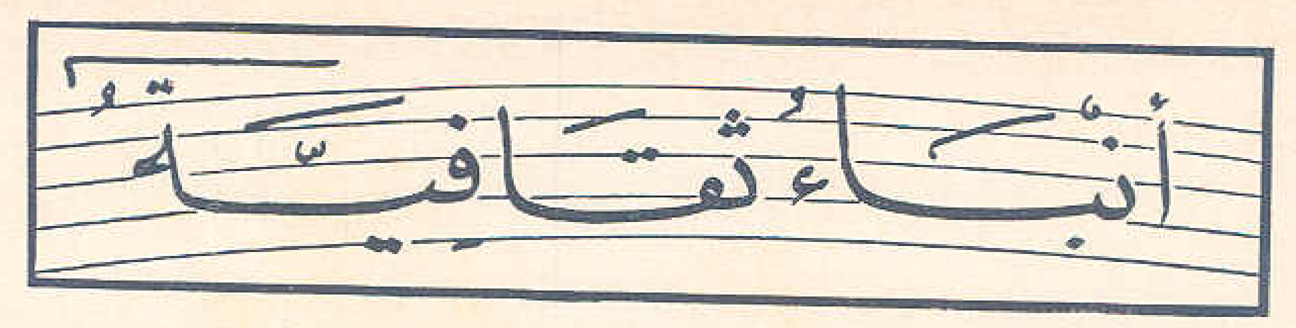
وبعد ،

ان مناقشة هذا الموضوع لا يتسع لها هنا المجال . . ولكنني اعتقد ان المشكلات الاساسية المعترضة لتطور حرية الانسان لا تتمثل في الدين ، شريطة أن يكون مفهومه متحررا تقدميا .

الرباط — محمد برادة

* انظر تاريخ الفكر الحر — تاليف البير بايه ، ترجمة بهيج شعبان — منشورات عويدات
* R. Delavignette - Christianisme et Colonialisme.
* Grégor Sieler - La mission des prêtres-ouvriers, les faits et les conséquences.





* منحت كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية ببوردو درجة الدكتوراه الفخرية لجلالة الحسن الثاني بمناسبة زيارته لفرنسا . وقد اقيمت بهذه المناسبة حفلة كبرى حضرها أساتذة الكلية وعدد من الشخصيات الرسمية ، ألقى فيها عميد الكلية المذكورة الاستاذ جوزيف لاجوجي خطابا رحب فيه بزيارة العاهل الكريم كما اشار الى سنوات الدراسة التي تلقاها جلالته في الكلية حيث حصل على شهادة الدراسات العليا في القانون المدني ، كما نوه العميد بالنشاط الذي يمتاز به جلالته والخدمات الجليلة التي قدمها لبلاده مما في ذلك الدستور الذي تسنى للمغرب بواسطته الدخول في عهده الديمقراطي .

* في الزيارة الملكية الى الديار الفرنسية قام جلالة الملك الحسن الثاني بزيارة المعرض الذي اقيم في متحف « كارباتيبي » تحت شعار « الفا سنة من الفن المغربي » وكان لهذا المعرض نجاح كبير ، كما توجه جلالته الى زيارة مقر اليونيسكو حيث دشن المعرض المقام هناك تحت شعار « ستة قرون للملاقات الدولية » .

* نظمت وزارة السياحة والفنون الجميلة مهرجانا مسرحيا وفلكلوريا في أواخر شهر يوليو شاركت فيه عدة دول ، منها : سوريا ، والجزائر ، وفرنسا ، واسبانيا ، والبانيا ، ويوغوسلافيا .

* بمناسبة الزيارة الملكية لباريز افتتح المهرجان الكبير المنظم من طرف وزارة السياحة والصناعة التقليدية والفنون الجميلة في قصر شايو بباريس ، شارك فيه 130 فنانا مغربيا من جميع انحاء المملكة المغربية .

* يزور المغرب الدكتور عبد الله عبد الدائم في مهمة لدراسة الاوضاع التعليمية الزراعية بالمغرب بتكليف من منظمة اليونيسكو الدولية ، وستستغرق اقامته بالمغرب ستة اسابيع ، ومعلوم ان الدكتور عبد الله عبد الدائم بالاضافة الى سمعته ومركزه في الاوساط التربوية العالمية يعتبر من قادة الفكر والتوجيه في العالم العربي ، وقد سبق ان ساهم في تحرير مقالات قيمة لمجلتنا ، نتمنى له مقاما طيبا ومزيدا من التوفيق ...

* يصدر قريبا للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله كتاب يقع في مجلدين تحت عنوان « تاريخ المغرب المقارن» يعطي فيه المؤلف نظرة وافية عن المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في المغرب في مختلف العصور من خلال المراجع العربية والفرنسية والانجليزية والاسبانية . وقد استقصى المؤلف كلما امكنه الاتصال به من مخطوطات ومصنفات ومستندات بمختلف اللغات

* تفيد آخر الاحصاءات ان عدد سكان المغرب قد بلغ 12.500.000 نسمة

* قام المستشار الفني العام للمكتب الدائم للتعريب بالمغرب الاستاذ احمد الاخضر في دائرة نشاط المكتب بتأليف قاموس في فقه اللغة مثلما فعل السيد عبد العزيز بن عبد الله في تأليفه للمعجم الحضاري ، وأصول العامية المغربية ، وهذا القاموس خصصه للمترادفات والمعاني بالالفاظ مرتبا ترتيبا ابجديا سكب فيه اهم كتب فقه اللغة الاصلية ، كما انه انتهى من تجريد القواميس العربية المشهورة مثل « لسان العرب » « والقاموس المحيط » و « تاج العروس » فانتقى منها مادة معجم كبير للمصطلحات الفنية في جميع فروعها . ومن المتوقع ان تظهر هذه التآليف في اواخر السنة الحالية .

* يوالي قسم النشر والتوزيع بالمكتب الدائم للتعريب بالمغرب مراسلاته مع الهيئات الثقافية ودور النشر العربية في العالم العربي في شأن التبادل الثقافي وتزويد خزانة المكتب بالمراجع والمصادر الضرورية . وقد تلقى اجوبة ايجابية من عدة دور للنشر والتوزيع في العالم العربي حيث تقاطر عليه كثير من المصنفات والمؤلفات في مختلف الوان العلم والمعرفة .

* صدر للشاعر المغربي عبد المجيد بن جلون ديوان بعنوان « براعم » .

* سيصدر عن دار الكتاب بالقاهرة الجزء الثالث من كتاب « اعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام » لمؤلفه لسان الدين ابن الخطيب . وهذا الجزء خاص بتاريخ المغرب العربي وصقلية ، قام

بالتعليق عليه الدكتور احمد مختار العبادي ، والاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، ويقع في 300 صفحة من فهارس عديدة وخرائط وصور .

※ اصدر المكتب الدائم للتعريب بالمغرب في نطاق حملة التعريب معجما يضم 365 لفظة طبعت منه عشرات الآلاف ووزعت في بادية المغرب وحاضرته .

※ ينكب المكتب الدائم للتعريب على اعداد مشروع مجلة تكون مرآة لمختلف وجوه نشاط العالم العربي في الحقل اللغوي ، وسيوجه المكتب المذكور صورة مفصلة من هذا المشروع لجامعة الدول العربية ، والشعب الوطنية للتعريب ، وللمجامع العلمية واللغوية .

※ يصدر الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله معجما للالفاظ الدارجة المغربية واصولها العربية ويبرز هذا المعجم نسبة تأثير الفصحى ، وخاصة منها لغة القرآن في اللسان المغربي الدارج مع نسبة آثار الفارسية واليونانية والتركية واللغات الاوربية في ذلك ، وهو بحث ارتكز فيه المؤلف على دراسة مقارنة نقدية استقراء مباشر للاصول في المعاجم وامهات الكتب .

※ يجري المكتب الدائم للتعريب بالرباط اتصالاته بالحكومة الجزائرية من اجل اقامة معرض متنقل للكتاب في المدن الجزائرية .

※ اصدرت السلطات الجزائرية طوابع خاصة تخليدا للذكرى الاولى لاستقلال القطر الجزائري .

※ اجتمعت اللجنة الدائمة للانباء التابعة للجامعة العربية في منتصف الشهر الماضي في عاصمة الجزائر ضمت ممثلين عن وزارات الانباء في كل دولة من الدول الاعضاء . وقد عمل هذا الاجتماع على تنسيق جهود الدول الاعضاء وتوجيه اشغال المكتب الدائم لمصلحة الصحافة والانباء في الامانة العامة للدول العربية . كما بحث هذا الاجتماع عدة قضايا لصالح العرب من جملتها قضية فلسطين ، والدعاية الصهيونية في افريقيا ، وانشاء صندوق خاص للدفاع عن قضايا العرب ، واقامة معرض خاص بالحضارة العربية ، واعداد دراسات للدفاع عن القضايا العربية في الخارج .

※ اصدرت وزارة الاوقاف الجزائرية مجلة باسم « المعرفة » تعنى بالثقافة الاسلامية وروحها الى جانب عنايتها بالادب والثقافة عموما . تهنيئتنا للزميلة راجين لها عمرا مديدا لخدمة رسالتها الاسلامية والثقافة ، وانتشارا واسعا .

※ تجري الآن اتصالات بين جامعة الدول العربية، وحكومة الجزائر والامانة العامة للمكتب الدائم للتعريب بالمغرب من اجل الاتفاق على موعد انعقاد الدورة الثانية لمؤتمر التعريب التي كان من المقرر انعقادها بالجزائر .

※ اكتشف الفنان محمد ابراهيم استاذ تاريخ الكتابة العربية في كلية الفنون الجميلة بالاسكندرية وشيخ الخطاطين مصحفا صغيرا كتبته فتاة اسمها « فضل » سنة 250 هجرية اي منذ 1132 سنة . ولقد اكتشف هذا المصحف في مكتبة مسجد عقبة بن نافع في القيروان بتونس التي سافر اليها محمد ابراهيم بدعوة من وزارة الثقافة هناك حيث فتحت أمامه مكتبات مسجد الزيتونة ، ومتاحف سوسة والمنستير والقيروان

※ فاز بجائزة بلدية تونس المعروفة بـ « جائزة علي البهلوان » لهذه السنة الاديبان محمد العروسي المطوي على قصته « حليمة » وفاتح والي على قصته « مولد البطل » .

※ اقامت رابطة « القلم الجديد » بدار الثقافة بتونس مهرجانا ادبيا تخليدا لذكرى وفاة المفكر سالم بن حميدة تكلم فيه لفيف من الادباء التونسيين كلهم اشادوا بدور الراحل في مجال الادب والفكر .

※ صدرت في تونس مؤخرا مجلة « الثقافة » لصاحبها الاستاذ ابو القاسم محمد كرو ، وهي مجلة شهرية تعنى بالادب والثقافة ، ومختلف انواع الفكر .

※ صدر في تونس للاستاذين ابو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط كتاب « عصر القيروان » عن دار الثقافة ، كما صدر كذلك بتونس كتاب « من مذاهب التربية والتعليم » بقلم الدكتور احمد بكر محمود .

※ سلم السيد سكوبيل عضو الاكاديمية الروسية، جائزة لينين للسلام الى السيد موديبو كيتا رئيس
جائزة لينين للسلام الى السيد موديبو كيتا رئيس
دعا فيها الدول الكبرى الى العمل على تقارب وجهات نظرها ، واعارة الاهتمام الى الدول غير المنحازة التي تشكل ثلث سكان العالم ، ولها رغبة صادقة في السلام .

※ احرز الكاتب جان ايكلي ماتوبا الكمروني الاصل على جائزة « افريقيا السوداء» للبلدان الناطقة بالفرنسية مكافأة له على كتابه « هذه افريقيا » .

ولد الفنان يوم 26 ابريل 1936 فى سونغ ندونغ بمنطقة ايديبيا بالكمرون . تابع دراسته فى بلاده ثم فى باريس ، وهو فى الوقت الحاضر يشتغل استاذا فى احدى الجامعات بالمانيا .

وكتاب « هذه افريقيا » عبارة عن قصة شاب قروي عاش فى ظلمات الاستعمار الالماني والفرنسي ، ثم شاهد فجر الاستقلال ببلاده .

* تجري الآن ترجمة يوميات الاديب الجزائري المرحوم مولود فرعون الذي صرعه الفرنسيون فى الجزائر قبيل وقف النار . وتسجل هذه اليوميات فترة هامة من حياة الشعب الجزائري وخاصة فترة الكفاح الدموي . ويقوم بالترجمة الاديب المصري عبد العاطي جـلال .

* اغرب معرض شهدته الاسكندرية اخيرا هو معرض الخطوط العربية الذي اقامه فى احدى قاعات كلية الاداب محمد حلمي حسن خبير الخطوط بجامعة الاسكندرية ، ويضم 100 لوحة خطية من تصميمه كلها تحمل آيات قرءانية وقد نجح صاحب المعرض فى كتابة سور قرءانية كاملة فوق حبات الترمس ، وحبات الارز .

* طلبت الهيئات المشرفة على التفرغ بوزارة الثقافة بالقاهرة رصد مبلغ مائة الف جنيه ، وذلك لتوسيع دائرة الفنانين والكتاب المتفرغين حتى يرتفع عددهم الى مائة متفرغ .

* صدر اخيرا كتاب بعنوان « دول اسلامية فى الشمال الافريقي » للكاتب المصري عبده بدوي .

* « عثمان بن عفان » آخر ما كتبه المرحوم محمد حسين هيكل ولم ينشر ، ثم جمعه اخيرا ، ويعده الآن للطبع بعض المؤرخين من اساتذة الجامعة فى القاهرة .

* « الجنة العذراء » رواية جديدة صدرت للروائي المصري عبد الحليم عبد الله .

* « مشكلات الشباب » عنوان الكتاب الذي صدر للدكتور عثمان نجاتي استاذ علم النفس بجامعة القاهرة ويعد هذا الكتاب اول بحث حضاري مقارن يعنى باتجاهات الشباب ومشكلاتهم فى مختلف البلدان العربية

* ستقوم الشاعرة العراقية نازك الملائكة بالقاء سلسلة من المحاضرات فى معهد الدراسات العربية العليا بجامعة الدول العربية بالقاهرة عن « مشاكل الشعر المعاصر » بين الالتزام بالقافية والتحرر من العمود الشعـري » .

* يقوم المجمع اللغوي بالقاهرة بطبع اول دائرة معارف عربية عن الاعلام الجغرافية باشراف الدكتور محمود العياد استاذ الجغرافيا فى جامعة القاهرة .

* انتهى الفنان الياباني « هاشيموتو » رسام اليابان الاول من اعداد كتابه « قصة 5 000 سنة » ضمنه 100 لوحة ، يسرد من خلالها تاريخ مصر وحضارتها فى الماضي والحاضر وكان الفنان الياباني قد قضى شهرا بين الآثار المصرية ، رسم خلالها لوحاته التي ضمنها هذا الكتاب .

* أعلن المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم بالقاهرة الاجتماعية عن مسابقة لنيل جائزة شوقي لعام 1963 .

* عين اخيرا الدكتور طه حسين رئيسا للمجمع اللغوي بالقاهرة .

* صدر فى القاهرة العدد الاول من مجلة « المكتبة العربية » وهي مجلة فصلية تبحث فى تطور الدراسات والابحاث فى علوم المكتبات .

* « شرح أشعار الهزليين » كتاب صدر فى القاهرة للسكري بتحقيق عبد الستار فراج .

* خمسة معاجم ستصدرها وزارة الثقافة بالقاهرة . وهي « الرائد الكبير » و « الرائد الصغير » و « الرائد المصور » و « رائد المعاني » و « رائد المترادفات » .

* اعادت مؤسسة التاليف والنشر بالقاهرة طبع كتاب « عيون الاخبار » لابن قتيبة فى اربع مجلدات .

* صدرت بالقاهرة رواية « السهول البيض » لعبد الحميد جودت السحار .

* ستقوم لجنة الموسيقى فى مجلس الفنون بالقاهرة بتوحيد مصطلحات الموسيقى فى العالم العربي .

* قدر عدد الكتب الصادرة اخيرا فى الجمهورية العربية المتحدة بمعدل كتاب فى كل 6 ساعات .

* صدر اخيرا فى المانيا الغربية كتاب جديد فى سلسلة كتب « مقابلات فكرية » وعنوانه « مصر خلال قصص أشهر ادبائنا المعاصرين » اشتمل على 35 قصة مصرية حديثة لاكبر الادباء المصريين المترجمة الى اللغة الالمانية ، وبعض هذه القصص ترجم مباشرة من العربية الى الالمانية ، وبعضها ترجم من الفرنسية والانجليزية ، وثلاثة منها كتب أصلها باللغة الانجليزية.

* تصدر الكاتبة جاذبية صدقي كتابها الثالث فى ادب الرحلات بعنوان « فى جزيرة الانجليز » والكتابان الاولان اللذان صدرا لها هي « امريكا وانا » و « في بلاد الدماء الحارة » .

* نعت القاهرة علما من اعلام الفن الموسيقي هو المرحوم محمد حسن الشجاعي .

* قرر المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة انشاء جائزة سنوية تشجيعا للفنانين فى ميدان المسرح . والجائزة عبارة عن لقب « فنان الدولة » .

* أسست جماعة من اهل الفكر والادب فى لبنان رابطة ادبية اطلقوا عليها « الرابطة اللبنانية للآداب والفنون » من بين أعضائها : ديانا تقي الدين ، وسامية ساندري مخيبر ، واملي نصر الله ، ومتيرا بودبس ، ورئيف ابو اللمع ، وأدونيس ، وميشال اسمر ، ويوسف حبشي ، وجورج باز ، وسعيد عقل ، وقد اذاعت هذه الرابطة ميثاقا ضمنته اهدافها القائمة على الكشف على النتاج اللبناني العميق الفني والمعبر ، والتعريف به وتشجيعه واشاعته والتعاون مع مؤسسة « الندوة اللبنانية » فى كل ما من شأنه النهوض بالثقافة اللبنانية واضاءتها ومد جذورها فى الحياة والروح . »

* كتاب « العربية الفصحى » للمستشرق هنري فليش ترجم الى العربية ويطبع فى بيروت بالرموز الصوتية ، ويعتبر هذا الكتاب اول تجربة عملية فى علم الدراسات اللغوية العربية .

* فتحت بلبنان جائزة سعيد عقل الشهرية عن شهر ابريل للدكتور فرح معلوف .

* « معلقة توفيق صائغ » كتاب شهر جديد صدر لتوفيق الصائغ فى منشورات المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ببيروت .

* « اللصوص » رواية وليام فولكنر قامت بترجمتها الى العربية خالدة سعيد ، وصدرت عن دار مجلة « شعر » بلبنان .

* « انا والله والعالم » مجموعة شعرية لفازي فؤاد براكس صدرت حديثا ببيروت .

* اقامت جمعية متخرجي المقاصد الاسلامية فى بيروت ندوة عن « قضية فلسطين » .

* « أقوى من القبر » ديوان شعر جديد صدر لموسى سليمان ببيروت .

* أقامت الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية مؤتمرها الثامن لعلم السياسة وموضوعه « الرأي العام والحياة السياسية فى لبنان » وذلك فى كلية الحقوق والعلوم السياسية بالجامعة اللبنانية فى بيروت .

* المعهد الثقافي الايطالي ببيروت عقد بالتعاون مع منظمة حرية الثقافة والندوة اللبنانية مؤتمر الاستشراق الايطالي والادب العربي .

* اصدرت دار العلم للملايين الترجمة العربية لرواية « الصخب والعنف » لوليام فولكنر وصاحب الترجمة هو الاستاذ ابراهيم جبرا ابراهيم .

* اعيد فى لبنان طبع ديوان « الاعاصير » للشاعر رشيد سليم الخوري .

* صدرت لليلى بعلبكي مجموعة قصصية بعنوان « سفينة حنان الى القمر » .

* اقدم مدينة فى العالم امكن العثور على آثارها حتى الآن هي مدينة « اريحا » بفلسطين . ولقد وجد ان اسوارها الشهيرة اقيمت منذ 8000 سنة .

* صدر للروائي السوري فاضل السباعي كتاب بعنوان « ثريا » وهي ثاني رواية تصدر للمؤلف .

* اطلق اسم خليل مردم بك على شارع مهم بدمشق .

* تقرر عقد مؤتمر الادباء العرب الرابع بدمشق خلال شهر شتنبر المقبل .

* صدرت للاديبة السورية منور فوال مجموعة قصص بعنوان « دموع الخطيئة »

* سيقام مهرجان الشعر العربي السادس في بغداد فى 23 يوليو .

* قررت ادارة المركز الثقافي العربي بحمص اقامة مهرجان للشاعر المرحوم عبد الباسط الصوفي بمناسبة مرور ثلاث سنوات على وفاته غريبا عن وطنه.

* اكتشفت فى رأس شمرا بالقرب من اللاذقية فى شمال سوريا لوحات بابلية تعود الى 1300 عام قبل المسيح ، وتشتمل على تمائم ضد الشيطان لا ماشتو واحاديث طيبة غريبة .

* اكتشفت بعثة الآثار التابعة لجامعة شيكاغو الامريكية مدينة صغيرة في جنوب العراق كانت تعرف باسم « كاشن » وتعتبر هذه المدينة بمثابة احدى الحلقات المفقودة في تاريخ الانسان البدائي الذي عاش في وادي دجلة والفرات .

* سيقدم للطبع الاديب العراقي الدكتور يوسف عز الدين « مخطوطة شعر الاخرس » التي تشتمل على الكثير من شعر الاخرس الذي لم ينشر بعد .

* صدرت عن دار الاصفهان بجدة مجموعة قصص للكاتب السعودي عبد الله خفري تحت عنوان « حياة جائعة » .

* « لمحات عن التطور الفكري » كتاب جديد صدر للاديب السعودي فهد المارك يتحدث عن حياة شعب شبه الجزيرة العربية .

* صدر في السعودية للشاعر سعد البدراوي ديوان يتضمن قصائد في الحب والسياسة والفلسفة .

* « راس الطريق » هو اسم الكتاب الذي صدر حديثا للاستاذ عبد الكريم الجهيمان .

* صدر في هذا الاسبوع القسم الاول من كتاب « تاريخ جدة » لعبد القدوس الانصاري رئيس تحرير مجلة « المنهل » السعودية .

* سيؤسس في المملكة السعودية المجلس الاعلى لرعاية العلوم والفنون والاداب ، وسيراس المجلس وزير المعارف السعودية .

* نعت القدس العلامة اللغوي الاب اغسطين مرمرجي الدومينكي عضو المجامع اللغوية وصاحب المؤلفات العديدة في اللغة العربية .

* عقد في منتصف الشهر المنصرم في امستردام مؤتمر دولي للموسيقى .

* سيعقد في جنيف مؤتمر التعليم السادس والعشرون للتعليم .

* انعقد مؤخرا بموسكو مؤتمر الكتاب الشبان تحت اشراف منظمة الشباب الشيوعية المعروفة ب « الكمسمول » حضره مائة وسبعون كاتبا شابا جاءوا من مختلف جمهوريات الاتحاد السوفياتي .

* سينعقد في هانوفور بالمانيا في الفترة بين 14 غشت و 21 منه مؤتمر للطب يحضره 4000 طبيب من خمسين دولة من دول العالم .

* ينعقد في روما ما بين 21 غشت و 5 شتنبر القادم أول مؤتمر دولي للسياحة تحت اشراف هيأة الامم المتحدة يشارك فيه حوالي 500 مندوب عن دول العالم .

* سيجري بباريس في هذه السنة الاحتفال بمرور ثمانية قرون على تأسيس « نوتردام دوباري » . وقد نشرت اللجنة المكلفة بتنظيم الاحتفال برنامج الحفلات الفنية والثقافية التي ستقام الى جانب الاحتفالات الدينية .

* اعلن المكتب الفرنسي للمفردات اللغوية أسماء الفائزين « بكؤوس اميل دوجيراردان » عن عام 1962 وتمنح هذه الجوائز كل عام للصحف التي امتازت خلال « يوم بدون حادث مفردات لغوية » وهو اول يوم في ابريل .

* دشن مؤخرا في متحف اللوفر معرض عن دولاكروا بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته .

* اقيم في مدينة رين المؤتمر التاسع لمعاهد الحقوق والعلوم الاقتصادية . وكان مخصصا لدرس القضايا الاقتصادية والقضائية الناتجة عن نمو المدن .

* اقيم في منتصف يونيو الماضي مؤتمر علمي في اللوفر ، عالج كثيرا من المواضيع المتعلقة بالتاريخ والآثار والفن والحقوق .

* صدر الفهرس الخاص بهيئة اليونيسكو مشتملا على احصاء عن الكتب التي ترجمت خلال عام 1961 :

ترجم الانجيل الى 246 لغة وترجمت مؤلفات لينين الى 148 لغة ، ومؤلفات طاغور الى 241 لغة ، وشكسبير الى 98 لغة ، وبلزاك الى 61 لغة ، وارسطو الى 23 لغة ، وترجمت اعمال سارتر الى 19 لغة .

* منحت اكاديمية الآداب بباريس جائزة كليرمون نخاقو الى السيد شارل فيروليود الذي اكتشف منطقة سامرا عام 1928 .

* لاول مرة يعقد في فرنسا مؤتمر عمداء جامعات فرنسا وبريطانيا .

* صدر لونستون تشرشل كتاب اسمه « حبيبتي كليمنتين » سجل فيه مذكراته مع زوجته التي شاطرته الحياة .

※ تعرض فى لندن هذه الاسابيع مسرحية الفها الكاتب الانجليزي اوبرت موالر بعنوان « المتآمرون فى الليل » وفى هذه المسرحية شخصية « ادولف هتلر » وقد ظهر فجاة بعد ان اختفى عن المسرح السياسي منذ 18 سنة .

※ تحتفل بريطانيا والعالم الادبي معها فى الثالث والعشرين من شهر ابريل من السنة المقبلة بذكرى مرور اربعمائة سنة على ولادة الشاعر البريطاني وليام شكسبير الذي كانت ولادته فى 23 ابريل سنة 1564 فى ستراتفورد . وبهذه المناسبة قررت مصلحة البرق والبريد بانجلترا اصدار طوابع تذكارية خاصة بهذا المهرجان تحمل رسم الملكة اليزابيث الثانية الى جانب مشاهد من مسرحيات المؤلف .

※ صدر فى انجلترا مؤخرا كتاب بعنوان « العبقرية والزواج » بقلم جون ستيدارث كوليز ، تناول بالدراسة فيه حياة الكاتب المسرحي المعروف مستر ندبرج ، وتولستوي .

※ سيقام فى قلب لندن مسجد على الطراز المصري التقليدي مشتملا على قبة ومئذنة طولها 195 قدما ، وسيتسع صحنه الرئيسي الذي تبلغ مساحته 5130 قدما مربعة لآلاف من المصلين . وشيد المسجد فى ارض المركز الثقافى الاسلامي من الجهة المطلة على منتزه رئيسي من منتزهات لندن ، وهو منتزه ريجنت ، وقد قدمت الحكومة البريطانية الارض سنة 1912 للحكومة المصرية مقابل الارض التي تقوم عليها الكاتدرائية الانجليزية فى القاهرة ، ثم تولت الاشراف على الارض لجنة من الامناء مؤلفة من سفراء الدول الاسلامية فى لندن .

※ سيصدر الجنرال كلوب باشا القائد البريطاني السابق بجيش الاردن قصة تاريخية عن العالم الاسلامى وقد أصدر حتى الآن خمسة مؤلفات عن العالم العربي ظهر آخرها فى الشهر الماضي وهو « الفتوح العربية الكبرى فى القرن السابع عشر » .

※ انتخب الشاعر الفرنسي سان جون بيرس الحاصل على جائزة نوبل للآداب عضوا فخريا فى الاكاديمية الامريكية للفنون .

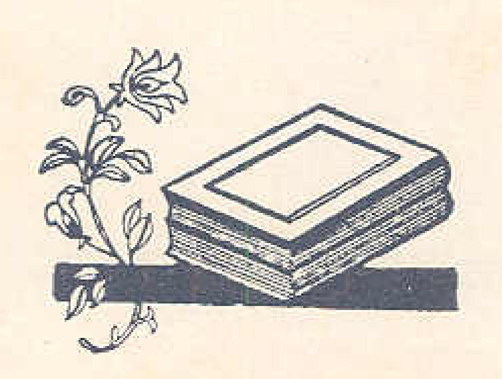
※ سيقيم الامريكيون تمثالا لتشرشل فى ميدان ماشا تشوسيتس ، وسيكون حجمه اكبر من الحجم الطبيعي لتشرشل .

※ قرر اتحاد الفنانين الامريكيين الذي يضم حوالي عشر آلاف من الاعضاء رفض العمل بالمسارح التي يطبق اصحابها التمييز العنصري . وقد اتخذ هذا القرار بالاجماع من جانب المندوبين الذين حضروا الاجتماع .

※ منحت جائزة « بولتز » الادبية لسنة 1963 للكاتب الامريكي وليام فولكنر تقديرا لقصته « اللصوص »

ومعروف ان فولكنر الذي توفي فى السنة الماضية كان احرز على جائزة نوبل سنة 1950 كما احرز على نفس جائزة « بولتزر » سنة 1954 .

※ توفى فى الولايات المتحدة الشاعر المهجري الياس عقل وقد خلف وراءه مؤلفات عديدة بالعربية والانجليزية والبرتغالية .



فهرس العدد العاشر - السنة السادسة

الصفحة